د. محمد عبد المنعم خفاجي

موقف النقاد من الشعر الجاهلي

الناشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد ـ القاهرة

طبعة ثانية مزيدة ومنقحة
الطبعة الأولى صدرت عام ١٩٥٠

مقدمة الطبعة الثانية

كان السير وليم جونز — مترجم المعلقات إلى الإنجليزية — يقول للشعراء : اقرأوا الشعر العربى الجاهلى فى أروع إبداعاته فى قصائد المعلقات ، فستجدون صورا جديدة لو أخذنا عنها لنهضنا بالشعر فى بلادنا نهضة مرموقة .

فهل لى أن أقول للشباب العربى : اقرأوا الشعر الجاهلى لتزدادوا قدرة على التجديد والابداع وفهم لغة القرآن الكريم ؟

إننى أقدم إليهم « موقف النقاد من الشعر الجاهلى » فى طبعته الجديدة المزيدة من أجل ذلك كله . . . وبالله التوفيق ؟

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

الكلمة الأولى

هذه بحوث ودراسات أدبية جديدة ؛ حول الشعر الجاهلى ، وموقف النقاد منه ، ومذاهبهم فى نقده ، والتجديد والتقليد فيه ، والطبع والصنعة وآثارهما الفنية فى نشأته ونهضته ، وموازنات أدبية جديدة ، تسير وفق مناهج البحث الأدبى فى النقد والموازنة .

ولا أجد ما أقوله إلا أن أقدم هذه الدراسات للقراء والباحثين . معتمداً على حسن تقديرهم ، وكريم شعورهم ، وعدالتهم الأدبية فى الفهم والتذوق والنقد .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ؟

محمد عبد المنعم خفاجى

الفصل الأول

آراء علماء الأدب فى الشعر الجاهلى

— ١ —

الشعر الجاهلىُّ ، الذى اتخذه الشعراء فى مختلف العصور ، أصلا يحتذون حذوه ، وينهجون منهجه ، ويبنون عليه ، ويقلدونه فى مناحيه الفنية والأدبية تقليداً كبيراً ؛ هذا الشعرُ هو الذى نريد أن نتحدث عن موقف النقاد منه ، وآرائهم فيه ، ومذاهبهم حياله ، حديثا يجمع مع الإيجاز أطراف هذا الموضوع المتشعب الدقيق .

— ٢ —

وأولُ ما نذكره فى هذا البحثّ آراء الجاهليين أنفسهم فى الشعر الجاهلىّ ونقده ؛ وهذه الآراء كثيرة متعددة ؛ طائفة منها تتحدث عن منزلة بعض الشعراء الأدبية فى الشعر ، وطائفةٌ أخرى فيها نقد لبعض الشعراء .

فأنت تعلم أن كلُّ قبيلة فى الجاهلية ، كانت ترفع منزلة شاعرها على الشعراء ، وتذهب إلى أنه إمامهم وأولهم فى دولة الشعر . فكان اليمنيون يذهبون إلى أن امرأ القيس هو إمام الشعراء ، وكان بنو أسد يذهبون إلى تقديم عبيد ، وتغلب تقدِّمُ مهلهلا ، وبكرٌ تُقدم المرقش الأكبر ، وإياد ترفع من شأن أبى دؤاد ، وهكذا . وكان أهل الحجاز والبادية يقدمون زهيراً والنابغة ، وأهل العالية لا يعدلون بالنابغة أحداً ، وأهل الحجاز لا يعدلون بزهير أحدا . وكان العباس بن عبد المطلب يقول عن امرئ

القيس : هو سابق الشعراء ؛ ورأى لبيدٌ أن أشعر الناس امرؤ القيس ثم طرفة ثم نفسه .

كما نعلم أنّ الجاهليين أنفسهم كانت لهم آراءٌ كثيرة فى نقد الشعراء : فكان النابغة تضرب له قبة حمراء فى سوق عكاظ ، فتأتيه الشعراء وتنشده أشعارها ؛ أتاه الأعشى يوما فأنشده ، ثم أتاه حسان فأنشده ، فقال : لو لا أن أبا بصير — الأعشى — أنشدنى آنفا لقلت إنك أشعر الجنّ والأنس ؛ فقال حسان : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك وجدك ، فقبضّ النابغة على يده وقال : يابن أخى أنت لا تحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ثم أنشدت الخنساء :

قذًى بعينكَ أم بالعين عوّار أم أقفرتْ إذ خلتْ من أهلها الدار

فلما بلغتْ قولها :

وإن صخراً لتأتمُّ الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

قال : ما رأيت امرأة أشعرَ منك ؛ قالت : ولا رجلا

وحكومة أمّ جندب الطائية بين امرىء القيس وعلقمة بن عبدة الشاعرين ، وتفضيلها علقمة على زوجها امرىء القيس مشهورة ؛ ولا داعى هنا لذكرها ، فلها حديث آخر إن شاء الله .

ومرّ امرؤ القيس بكعب وأخويه : الغضبان والقعقاع ، فأنشدوه ؛ فقال: إنى لاعجب كيف لا تمتلىء عليكم ناراً جودة شعركم ، فسموا بنى النار .

وروى المرزبانى فى كتابه « الموشح » أن الزبرقان وعمرو بن الأهتم وعبدة بن الطبيب والمخبل السعدى ، تحاكموا إلى ربيعة بن حذار الأسدى الشاعر ، فى الشعر وأيهم أشعر ؛ فقال للزبرقان : أما أنت فشعرك كلحم أسخن ، لا هو أنضج فأكل ، ولا ترك نيئاً فينتفع به ؛ وأما أنت يا عمرو فإن شعرك كبرود حبر ، يتلألأ فيها البصر ، فكلما أعيد النظر ، نقص البصر ؛ وأما أنت يا مخبل فإن شعرك قصر عن شعرهم ، وارتفع عن شعر غيرهم ؛ وأما أنت يا عبدة فإن شعرك كمزادة أحكم خرزها فليس تقطر ولا تمطر .

كما روى أيضاً أن هؤلاء الشعراء اجتمعوا فى موضع فتناشدوا أشعارهم فقال لهم عبدة : والله لو أن قوما طاروا من جودة الشعر لطرتم ، فإما أن تخبرونى عن أشعاركم وإما أن أخبركم ، قالوا : أخبرنا ، قال : فإنى أبدأ بنفسى ، أما شعرى فمثل سقاء شديد ، وغيره من الأسقية أوسع منه ، وأما أنت يا زبرقان ، فإنك مررت بجزور منحورة ، فأخذت من أطايبها وأخابثها .

إلى غير ذلك من مواقف النقد والنقاد للشعر فى العصر الجاهلى والتى لا تخرج عن الاستحسان أو الاستهجان للشعر والشعراء .

— ٣ —

وجاء الإسلام ، فكان له ولرسوله الكريم ، موقف جليل من الشعر الجاهلى . أنكر بعضاً وعرف بعضا ، أنكر هذا الشعر الذى ينافى الأخلاق الكريمة ، والمثل العليا ، من الغزل الفاحش ، والمجون الخليع ، والهجاء الكاذب ، والمدح المفرق ، والمبالغة ؛ وعرف هذا الشعر الذى يدعو إلى الفضائل والأخلاق والدين ، ويحث على الأدب والطموح وأداء الواجب

وحب الجماعة والتضحية فى سبيل الأمة والإنسانية . فكان هذا الموقف الخالد للاسلام ونبيه العظيم ، توجيها جليلا لرسالة الشعر ، وتهذيباً نبيلا للشعراء ليسموا بفنهم الرفيع إلى مجال الطهر والخير ، وآفاق الحق والعدل والحرية والنور ؛ بل كان نقداً عميقاً للشعر ومنهج الشعراء فى الجاهلية ، وإنكاراً لاتخاذ الشعر وسيلة للتكسب والثراء .

وظهر أثر الاسلام والقرآن فى تهذيب أسلوب الشعر وألفاظه وفى البعد به عن الحوشية والغرابة ، وطبعه بطابع القوة والجلالة والروعة مع الحلاوة والبلاغة والسلاسة .

كما ظهر أثر القرآن والحياة الجديدة فى عقلية الشعراء وتفكيرهم ومعانيهم وأخيلتهم .

— ٤ —

وفى عصر دولة بنى أمية ، انتشرت العصبيات ، وكثرت الخلافات السياسية والدينية وتغير نهج حياة العرب وتفكيرهم ؛ فعادوا إلى مذاهب الجاهليين فى الشعر ، واتخذوه أداة للدفاع عن الرأى والعقيدة ، ولساناً لأذاعة محامدهم ومفاخرهم ؛ وشجعوا الرواة على رواية الشعر الجاهلى ، والشباب على درسه وتعلمه والتأدب بأدبه ، ووضعت فى هذا العصر أصول النحو العربى ، فأخذ العلماء ينقدون الشعر الجاهلى نقداً يتصل بالأعراب ، « وكان ابن أبى إسحاق وعيسى بن عمر يطعنان عليهم ، وكان عيسى يقول : أساء النابغة فى قوله : [illegible]

[illegible]

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة   من الرقش فى أنيابها السم ناقع

ويقول موضعه : ناقعًا[١] » .

— ٥ —

ومن أشهر رواة الشعر الجاهلى ونقاده فى القرن الثانى الهجرى .

أبو عمرو بن العلاء البصرى المتوفى عام أربعة وخمسين ومائة بعد الهجرة ؛ وحماد الراوية الكوفى [٧٥ — ١٥٦ هـ] ، وخلف البصرى م ١٨٠ هـ ، والمفضل الضبى م ١٨٩ هـ ، وهو أقدم من جمع المختار من شعر العرب فى كتاب ، وأول من فسر الشعر بيتًا بيتًا ويقال إنه أول من جمع أشعار الجاهليين .

ومنهم ابن الكلبى م ٢٠٤ هـ ، وأبو زيد الأنصارى صاحب كتاب الجمهرة المتوفى عام خمسة عشر ومائتين ، وأبو عبيدة البصرى م ٢٠٩ هـ صاحب « النقائض » و « مجاز القرآن » ، والأصمعى البصرى م ٢١٦ هـ ؛ وقد أدرك بعض هؤلاء جزءاً من أوائل القرن الثالث . وكان لهؤلاء الرواة أثر كبير على الشعر الجاهلى ، فقد اهتموا بجمعه وروايته وتدوينه ، ووضعوا الجاهليين فى طبقات ، ولم يتركوا شاعراً مشهوراً من الجاهليين إلا رأوا فيه رأيا .

وكان أبو عمرو بن العلاء من أشد الناس إكباراً للجاهليين ، وتعظيماً لشأنهم ، جلس إليه الأصمعى عشر سنين فما سمعه يحتج ببيت إسلامى ؛ ويروى عنه : « لو أدرك الأخطل يوما واحداً من الجاهلية ما قدمت عليه

(١) ٤١ الموشح ، ١١ و ١٢ طبقات الشعراء لابن سلام .

أحدا ، وكان لا يعد الشعر إلا للجاهليين ، وكان كما يقول ابن سلام فى « طبقات الشعراء » : أشد الناس تسليماً لهم .

وكان المأمون رغم ثقافته الواسعة يتعصب للأوائل من الشعراء ، ويقول : انقضى الشعر مع ملك بنى أمية .

وكان الأصمعى — مع تحامله على المحدثين وشعرهم — معتدلا فى عصبيته للشعر الجاهلى ، كان يحب الجيد منه ، وينقد الردىء ، عاب امرأ القيس فى قوله فى وصف الفرس :

وأركبُ فى الروع خيفانة كسا وجهها سعفٌ منتشرْ

والخيفانة فى الأصل هى الجرادة ، وتشبه بها الفرس فى الخفة ؛ قال الأصمعى : شبه شعر الناصية بسعف النخلة ، والشعر إذا غطى العين لم يكن الفرس كريما ! كما عاب غير امرىء القيس من الشعراء ؛ وكان يقول : ختم الشعر بالرماح ، وهو شاعر أموى مشهور .

— ٦ —

وفى القرن الثالث الهجرى نجد النقاد فى موقفهم من الشعر الجاهلى طائفتين :

فطائفة تعجب بالجاهليين وشعرهم إعجابا شديدا ، ولا ترى الشعر إلا لهم . ومن هؤلاء ابن الأعرابى م ٢٣١ هـ ، وكان يزرى بأشعار المحدثين ، ويشيد بشعر القدماء ؛ وكان يعيب شعر أبى نواس وأبى تمام ، ويقول : ختم الشعر بابن هرمة ؛ وقال فى بشار : والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير من الشعراء .

ومنهم أيضاً إسحاق الموصلى م ٢٤٠ هـ ، وكان فى كل أحواله ينصر الأوائل ، وكان شديد العصبية لهم ، وكان لا يعتدُّ ببشار ؛ ولم يكن موقفه قاصراً على الشعر وحده ، بل كان كذلك فى الغناء ؛ كان يتعصب للغناء القديم ، وينكر تغييره ويعظم الإقدام عليه . ومثلُ ذلك التعصب للقديم موجود فى الآداب الأوربية ، فقد كان « هوراس » الشاعر الرومانىّ يرى أن شعراء اليونان هم النماذج التى يجب أن تدرس ليلا ونهاراً ، وأن الشعر ينبغى أن ينظم كما كانوا ينظمونه ، وكان فى فرنسا خلال القرن السابع عشر مذهبٌ أدبى يرمى إلى إكبار البلاغة القديمة وتقليدها ، لأنها تمثل البيان خير تمثيل ، وكان يتزعمه جماعة من النقاد أشهرهم « بولو » ، حتى ألف شارل بيرو كتابه «الموازنة بين القدماء والمحدثين » ، يدعو فيه إلى التحرر من التقليد ، ويشيد بالمحدثين ، ويقول إنهم فاقوا القدماء فى البلاغة .

وقد اعتذر الباقلانى عن هؤلاء النقاد العرب المحافظين ، بأنهم إنما كانوا يميلون إلى الذى يجمع الغريب والمعانى ؛ واعتذر ابن رشيق عنهم بحاجتهم إلى المثل والشاهد وقلة ثقتهم بما يأتى به المولدون ؛ ولكنّ الجرجانىّ فى الوساطة يذكرُ أن ذلك أثر لتعصب علماء اللغة ووراثها للشعر القديم ، وإنكارهم لفضل المحدثين وشعرهم (١) .

وطائفةٌ أخرى من النقاد فى القرن الثالث ، حكّموا الذوقَ الأدبىّ والطبع وحدها فى الشعر ؛ وحكموا بالفضل لمن يستحقه ، جاهليا كان أو إسلاميا أو محدثا ، فلم يفضلوا الجاهليين لسبقهم فى الزمن ، ولم يغضُّوا من شأن المحدثين لتأخر عصرهم . ومن هؤلاء : الجاحظ م ٢٥٥ هـ وابن قتيبة م ٢٧٦ هـ ، والمبرِّد م ٢٨٥ ، وابن المعتز م ٢٩٦ هـ .

---

(١) ٤٩ و ٥٠ الوساطة ط بيروت .

يقول ابن قتيبة فى أول كتابه « الشعر والشعراء[١] » : ولا نظرت إلى المتقدم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا المتأخر بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين ، وأعطيت كلا حقه ، ووفرت عليه حظه ؛ فإنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه موضع متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب عنده إلا أنه قيل فى زمانه ، ورأى قائله ؛ ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده ، وجعل كل قديم منهم حديثا فى عصره ، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل يعدون محدثين ، وكان أبو عمرو يقول : لقد نبغ هذا المحدث حتى هممت بروايته .

وقال المبرد : ليس لقدم العهد يفضل القائل ، ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب ، ولكن يعطى كل ما يستحقه[٢] .

وأنكر ابن المعتز عصبية هؤلاء النقاد للشعر القديم ، وذمهم لشعر المحدثين ، وقال : إنها عيب قبيح ، ومن فعل ذلك فإنما غض من نفسه ، وجعل هذا ناشئاً عن جهل بنقد الشعر وتمييزه[٣] .

وكان الجاحظ هو السابق إلى إقامة نقد الشعر على أسس فنية خالصة ، وحارب هذا التعصب المقوت للقديم لقدمه ، وآراءه فى ذلك فى كتابيه : « الحيوان والبيان والتبيين » كثيرة ؛ ففى الحيوان ينكر الجاحظ على المتعصبين

---

(١) ٧ و ٨ الشعر والشعراء .
(٢) ٢/٩٨ الكامل للمبرد .
(٣) ١٣ و ١٤ « رسائل ابن المعتز » تأليف محمد عبد المنعم خفاجى .

للقديم فعلهم ، ويقول : ولو كان لهم بصر لعرفوا موضع الجيد ممن كان وفى أى زمان كان »[١].

وفى القرن الثالث أيضاً كثرت مؤلفات النقاد فى الشعر والشعراء الجاهليين ، وكتاب ابن سلام « طبقات الشعراء » مشهور ، وهو أبرز عمل أدبى منظم فى النقد ، وقد قسم الجاهليين عشر طبقات ، وأضاف إليهم شعراء المراثى وشعراء المدن العربية ، ووضع فى الطبقة الأولى امرأ القيس وزهيراً والأعشى والنابغة ، ولم يسبقه إلى هذا التقسيم الفنى لشعراء الجاهليين وطبقاتهم الأدبية إلا أبو عبيدة الذى قسم الجاهليين ثلاث طبقات ، ووضع فى الأولى امرأ القيس والنابغة وزهيراً ، وفى الثانية الأعشى وطرفة ولبيداً ؛ ويذكر ابن سلام فى « طبقات الشعراء » الإسلاميين أيضاً ويقسمهم طبقات عشرا ، ولا يذكر أحداً من المحدثين . بعكس ابن قتيبة ، الذى ألف كتابه : الشعر والشعراء ، وذكر فيه الكثير من المحدثين الذين عاشوا قبيل منتصف القرن الثالث الهجرى ؛ وهذا يدلنا على أن ابن قتيبة كان أكثر تقديراً للشعر الجيد وحده ، بصرف النظر عن قائله وعصره . وذلك يذكرنا بجمع المفضل وأبى زيد الأنصارى للشعر العربى ، فقد جمع المفضل فى مفضلياته مختارات للشعراء الجاهليين ، والقليل جداً من المخضرمين ؛ أما أبو زيد الأنصارى فنى كتابه « الجمهرة » مختارات للجاهليين والمخضرمين والإسلاميين ، فكأنه لا يقف إعجابه على الشعر الجاهلى وحده ، بخلاف المفضل .

وألف ابن المعتز أيضاً كتاباً فى « طبقات الشعراء المحدثين » ، طبع فى

(١) ٣ : ٤٠ الحيوان .

أوربا وفي معبر ، ويسير فيه على نهج ابن قتيبة من حيث ذكر الشاعر وحياته ومذهبه الفني في شعره ، ونماذج من مختارات شعره ، ولكن الكتاب وقف على المحدثين وحدهم ، من بشار إلى عصر ابن المعتز ، وهو أوفى كتاب في دراسة طبقة بشار ، وطبقة أبي نواس ، وطبقة أبي تمام والبحتري . وهذا يدلنا على إعجاب ابن المعتز بالمحدثين ، وتقديره لبلاغتهم وشغله بهم عن الجاهليين والإسلاميين إلى حدّ ما .

— ٧ —

أما القرن الرابع فقد كان أحفل قرن بالنقد والنقاد ؛ وظهرت فيه أول كتب النقد الأدبي مثل ؛ نقد الشعر لقدامة م ٣٣٧ هـ ، ونقد النثر المنسوب خطأ إليه أيضاً ؛ ومثل أخبار أبي تمام للصولي م ٣٣٦ هـ ، والموازنة للآمدي م ٣٧١ هـ ، والوساطة للجرجاني م ٣٩٢ هـ وإعجاز القرآن للباقلاني م ٤٠٣ هـ .

كما ظهر في القرن الخامس : ابن رشيق م ٤٦٣ هـ صاحب « العمدة » وابن سنان الخفاجي م ٤٦٦ هـ صاحب سر الفصاحة ، وعبد القاهر الجرجاني صاحب الأسرار والدلائل م ٤٧١ هـ .

وكان النقاد في هذين القرنين يسيرون على نهج الجاحظ ، فلم يتعصبوا للشعر الجاهلي لتقدم زمنه ، أو يميلوا على المحدثين لتأخر عصرهم ؛ بل حكّموا الذوق وحده في كل شيء ، حتى لقد وقفوا معددين لأخطاء الجاهليين ، كما فعل الآمدي في الموازنة ، والجرجاني في الوساطة ، وابن رشيق في العمدة ، وسواهم ؛ قال الآمدي في كتابه « الموازنة » : وما رأينا أحداً من شعراء الجاهلية سلم من الطعن ، ولا من أخذ الرواة عليه الغلط والعيب . وقال صاحب « الوساطة » في أول كتابه : « ودونك هذه الدواوين الجاهلية

والإسلامية ، فانظره هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أبيات ، لا يكون لعائب القدحُ فيه ، إما فى لفظه ونظمه ، أو ترتيبه وتقسيمه ، أو معناه ، أو إعرابه ؛ ولولا أن أهل الجاهلية جدوا بالتقدم ، واعتقد الناس فيهم أنهم القدْوة والأعلام والحجةُ ، لوجدت كثيراً من أشعارهم معيبة مسترذلة ، ومردودة منفية ، لكن هذا الظن الجميلَ ، والاعتقاد الحسن ، ستر عليهم ، ونفى الظِّنة عنهم ، فذهبت الخواطر فى الذب عنهم كل مذهب . وقامت فى الاحتجاج لهم كل مقام[1] ؛ ولو تصفحت ما تكلفه النحويون لهم من الاحتجاج ، وتبينت ما راموه فى ذلك من المرامى البعيدة ، وارتكبوا لأجله من المراكب الصعبة ، التى يشهد القلبُ أن المحركَ لها ، والباعث عليها ، شدة إعظام المتقدم ، والكلف بنصرة ما سبق إليه الاعتقاد ، وألفته النفس ، لأيقنت بما ذكرت .

كما أزرى الآمدى والجرجانى بموقف بعض النقاد المتعصبين على المحدثين[2] : كالأصمعىّ الذى أنشده إسحاق الموصلىّ :

هــل إلى نظرة إليك سبيل   فيروَّى الصدى ويشفى الغليل
إن ما قلَّ منك يكثرُ عندى   وكثير ممن تحبّ القليلُ

فقال : لمن تنشدنى ؟ قال : لبعض الأعراب ، قال : هذا والله هو الديباجُ الخسروانىّ ، قال إسحاق : إنهما لليلتهما ، فقال الأصمعى : لا جرم والله ، إن أثر الصنعة والتكلف بيِّنٌ عليهما ؛ وكابن الأعرابى الذى أنشده بعض

---

(١) س ٣ و ٤ الوساطة .
(٢) ١٠ الموازنة طبع صبيح ، و ٥٠ الوساطة طبع بيروت .

الناس شعراً وهو لا يعرف قائله فأعجب به إعجاباً شديداً وكتبه ، فلما علم أنه لأبى نواس أنكره .

ونقد الباقلانى فى إعجاز القرآن معلقة امرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بسقط اللوى بين الدخول فحومل

نقداً طويلا ، وهو أول نقد أدبى منفصل لقصيدة كاملة من الشعر العربى .

— ٨ —

وفى العصور الوسطى ضعفت الملكات ، وعقمت الأوزان ، وتضاءلت الفطر الأدبية السليمة وتعصب العلماء والأدباء للشعر القديم لقدمه ، فأحاطوا الشعر الجاهلى بهالة من التقديس والجلالة ، لا يرون أحداً أحسن مثل إحسان الجاهليين أو أجاد مثل إجادتهم ، بل رأوهم معصومين من الخطأ والعيب والنقد ، واستمر هذا المذهبُ سائداً حتى العصر الحديث .

— ٩ —

وفى العصر الحديث تفاوتت ثقافات الأدباء والنقاد ، فوقف أولو الثقافات العربية الخالصة موقف الأعجاب والتقدير للشعر الجاهلى . وهب جماعةٌ من أولى الثقافات الحديثة يطعنون على الشعر الجاهلى ، ويرمونه حيناً بالضعف والتفكك ، وحيناً بأنه كله أو جله منتحل مختلق .

عاب العقاد الشعر الجاهلى بأنه لا يصلح أن يكون نموذجاً يقتدى به فى النظم ، لأنه فى الغالب أبيات مبعثرة ، تجمعها قافية واحدة ، يخرج فيها الشاعر

من المعنى ثم يعود إليه ، ثم يخرج منه على غير وتيرة معروفة ، ولا ترتيب مقبول ، وأن فيه غير التفكك ، وضعف الصياغة ، كثيراً من العيوب العروضية ، والتكرير الساذج ، والاقتسار المكروه ، والتجوز المعيب ، الذى يؤخذ من روايته أن الشعر لم يكن فنا يستقل به صناعه الخبيرون به ، وإنما كان ضربا من الكلام يقوله كل قائل ، ويروى المحكم منه وغير المحكم على السواء»[1] .

فنرى العقاد يأخذ على الشعر الجاهلى مآخذ أهمها :

أولا — ضعف وحـــدة القصيدة . وفى مناقشة هذه الفكرة نكتفى بهاتين الكلمتين :

قال نولدكة المستشرق الهولندى المشهور : « فى أحوال كثيرة يحتفظ الشاعر الجاهلى بوحدة الفكرة فى قصيدته ، بأن يجعل كل قسم من أقسامها خاصا بوصف مناظر وحوادث من حياة الشاعر نفسه ، أو الحياة العامة التى يحياها البدو فى الصحراء .

وقال جميل صدقى الزهاوى الشاعر المجدد المشهور :

هناك شىء يستحبه الذين تشبعت أدمغتهم بالأدب الغربى ، هو أن تكون القصيدة الواحدة خاصة بفكرة واحدة ؛ أو وصفاً لشىء واحد ، من غير خروج إلى غير الموضوع ، ولو كان فى فصل منعزل عن الأول ؛ وهذا ليس من الشعر فى أصله ، بل هو تابع للأذواق ، ولطريقة الشاعر فى شعره ؛ ولا ينوع الشاعر المبرز فى العربية الموضوع فى كل قصيدة ، فكثيراً ما يحصر

---

(١) ١٠٣ مراجعات للعقاد .

شعره فى القصيدة الواحدة فى موضوع واحد؛ وإذا نوع الموضوعَ فهو يخرج إلى الثانى بمناسبة وبعد فصله عن الأول، مريداً بذلك أن تكون قصيدته كالروضة الغناء، محتوية على مختلف الأزهار، وهذا أقرب إلى الطبيعة، وليس فيه ما يُؤْخذ عليه غير كونه ينافى ما يفعله شعراء الغرب، ولكل أمة سياقٌ ونزعة ليست لأختها؛ وأعتقد أن الكتاب الذين يزْرون بشعر شعرائنا على الأطلاق، لو أتيح لهم أن يكونوا شعراء، لما خرجوا كثيراً عن النهج الذى يمشى عليه المبرزون من هؤلاء؛ والسبب هو ما قدمته من اختلاف ألوان الشعور عندنا عن ألوانه عند الغربيين من جهة، وقيد القافية وإعرابها عندنا وفقدانه عندهم من جهة أخرى. وقد هم كثير من الشعراء المتضلعين من العلوم العصرية، بتقليد الغرب فى شعره، فلم يكن ما أتوْا به غربيا ولا شرقيا، ولم يوفقوا إلا فى ألوان من الشعور، هى مشتركة بين الأمم جميعها؛ ومهما تمرد الشاعر الكبير على الأساليب والتصورات فى لغته، فهو لا يستطيعُ أن يطفر مرة واحدة إلى تصورات وأساليب تخالفُ ما ألفه شعبه، فيقطع الوشائج القوية التى تربط الحاضر بالماضى.

ويعيب العقاد الشعر الجاهلى ثانيا بأنه لم يكن فنا يستقل به صناعه الخبيرون به؛ وذلك لا يسير مع الحقيقة الأدبية أو الواقع المأثور، فشعراء المعلقات ومذاهبهم الفنية فى الشعر معروفة؛ ويقول الدكتور طه حسين فى كتابه «الأدب الجاهلى»: أما مضر فكان لها فى الجاهلية شعراء، يتخذون الشعر فنا، يمثلون به نهضة فنية عقلية، فى هذا الأقليم من جزيرة العرب.

ويعيبه ثالثا بهلهلة صياغته، وما فيه من عيوب عروضية، وتكرار

ساذج ، وتجوز معيب . وفى هـذا ولا ريب مغالاة لا يـكاد يسلم بها دارس للأدب الجاهلى شعره ونثره .

وكانت ثورة النقد الـكبرى بين الدكتور طـه حسين وبعض النقـاد والباحثين ، حول الشعر الجاهلى ، ذات صدى بعيد فى دراساته وفى منهج النقد الأدبى . وآراء الدكتور طـه حسين فى الشعر الجـاهلى ، ترتـكز على أساس واحد ، هـو انتحال الشعر الجاهلى ، ويؤكد الدكتور هذا الانتحال بأدلة كثيرة ، منها أن المـأثور منه لا يمثل حياة الجاهليين الدينية أو العقلية ، ولا يصور اتصال العرب السياسى بغيرهم من الأمم المجاورة لهم ؛ فوق أنه لا يمثل اللغة الجاهلية نفسها لاختلاف اللغة الحميرية عن اللغة العدنانية جد الاختلاف ، فالمـأثور من شعر الشعراء القحطانيين مروى بالغة العدنانية الفصحى ، مع أنهم لم يـكونوا يتكلمون بها ، ولم يتخذوها لغة أدبية لهم قبل الاسلام ، مما يدل على انتحال هـذا الشعر على القحطانيين ؛ فوق أن الشعر الجاهلى لا يصور اختلاف اللهجـــات العدنانية المتعددة ، التى لا شك فى اختلافها ؛ ويشرح الدكتور أثر البواعث السياسية والدينية فى الانتحال ، وعمل القصاص والرواة ؛ ويبنى على ذلك كله رفضه الشعر المنسوب إلى شعراء اليمن ، لأن لليمنيين لغة تخالف لغة قريش ، ولأن هجرة اليمنيين إلى الشمال مشكوك فيها أولا ، وليس كل الشعراء هاجروا من اليمن ثانيا . وشعراء المدينة ليسوا عنده يمنيين بل مضريين . ويرى أنه ليس لليمن فى الجاهلية شعراء . أما ربيعة من عدنان ، وكانت تسكن فى الشمال ، فيرى الدكتور أن شعرها دون شعر المضريين ، لأنها لم تـكن تتكلم لغة قريش ، ويتردد فى قبول الـكثير منه ؛ وأما مضر فـكان لها شعراء ، يتخذون الشعر فنا ؛ وقد درس شعراء مضر دراسة نقد وتحليل ، كما درس غيرهم ، على ضوء نظريته فى انتحال

الشعر الجاهلي ; ووضع مقاييس لتمييز المنحول منه ؛ وجعل الشعر أصلا فى مضر ، ثم انتقل منها إلى ربيعة فاليمن فالموالى ؛ وبذلك يعكس نظرية القدماء فى انتقال الجاهلى بين القبائل .

وهذه الأراء كانت موضع جدل صاخب ، ومناقشات كثيرة ، وكتب ألفت حولها . ولا داعى لذكر شيء عنها ، فهى معروفة واضحة . وفى كتابى « الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى » تفصيل لكل ذلك .

ولا شك أن إزراء بعض النقاد المحدثين بالشعر الجاهلى ، ودعوتهم إلى تركه والانصراف عنه ، جور فى الحكومة الأدبية ، وتعصب ظالم على قديمنا الموروث .

الشعر الجاهلي بين التجديد والتقليد

— ١ —

لم يعرض النقاد لبحث الشعر الجاهلي ومظاهر التجديد والتقليد فيه ، ولا يسلم القدماء منهم خاصة بحديث التقليد في الشعر الجاهلي ، لأنه كله عندهم جديد بكر ؛ ومظاهر التشابه الفني بين القصائد الجاهلية لا يصح أن يعرض لها أو يتحدث عنها حتى لا نسلم بالتقليد في شعر كله جديد وكله روعة وجمال ، وإذا أخذ الشاعر الجاهلي من شاعر قبله بيتاً أو أبياتاً فلنقل إن ذلك من توارد الخواطر واتفاق الشاعرية ، أو لنذهب إلى ما ذهب إليه ابن رشيق في عمدته : من أن ذلك « استلحاق » ، والاستلحاق عنده أخذ الشاعر بيتاً من شاعر سبقه على جهة المثل وكان أبو عمرو بن العلاء وغيره لا يرون ذلك عيبا وقد يصنع المحدثون مثل هذا . وقد يسلم المنصفون من النقاد القدامى بأن الشاعر الجاهلي يخطىء كما يخطىء غيره ولكنهم لا يسلمون بأنه ينسج قصيدته على نهج قصيدة أخرى لشاعر سبقه ؛ ولم يبحث أحد منهم مذاهب الشعراء الفنية ، وأثر كل طبقة في شعر الطبقة التي تليها . ونحن نعلم أن ابن سلام قسم الشعراء الجاهليين عشر طبقات ، وأضاف إليهم شعراء المراثي وشعراء المدن العربية ، وجعل في الطبقة الأولى امرأ القيس وزهيراً والأعشى والنابغة ؛ وأن أبا عبيدة قسم الجاهليين ثلاث طبقات ، ووضع في الأولى امرأ القيس وزهيراً والنابغة ؛ وفي الثانية الأعشى وطرفة ولبيداً ، ووافقه على ذلك صاحب الجمهرة أبو زيد الأنصاري ؛ ولكنك تعلم أن شعراء كل طبقة لم يجمعهم عصر واحد ، مما يؤدي إلى أن يكون في كل طبقة شعراء تأثر بهم إخوانهم في الطبقة نفسها ؛ ومع ذلك كله فإن النقاد لم يبحثوا

الصلات الفنية بين الشعراء الجاهليين ، ولا بين طبقاتهم المختلفة ؛ بل إن قصيدتين مثل قصيدة علقمة الفحل م ٥٦١ والتي مطلعها : « ذهبت من الهجران فى غير مذهب » وقصيدة امرىء القيس :

خليلى مرا بى على أم جندب لنقضى حاجات الفؤاد المعذب

رغم تشابههما فى شتى مظاهر الشاعرية والخيال ، ورغم أن علقمة متأثر بامرىء القيس فى قصيدته وناسج على منوالها ، لا يذكر النقاد شيئاً عن مظاهر التشابه الفنى بين القصيدتين . وهناك قصيدتان أخريان هما : معلقة عمرو بن كلثوم : « ألا هى بصحنك فاصبحينا »، ومجمهرة أمية بن ابى الصلت: « عرفت الدار قد اقوت سنينا » التى نسج فيها امية على منوال قصيدة عمرو واحتذاه فيها ؛ ومع ذلك فإن النقاد لا يتحدثون عن شيء ، ولا يلمون بحديث هذا التقليد الفنى الغريب ؛ وهناك الكثير من ابيات الشعر تجدها نفسها مكرورة فى شعر كثير من الشعراء ، وقد لا نستطيع ان نشك فى روايتها ، ومع ذلك فالرأى السائد عندهم ان ذلك أثر لا تفاق الشاعرية .

وعلماء الأدب يعرفون ان الشعر كان فى اليمن ثم انتقل إلى ربيعة ثم تحول فى قيس من مضر ثم صار إلى تميم ، ولا يخالف فى ذلك إلا الدكتور طه حسين الذى راى ان الشعر كان فى مضر ثم انتقل إلى ربيعة فاليمن فالموالى ؛ ومع ذلك فعلماء الأدب القدماء لم يبالوا ببحث آثار هذه الوراثات الشعرية المختلفة .

ويقولون إنه كان لكل شاعر فى الجاهلية راوية يروى له ويأخذ عنه نهجه فى الشعر ويتتلمذ عليه ويتأثر بشعره ، فكان امرؤ القيس راوية

أبى دؤاد الأيادى ، وطرفة راوية المتلمس ، والأعشى راوية المسيب بن علس ، وزهير راوية أوس وطفيل الغنوى معاً ، والحطيئة راوية زهير ، كما كان الفرزدق وهدبة راويتان للحطيئة ، وأبو حية النميرى راوية للفرزدق ، وجميل راوية لهدبة ، وكثير راوية لجميل ، فى العصر الإسلامى . ومع ذلك كله فلا تزال هذه الأستاذية فى الشعر فى حاجة إلى بحث كثير للكشف عن مظاهرها وآثارها الفنية ، ولا نرى لذلك أثراً يذكر فى بحوث النقاد القدماء .

ومدرسة « المصنعين » من الشعراء الجاهليين كزهير وتلاميذه وكالنابغة وأوس وطفيل الغنوى والنمر بن تولب ، لا تزال فى حاجة ملحة إلى الكشف الدقيق عن خصائص مذهبهم الفنى ونشأته وأثره فى الشعر العربى ، وإن كان الدكتور طه حسين قد ألم بجوانب من هذا البحث فى « الأدب الجاهلى » .

وإذا كان النقاد القدماء قد قسموا الشعراء الجاهليين إلى طبقات ، وأغفلوا أثر الوراثات الشعرية بين هذه الطبقات ، ولم يذكروا شيئاً عن مظاهر الأستاذية والتلمذة بين هؤلاء الشعراء ، فخليق بنا أن نقسمهم من جديد تقسيما أدبياً إلى طبقات متفاوتة ، بحيث نستطيع أن نحكم على عمل كل طبقة ومدى تأثرها بمن قبلها وأثرها فى الطبقة التى تليها ، ليستطيع الباحث أن يفهم الشعر الجاهلى فهما جيدا على أسس جديدة ، كما يفهم كل ما يتصل بطبقة بشار وطبقة أبى نواس وطبقة أبى تمام والبحترى مثلا من الشعراء المحدثين ، وكما يفهم مذهب البارودى ومذهب شوقى ومذهب غيرهما فى الشعر الحديث .

* * *

— ٢ —

وبعد فنحن لا نجد بدا من أن نقسم الشعراء الجاهليين إلى هذه الطبقات الأدبية :

١ — طبقة مهلهل م ٥٣١ ؛ ومن شعرائها : الشنفرى م ٥١٠ ، وتأبط شرا م ٥٣٠ ، وأبو دؤاد الأيادى م ٥٤٠ ، وسواهم . وزعيم هذه الطبقة مهلهل ، وهو أول من نقل الشعر العربى من طور الأراجيز والمقطعات الصغيرة إلى مرحلة القصيدة ، فهو أول من قصد القصائد وقال فيها الغزل ، وأول من هلهل نسج الشعر وخاصة الرثاء أى رققه وهذبه ، وشعره من أعلى طبقات شعر المتقدمين كما يقول ابن نباته ، هو من شعراء نجد ، وله رثاء كثير فى أخيه كليب زعيم ربيعة والعرب بعد مقتله عام ٤٩٤ م ، وقصيدته القافية : « جارت بنو بكر ولم يعدلوا » إحدى القصائد السبع « المنتقيات » ، وكانت العرب تسميها « الداهية » .

ولا شك أن هـذه الطبقة هى التى مهدت سبيل التجديد فى الشعر أمام امرىء القيس ، كما أنها جددت ولا شك فيه بنقله إلى هـذه النهضة الفنية الـكبيرة .

٢ — والطبقة الثانية طبقة امرىء القيس م ٥٦٠ ؛ ومن شعرائها : علقمة م ٥٦١ ، والمرقش الأكبر م ٥٥٢ وهو أول من أطال المدح ، والمرقش الأصغر م ٥٦٠ ، وعبيد م ٥٥٥ ، والأفوه الأودى م ٥٧٠ ، والمتلمس م ٥٧٠ ، والمثقب العبدى م ٥٨٧ ، والحارث بن حلزة م ٥٨٠ ، وطرفة م ٥٦٥ .

وزعيم هذه الطبقة هو ولا شك امرؤ القيس ، وقد تتلمذ فى الشعر على

أبى دؤاد الإيادى وعلى خاله المهلهل ، وهو أول من وقف واستوقف وبكى واستبكى ووصف النساء بالظباء والمها والبيض وشبه الخيل بالعقبان والعصى ، وقرب مآخذ الكلام وقيد أوابده ، وأجاد الاستعارة والتشبيه والكناية ورقق الأسلوب وجعله عذبا فى جزالة وجمال ، وأول من شرع للناس مذهب هذا الغزل القصصى الحلو ، وهذا الطرد الجميل القوى ، ولا تزال كلماته « قيد الأوابد » ، « ونؤوم الضحى » وسواها ذات رنين بعيد ؛ والذى فى شعر امرىء القيس — كما يقول الآمدى فى الموازنة — من رقيق المعانى وبديع الوصف ولطيف التشبيه وبديع الحكمة فوق ما استعار سائر الشعراء فى الجاهلية والاسلام ؛ وهذه الطبقة على أى حال ورثت الشعر عن الطبقة التى سبقتها وأثرت فى الطبقة التى تليها .

٣ — والطبقة الثالثة طبقة النابغة م ٦٠٤ ، وزهير م ٦٣٠ ، والأعشى م ٦٢٩ وهو أول من تكسب بشعره ؛ وعنترة م ٦١٥ ، وحاتم م ٦٠٥، وعمرو ابن كلثوم م ٦٠٠ ؛ ولبيد م ٦٦٢ ؛ وأمية بن أبى الصلت م ٦٢٤ .

وزعيم هذه الطبقة النابغة ولا شك ، فهو أستاذهم وحكمهم فى سوق عكاظ ، والذى تأثر به الكثير من الشعراء كحسان وسواه .

وزهير من أعلام هذه الطبقة وهو زعيم طبقة « المصنعين » وأستاذ الحطيئة وسواه من الشعراء .

٤ — والطبقة الأخيرة هى طبقة حسان وقيس بن الخطيم وسواهما من الشعراء الذين عاشوا فى الجاهلية وشاهدوا زمن النبوة ، وهم الذين يسميهم النقاد « المخضرمين » .

ولا غنى لنا بعد ذلك من أن نقول : إنه كان لكل طبقة من هذه

الطبقات مذهب فنى خاص ، وكانت هـذه المذاهب أثراً لوراثات كثيرة وعوامل سياسية واجتماعية أخرى ، كما يبدو فيها أثر التقليد والتجديد جميعاً

ولا شك أن قيام الأسواق الأدبية ، وحكومة النقاد بين الشعراء ، وتقرب الشعراء بشعرهم إلى الملوك والأمراء واتخاذه وسيلة للثراء ، وأداة للغناء ولسانا للإذاعة مفاخر القبيلة ومحامدها وهجاء خصومها ، وهذه النهضة الفنية الكبيرة التى بلغها الشعر فى نجد حيث الهجرات العربية والحروب المستمرة ؛ كل هذه الأمور وسواها كانت تدفع بالشعر الجاهلى دائما إلى الامام ، وتدعو إلى تجويده وتهذيبه والتجديد فيه .

وقد تتاح لنا فرصة أخرى للحديث عن هذه المذاهب الفنية المختلفة وأثرها فى الشعر الجاهلى خاصة والعربى عامة .

الطبع والصنعة فى الشعر الجاهلى

— ١ —

بين القدامى والمحدثين من النقاد خلاف كبير فى تحديد معنى الطبع والصنعة : يرى الأولون أن التهذيب الفنى للأسلوب هو الصنعة ، فالمصنوع هو المثقف المهذب من الشعر ؛ أما الطبع فهو خلو الأثر الأدبى من آثار التجويد والتنقيح ، ويرى الآخرون أن شعور الشاعر بنفسه حد بين الطبع والصنعة ، فإذا كان الشعر صادقاً مؤثراً فهو من شعر الطبع ، وإلا فهو مصنوع متكلف ، والأديب المطبوع عندهم من كان غير مقلد فى معناه أو فى لفظه ، وكان صاحب موهبة فى نفسه وعقله لا فى لسانه فقط .

ورأى المحدثين المعاصرين من النقاد اصطلاح جديد فى معنى الطبع والصنعة . وأرى أن الأولى فى تحديد معناهما أن نجمع بين الرأيين الذين يتلاقيان ولا يتناقضان ، فالطبع هو الملكة القادرة فى نفس الشاعر والأديب التى توحى إليه بفنه وأدبه وحى الفطرة والطبيعة واستجابة لعواطفه ومشاعره دون تكلف وتعب فى الصوغ أو استجداء لترف الأسلوب والصناعة ؛ أما الصنعة فهى إحساس الشاعر أو الأديب بآثار الجمال الفنى وترف الأداء وزخرف الأسلوب ، وحبه لهذا الجمال والترف والزخرف ؛ وهيامه الفنى بها ، وقصده إليها ، وتعمده لها فى شعره ، حتى ليطلب الفن للفن ، ويستلهم الجمال للجمال ، ويستوحى الشعر من ملكاته الفنية التى استبدت بها هذه النزعة ، مما يطغى على نفس الشاعر وشعوره وعواطفه وإحساسه بالحياة .

- ٢ -

ويجمع جمهور النقاد فى القديم والحديث على عيب الصنعة والتصنيع ، وسموا المصنعين من الشعراء فى العصر الجاهلى : عبيد الشعر ؛ وعابوا شعرهم ، قال الأصمعى الأديب الراوية الناقد م ٢١٦ هـ : زهير والنابغة وأشباههما عبيد الشعر ، وقال : الحطيئة — وهو شاعر إسلامى مشهور — عبد لشعره ، قال الجاحظ إمام الأدباء والنقاد م ٢٥٥ هـ : عاب الأصمعى شعره حين وجده كله متخيراً مستويا لمكان الصنعة والتكلف والقيام عليه ، وكان الأصمعى يستحسن التفاوت فى الشاعرية لأنه مظهر الطبع وخلو الشعر من آثار الصنعة ، وعلى هذا الرأى يسير بعض المحدثين ممن يرى أن التفاوت فى شعر الشاعر دليل على عبقريته وطبعه ، ويعده النقاد الآية الناطقة على شاعرية المتنبى وعظيم مكانته فى الشعر .

- ٣ -

ولقد كان الشعر العربى أثراً للفطرة والبديهة ، واستجابة لمشاعر الشاعر وشعوره بالحياة فى الجاهلية وكان أكثره ارتجالا أو ما يشبه الارتجال ، ينظمه الشاعر على البديهة ، ويأتى به عفو الخاطر ، ترد إلى ذهنه المعانى وتتتابع ، فتنثال عليه الألفاظ وتأتيه الأساليب شعراً وشعوراً وسحراً وجمالا ؛ كل ذلك فى سهولة وتدفق وفطرة دون تثقيف وتهذيب وتنقيح ، حتى قال الجاحظ : وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ، وليس هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى جملة المذهب والعمود الذى إليه يقصد ، فتأتيه المعانى أرسالا ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا .

وفى العصر الجاهلى بدأ لون جديد من ألوان التهذيب والصنعة فى الشعر على يد أوس وزهير وتلاميذهما .

كان أوس بن حجر من أصحاب التنقيح ، وكان يسمى محبر الحسن شعره ، وتتلمذ عليه زهير ، وكان طفيل الغنوى كذلك ، وكان النمر بن تولب من أصحاب التثقيف والتهذيب ، وكان أبو عمرو بن العلاء الناقد الراوية م ١٥٤ ﻫ يسميه السكيس لحذقه بالشعر ، والنقاد يعدون النابغة الذبيانى أيضاً من المصنعين ، ويقول أنصار الصنعة إن امرأ القيس أيضاً كان يثقف شعره ويعيد النظر فيه فيسقط رديئه ويثبت جيده وكان امرؤ القيس راوية أبى دؤاد الأيادى ، وكان يلوذ به فى شعره ويتوكأ على معانيه كثيراً ، ولكن شعر امرىء القيس ينفى عنه الصنعة والتصنيع ، وفرق بين أن يجىء عفواً فى شعره بعض آثار الصناعة الفنية وأن يكون مصنعاً ينحت فنه كما ينحت الفنانون تماثيلهم .

وأبرز رجال هذه المدرسة على أى حال هو زهير ، قال بعض النقاد : عمل سبع قصائد فى سبع سنين كان يسمها الحوليات . وكان زهير يصنع الحوليات على وجه التثقيف والتهذيب ، يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها — خوفاً من النقد والنقاد — بعد أن يكون قد فرغ من عملها فى ساعة أو ليلة ؛ وقيل كان ينظم القصيدة فى شهر ثم لا يزال يهذبها حتى يمر عليها الحول ؛ وقيل : بل كان يعمل القصيدة فى ستة أشهر ويهذبها فى ستة أشهر ؛ وقال الجاحظ : كان زهير يسمى كبار قصائده الحوليات . وقد سار تلامذة زهير على نهج أستاذهم كالحطيئة الشاعر الإسلامى وسواه .

وكان هذا المذهب الفنى فى الشعر الجاهلى — مذهب الصنعة والتصنيع — أثراً للتنافس بين الشعراء وقيام الأسواق الأدبية كعكاظ وسواه بالحكومة

الأدبية بينهم وكان النابغة تقام له قبة فى عكاظ ويتحاكم إليه الشعراء ؛ كما كان أثراً للتكسب بالشعر واتخاذه وسيلة للثراء وعكوف الشعراء المصنعين على تجويد مدائحهم ليستخرجوا بها سنى الهدايا والألطاف من ممدوحيهم ؛ وكان ارتباط الشعر الجاهلى بالغناء ورغبة بعض الشعراء فى التجويد والتجديد فى المعانى من أسباب نشأة هذا المذهب الفنى أيضاً .

وإذا نظرنا إلى الشعر الجاهلى نفسه وجـــدنا الفرق كبيراً بين آثار أصحاب الطبع والبديهة كطرفة وامرىء القيس ومهلهل وآثار الشعراء المصنعين .

والمعلقات السبع وهى من أشهر القصائد الجاهلية فى البلاغة الأدبية وأحفلها بمواهب الشاعرية والفن والخيال وخصب الملكات ، كلها من آثار الطبع الأدبى الموهوب ، وليس فيها شىء من مظاهر الصناعة الفنية : فمعلقة امرىء القيس أروع صورة لحياة الشاعر وترفه ولهوه ، ومعلقة عمرو بن كلثوم ملحمة تاريخية تصور التاريخ القومى والحربى والسياسى لقبيلة الشاعر « تغلب » ، ومعلقة عنترة حديث عذب جميل بين الحب والحرب والبطولة ، ومعلقة زهير دعوة للسلام ووصف لأهوال الحرب وقسوتها على الناس والبشرية ، ويكاد يكون زهير فيها أشبه شىء بالمطبوع ، ويكاد أسلوبه فيها يبعد عن الصنعة وآثارها الفنية .

وشتان بين معلقة زهير هذه وبين قصيدة النابغة :

كلينى لهم يا أميمة ناصـــب   وليل أقاسيه بطىء الكواكب

أو قصيدة أخرى لزهير نفسه هى :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله   وعرى أفراس الصبا ورواحله

ابعد ما بين الأثر المطبوع والأثر المصنوع .

دفاع عن الشعر الجاهلى

- ١ -

كثرت فى العصر الحديث مقالات الأدباء والنقاد فى الزراية بالشعر الجاهلى ، وتنقصه ، ورميه بالقدم والجمود ، والدعوة إلى تركه والانصراف عنه ؛ وعيبه حينا بخلوه من الشعر التمثيلى والقصصى ، وحينا بتفككه وعدم وجود وحدة للقصيدة فى آثاره الفنية ، وباضطراب معانيه وعدم تمثيلها إلا للبيئة البدوية الجاهلية وحدها ، وحينا آخر يرمونه من ناحية الصياغة واللفظ والنظم بأكثر مما يعاب به شعر قديم أو حديث .

وقد حمل لواء هذه الدعوات أدباء كان نصيبهم من دراسة الأدب العربى أو الأدب الجاهلى وحده محدوداً ضئيلا ؛ وآخرون قرأوا الأدب الجاهلى فلم يطربوا له ولم يرتاحوا إليه ، ولم يفهموه حق الفهم ؛ وفريق آخر تدفعه إلى ذلك الشعوبية الحديثة التى نرى مظهرها باديا فى تنقص كل ما هو عربى أو قديم والتعصب لكل ما هو غربى أو حديث .

ولا شك أن فى أكثر آرائهم جوراً فى الحكومة الأدبية وإسرافا ومغالاة كثيرين « فلكل شعر جيد — كما يقول الدكتور طه حسين فى الأدب الجاهلى — ناحيتان مختلفتان ، فهو من ناحية مظهر من مظاهر الجمال الفنى المطلق ، وهو من هذه الناحية موجه إلى الناس جميعا مؤثر فيهم ، ولكن بشرط أن يعدوا لفهمه وتذوقه ؛ وهو من ناحية أخرى مرآة يمثل فى قوة أو ضعف شخصية الشاعر وبيئته وعصره ، وهو من هذه الناحية متصل

بزمانه ومكانه ؛ فازدراء الشعر الجاهلي غلو ليس أقل إمعاناً في الخطل من ازدراء الشعر الأجنبي » .

إننا لا ننكر أنه تحول دون فهم الشعر الجاهلي وتذوقه صعوبات كثيرة ، أهمها : صعوبة لغته وأسلوبه ، وبعد الأمد بصور البيئة العربية القديمة وألوان الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي ، ومشاهد الطبيعة والوجود إبان ذلك العهد البعيد . ولكن ذلك لا يمكن أولا يصح أن يصرفنا عن هذا الجمال الفني الرائع الذي نجده في الشعر الجاهلي ، فضلا عما فيه من تخليد لآثار الحياة العربية الأولى وأحداثها ومظاهر التفكير فيها . ومع ذلك كله فإن الشعر الجاهلي أقوى دعامة للعربية وحفظها وخلودها بعد القرآن الكريم .

فهو من حيث إنه صورة من صور الفن والخيال والجمال ، ومن حيث إنه أساس الثقافة الأدبية والعربية ؛ لا يمكن لذلك ولغيره أيضاً الاستغناء عن هذا الشعر القديم ونبذه وراءنا ظهرياً .

في الشعر الجاهلي جمال ، وهو أيضاً لا يخلو من هنات ؛ وفيه روعة ، وإن كنا لا نبرئه من العيب ، ومع ذلك فإننا نستطيع أن ندرس المذهب الفني الذي يمثله الشعر الجاهلي ، وأن نتعرف خصائصه وعناصره لنرى إلى أي حد يصح أن نجاري هؤلاء وهؤلاء من النقاد والمتعصبين على الشعر الجاهلي القديم ، وإلى أي مدى يصح أن نسير في الدفاع عنه ؛ فذلك أقرب إلى العدالة الأدبية في البحث والمناقشة . .

— ٢ —

وأول ما نعرفه من خصائص الشعر الجاهلي : البساطة والصدق

والوضوح وعدم التكلف أو الإغراق فى الأداء . وهذا شىء يسلمه النقاد للشعر الجاهلى تسليما ، ويجزمون به ؛ وهو ما يدفعنا إلى الإعجاب به واللذة الفنية حين نقرؤه ونستمع إليه ، ولا يمكن أن يكون فى ذلك ما يدعو إلى التهوين من شأنه ، فالجمال أو أحد أسبابه لا يدعـــو إلى الاعجاب والحب والمتعة . إن هذه الميزة الواضحة فى الشعر الجاهلى هى نفس ما يدعو إليه نقادنا المحدثون ودعاة التجديد فى الأدب العربى الحديث ؛ « بعد أن أبعد المحدثون الشعر عن البساطة والاخلاص ، وهما الصفتان اللتان كانتا حسنا له » كما يقول الدكتور ضيف[2] .

ويمتاز الشعر الجاهلى أيضاً بالزهد فى المحسنات وألوان التزيين الفنى ؛ وهذه سمة غالبة عليه . وأدباؤنا المحدثون لا يزالون يدعون إلى هذا المذهب . ولقد كان الشعر المصرى الحديث فى أول نهضته مثقلا بقيود الزخرف البديعى الذى ورثه عن العصر التركى والعثمانى وأواخر العصر العباسى إلى أن ثار النقاد على ذلك النهج ودعوا إلى الخلاص من آثاره ، حتى برىء الشعر الحديث من عاهته وسار طليقا إلى غاياته . وقد ظهرت فى الآداب الأوربية أيضاً صبغة الزخرف الفنى فى العصور الوسطى ؛ كما حدث فى الأدب الانجليزى بعد عصر اليصابات ، وفى فرنسا بعد عهد لويس الرابع عشر ؛ أفتقول بعد ذلك إن الشعر الجاهلى يعاب لهذه الحسنة الظاهرة ؛ ويزدرى لذلك الفضل الظاهر ؟ .

ومن خصائص الشعر الجـــاهلى متانة الأسلوب وقوته وجزالته وأسره ، وللبيئة البدوية أثر بعيد فى ذلك ؛ وقد سار المحدثون فى العصر

---

(٢) ١٨٢ مقدمة لدراسة بلاغة العرب .

العباسي على هذا النهج حينا ؛ وحينا آخر أغرقوا في العذوبة والسلاسة والسهولة التي ورثوا بعضها عن العصر الأموي ومدرسة العذريين التي شاعت فيه . وقد دافع بعض النقاد عن الجزالة والقوة ، كما دافع آخرون عن العذوبة والرقة ، ووقف آخرون يحددون مواقف هذه ومواقف تلك كابن الأثير في المثل السائر وسواه ، ولكن العصور الأخيرة كانت تعد العذوبة ضعفا في الشاعر وميلا منه إلى العامية ، وبهذه النظرة كانوا يحكمون على شعر البهاء زهير الشاعر المصري المشهور . . ولكننا نقول للناشئين : ربوا ذوقكم الأدبي ، وارهفوا مشاعركم الفنية ، وتأثروا في حياتكم ومذاهبكم الأدبية بالحياة والحضارة التي تعيشون فيها ، وستدركون بأنفسكم الحقيقة الأدبية في هذه المسألة الفنية ، ولا شك أن عذوبة الأسلوب وسلاسته يجب أن تبرز في إنتاج الشاعر وفنه ، لأثر الحياة والحضارة في نفسه ؛ ومع ذلك فهذه العذوبة والرقة يجب ألا تنقلبا ضعفا وعامية ، وأن توشى بألوان من الجزالة في مواقف خاصة تستدعيها حياة الشاعر ونفسيته قبل كل شيء ؛ كما يجب ألا تنقلب الجزالة حوشية وإغرابا وتعقيداً عند الشعراء الذين يحافظون على الجزالة . وأحسب أن شعراءنا المعاصرين الذين يتكلفون الألفاظ اللغوية الكثيرة البعيدة في قصائدهم إنما يفعلون ذلك تقليدا فحسب ، وفي مطلع حياتهم الفنية التي يكثر فيها الناشئون من التقليد ؛ ونحن على أي حال لا يمكن أن نعيب الشعر الجاهلي لجزالته ، فقد رأيت موقف النقاد من الجزالة وإعجاب الكثير منهم بها ودفاعهم عنها ؛ فوق أنها أثر من آثار البيئة في الشعر الجاهلي .

ومن خصائص الشعر الجاهلي أيضاً القصد إلى المعنى في إيجـــاز ويسر وقلة إطناب ، ولا شك أن العصور الأدبية التي تلت العصر الجاهلي وتعددت فيها ألوان الثقافات ومظاهر الحضارات قد أبعدت الشاعر عن هذا الاتجاه ،

ودفعته إلى الأطناب وشتى ألوان التصوير؛ ووقف النقاد حيال ذلك طوائف : طائفة تدعو إلى الإيجاز وتراه البلاغة والبيان ، وطائفة تشيد بالأطناب وترى فيه جمال الفصاحة وروعة التصوير ، وأخرى تحدد للأطناب مواضع وللايجاز مواضع كقدامة فى نقد النثر وابن سنان فى سر الفصاحة . ونحن لا نقول للشاعر المعاصر آثر الايجاز أو اعمد إلى الأطناب ؛ وإنما نقول له : إن أساس الجودة الفنية أن تؤدى معانيك فى رفق ويسر وقلة فضول . وفى الآدب الغربية الآن مذاهب تدعو إلى القصد فى التصوير البيانى والاكتفاء بشرح الأفكار الجديدة وترك ما عداها .

ولا شك أن أهم طابع للشعر الجاهلى بعد الذى ذكرناه سابقا هو هذا الطابع البدوى الواضح الذى يفجؤك فى شتى القصائد الجاهلية ، مما هو أثر للبيئة والحياة . ونحن ندعو كما يدعو كل منصف إلى ترك هذا الاتجاه فى الأداء والتصوير فقد أصبح لا يلائم منهج الحياة فى القرن العشرين كما أن إبراز هذا الطابع البدوى فى شعر الشاعر المعاصر يكون تقليداً سخيفا لا مبرر له ، ويحول دون ظهور نزعاته الفنية ومواهبه الخاصة المستقلة فى شعره ، وهذا ضرر بعيد .

ومن آثار هذا الطابع فى الشعر الجاهلى :

(١) شدة تمثيله للبيئة البدوية ، وقد سار بعض الشعراء المحدثين على هـذا النهج ، فملأوا شعرهم بصور الحياة البدوية ، من وصف الناقة والجمل والظليم والمدن والديار القديمة ، مما سخر به بعض النقاد والشعراء ودعوا إلى التحرر منه ، فقال مطيع بن إياس :

لأحسن من بيد تحار بها القطا ومن جبلى طى ووصفكما سلعا

تلاحظ عــــينى عاشقين كلاهما ... له مقلة فى وجــــه صاحبه ترعى

وهذه دعوة جديرة بالعناية ، خليقة بالايثار . وقد دعا المجددون فى الأدب الحديث وأكثروا من الدعوة إلى أن يكون الشعر صورة لحياة الشاعر ونفسيته وبيئته وعصره ، وإلى أن يخلو من آثار التقليد للقدامى فى أغراض الشعر وفنونه وموضوعاته ، وهـذا اتجاه جليل قد سار بالشعر العربى الحديث خطوات واسعة نحو التجديد والجمال والروعة ، فالشاعر هو الذى يكون غير مقلد فى معناه أو فى لفظه ، ويكون صاحب هبة فنية فى نفسه وعقله ، ويتأثر ببيئته ويؤثر فيها ، ويمثلها فى جدها ولهوها وفرحها وحزنها وسلامها وحربها وألمها وأملها أتم تمثيل .

(ب) ومن آثار هذا الطابع البدوى فى الشعر الجاهلى أيضاً بدء أغلب القصائد الجاهلية بذكر الأطلال ، ووصف الديار . وهـذا مذهب أغلبية الجاهليين ، لا يشذ عن ذلك إلا القليل ، كعمرو بن كلثوم فى معلقته التى بدأها بذكر الراح ، وكتأبط شرا فى قصيدته اللامية المشهورة :

إن بالشعب الذى دون سلع ... لقتيلا دمــــه ما يطـــل

والتى يسميها بعض المستشرقين نشيد الانتقام . . ويدافع ابن قتيبة فى أوائل كتابه « الشعر والشعراء » عن نهج الجاهليين دفاعا حارا ، فقد صور نهج العرب فى وحدة القصيدة وما كانوا يبدأونها به من ذكر الديار والآثار ووصلهم ذلك بالنسيب والشكوى وألم الوجد وفرط الصبابة ثم ذكر الرحلة إلى الممدوح تخلصا إلى مدحه واستجلابا لرضائه وسقى ألطافه ، وقال : الشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام[1] . وقد سار الكثير

(١) ١٤ و ١٥ من الشعر والشعراء .

من المخضرمين والاسلاميين على هذا النهج أيضاً ، فأكثروا من بدء قصائدهم بوصف الأطلال والديار ؛ كما أكثر الكثير منهم من بدئها بالغزل ولم يشذ عن ذلك إلا أبو نواس الذى دعا إلى بدء القصيدة بذكر الراح ، قال :

وصف الطلول بلاغة القدم ... فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وتبعه ابن المعتز فقال :

أف من وصف منزل ... بعكاظ فحومل
غير الريح رسمه ... بجنوب وشمأل

وكان أبو نواس شعوبيا فى مذهبه ، أليس هو الذى يقول :

تبكي على طلل الماضين من أسد ... ثكلت أمك قل لى من بنو أسد ؟
ومن تميم ومن قيس ومن يمن ؟ ... ليس الأعاريب عند الله من أحد

ولكن ابن المعتز كان ناقدا يبحث عن الصلة بين الأدب والحياة ويحاول أن يلائم بينهما وينادى بتحضر الشعر وترك البداوة فيه وتمثيله لحياة الشاعر وآرائه فى الحياة . . وقد ثار ابن رشيق على منهج الجاهليين فى القصيد ، ورأى — مع من رأوا — أنه لا معنى لذكر الحضرى الديار[١] وأنه ليس بالمحدث من الحاجة إلى وصف الأبل والقفار لرغبة الناس فى عمره عن تلك الصفات وعلمهم بأن الشاعر إنما يتكلفها ، وأن الأولى وصف الخمر والقيان[٢] . وقد تكفلت الحياة نفسها بصرف الشعراء المعاصرين عن هذا النهج الفنى فى القصيدة ، فليس منهم والحمد لله من يبدأ قصيدته بذكر الإبل والقفار والديار

(١) ١/١٩٩ العمدة .
(٢) ٢/١٧٩ المرجع نفسه .

والآثار ، بل إن ذلك لو فعله أحد الآن ارمى بالجنون ؛ ولكن ليس معنى ذلك ألا يصف الشاعر المعاصر معاهد أهله وأحبابه فى شعره أبداً ، أو ألا يبدأ قصيدة من قصائده بذكرها ، ولكنا نقول إن المعيب هو التزام بدء القصيدة بذكر الأطلال واذا التزم شاعر ذلك وبدأ قصائده بذكر معاهد حياته وأحبابه ولم يتخل عن هذا المنهج ، لم نحاسبه على ذلك ، إلا إذا قيد هذا من حريته الفنية أو حبس مواهبه وملكاته الأدبية ، فإنه يجب بحق ألا يقيد الشاعر نفسه بأى قيد لا تلزمه به نفسه ومواهبه وملكاته الفنية وحدها ، وإلا كان مقلداً لا نصيب له من الشعور بالحياة والاحساس بها والتمتع النفسى العميق بمشاهدها وصورها وألوانها .

(ج) وهناك فى الشعر الجاهلى ظاهرة أخرى نشأت عن الطابع البدوى الموروث ، وهى كثرة الغريب والوحشى ، ولا شك أن ذلك مذهب العرب القدامى وجدهم لأثر البيئة البدوية الجافة الخشنة فى عقولهم ونفوسهم . وما أروع ما يقول صفى الدين الحلى الشاعر المتوفى عام ٧٥٠ هـ .

إنما الحيزبون والدردبيس ... والطخا والنقاخ والعلطبيس

لغة تنفر المسامع منها ... حين تروى وتشمئز النفوس

وقبيح أن يذكر النافر الوحـ ... ـشى منها ويترك المأنوس

أين قولى: هذا كثيب قديم ... ومقالى : عقنقل قدموس

إنما هذه القلوب حديد ... ولذيذ الألفاظ مغناطيس

وليس هناك الآن والحمد لله أحد يدعو إلى استعمال هذه الألفاظ ، أو يرتاح قلبه حين سماعها فهى ألفاظ تاريخية يجب أن نفهمها فحسب .

— ٣ —

بقيت بعد ذلك صور البيان الأدبى نفسه : أنصوغ أسلوبنا على الصور القديمة التى يمثلها الشعر الجاهلى ، أم نستمد صوره من ألوان حياتنا وبيئتها وثقافتنا . ولنضرب مثالا واحداً لذلك : لا شك أن الجمل كان عماد الحياة فى العصر الجاهلى ، وفى أساليب البيان صور كثيرة استمدت منه ، فقد قالت العرب : ألقى الحبل على الغارب ، واقتعد غارب المجد وسنامه ، ووطئه بمنسمه وضرسه بانيابه ، وألقى عليه جرانه ، وناء وأناخ عليه بكلكله ، وقالوا لا ناقة لى فيها ولا جمل ، وأخذ بزمام الأمر .

وقد حاول النقاد والبلاغيون فى العصور القديمة أن يدعوا إلى توليد صور البيان وتنميتها من مشاهد الحياة والبيئة التى تتجدد دائماً .

فهل نأخذ صور البيان القديمة فى أساليبنا لنرضى العرب القدامى ، أو نولد فيها لنرضى عبد القاهر والقاضى الجرجانى وسواهما ؟

لست أدعو إلى الأول ولا أحبه ، وإن كنت لا أرى فى الرأى الثانى ضيراً أو ضررا ؛ وأوثر أن يضيف الأديب إلى الصور التى يولدها صورا جديدة يستمدها خياله من حياتنا وبيئتنا وألوان الحضارة التى نعيش فيها ، والاختراعات التى تجد دائماً بيننا والتى نبعد اللغة عنها ونحاول ألا نستمد منها صورنا الأدبية .

* * *

وبعد فهذه هى سمات الشعر الجاهلى ، والصلة الفنية بينه وبين حياتنا الفنية الحاضرة ، وما يصح أن نقلده فيه وما لا يصح .

ونحن لا ندعو إلى تقليد البلاغة القديمة ، ولا إلى تقليد الشعراء الجاهليين تقليدا بعيدا عن مناهج الفن والشخصية والموهبة الأدبية ، فإن ذلك التقليد يبعدنا عن أداء رسالتنا الأدبية على أكمل وجوهها ، وإنما نقول : افهموا هذه البلاغة فهما جيدا ، وربوا ذوقكم الأدبي بالأدمان على قراءتها وقراءة ما سواها من البلاغات ، لتصلوا إلى مرحلة الشخصية الذاتية في الأدب والشعر ، ولتكمل مواهبكم وتستقل بالإبداع والتجديد في الفن والشعر والأدب والحياة ...

موازنة أدبيــــة

بين قصيدتين من الشعر الجاهلى

أما الأولى فهى معلقة : عمرو بن كلثوم التغلبى الشــاعر الجاهلى المشهور (٥٠٠ ـــ ٦٠٠م) . ومطلعها :

ألا هبى بصحنك فاصبحينا   ولا تبقى خمور الأندرينا

وأما الثانية فهى مجهرة أمية بن أبى الصلت :

عرفت الدار قد أقوت سنينا   لزينب إذ تحــل بهــا قطينا

والقصيدة الأولى ملحمة تاريخية تصور المجد القديم لتغلب قبيلة الشاعر ، وملاحمها الحربية التى انتصرت فيها على أعدائها ، وهى فريدة فى نوعها فهى جـــديرة حقا أن تسمى ملحمة ، لأنها تاريخ مفصل لقبيلة عمرو ومفاخرها وأيامها ، ومنها يوم خزاز الذى انتصر فيه كليب قائد النزاريين على اليمنيين وفيها تهديد لأعداء تغلب ، وتنبيه الملك عمرو بن هند ملك الحيرة (٥٦٢ ـ ٥٧٩ م) ، حتى لا يطيع بهم الوشاة أو يتحيز لبكر شقيقة تغلب ومزاحمتها فى المجد والنفوذ والسلطان . . وقد بدأها الشاعر بوصف الخمر ثم انتقل إلى موضوع القصيدة وهو الفخر ، وختمها بقوله :

لنــا الدنيا ومن أمسى عليها   ونبطش حــين نبطش قادرينا

ملأنا الــبر حتى ضاق عنـــا   ومــاء البحر نملؤه سـفينا

إذا بلــغ الرضيع لنــا فطاما   تخر له الجبــابر ساجــدينا

وأنت تعلم أن عمرو بن كلثوم ارتجل بعض معلقته أمام الملك عمرو بن هند وهو الجزء الذى هدد فيه أعداء تغلب وحذر الملك من الاستماع للوشاة والميل معهم على قومه ، ومنه :

أبا هند فلا تعجل علينا ... وأنظرنا نخبرك اليقينا

بأنا نورد الرايات بيضا ... ونصدرهن حمرا قد روينا

ثم أكمل القصيدة كلها ، وأنشدها فى سوق عكاظ ، وقد عدتها تغلب سجل مجدها وفخارها فاعتزت بها اعتزازا كثيرا ويقال إنها أضافت إليها الكثير حتى بلغت أبياتها نحو ألف بيت وقال بعض شعراء بكر فيها :

ألهى بنى تغلب عن كل مكرمة ... قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

يفاخرون بها منذ كان أولهم ... يا للرجال لفخر غير مسؤوم

وأما مجمهرة أمية فقد تحدث فيها الشاعر عن مجد قبيلته « ثقيف » ، وهى من أمهات القبائل العربية وصاحبة النفوذ والسلطان فى الطائف بين قبائلها ، ولم يبدأها بوصف الخمر كما فعل عمرو بن كلثوم بل بدأها كما يبدأ الشعراء قصائدهم ، فذكر أطلال محبوبته « زينب » وعفاءها ولعب الرياح المعصرات بها ، ثم انتقل إلى موضوع القصيدة وهو الفخر بمجد القبيلة وشرف الآباء فقال فيما قال :

ورثنا المجد عن كبرى نزار ... فأورثنا مآثرنا البنينا

وكنا حيثما علمت معد ... أقمنا حيث ساروا هاربينا

وتخبرك القبائل من معد ... إذا عدوا سعاية أولينا

بأنا النــازلون بــكل ثغر وأنا الضــاربون إذا لقينا

إلى آخر ما ذكره من الفخر بأسرته وقومه ومجــدهم ومقابهم وما أرصدوه لريب الدهر من الخيل والرماح والسيوف والشيب المجربين والشبان الأقوياء ، ووراثتهم المجد عن كبرى نزار إلى غير ذلك من مظاهر الـكبرياء والعزة والسيادة التي أضافها أمية إلى قومه ... ولا ندرى شيئا عن التاريخ الأدبى للقصيدة ، وإن كنا نرجح أن الشاعر نظمها فى مفاخرة من هــذه المفاخرات التي تحدث كثيرا بين القبائل العربية وخاصة فى العصر الجاهلى :

تتفق القصيدتان فى الموضــوع والوزن والقافية ، وفى خيالهما الفنى الغالب على القصيدتين ؛ وتتفقان كذلك فى هذه المبالغة الواضحة فى الفخر ، ممـا لا يؤثر نظيرها من المبالغات فى معانى الشعر الجاهلى إلا قليلا .

كما تتشابهان فى هذه السهولة الفنية الغالبة على القصيدتين وخاصة عندما ينتقل الشاعران إلى الغرض الأصلى من قصيدتيهما وهو الفخر . وليست هذه السهولة الفنية بغريبة على الشاعرين ، فارتجال عمرو لقصيدته ومواقف الفخر فيها ممـا يقتضى الســهولة ، ونشأة أمية فى الطائف ذات الخصب والزروع والثمار والهــواء المعتدل والجو الجميل وتنقله فى رحلاته التجارية بين الشام واليمن وثقافته العامة وقراءته فى الـكتب السماوية ، كل ذلك رقق من طبعه وهذب من أسلوبه وأكسبه مواهب فنية ممتازة وصقل من ملـكاته الأدبية فظهر أثر ذلك فى شعره وضوحا وسهولة واسجاحاً .

وتتفق القصيدتان فوق ذلك فى كثير من معانى الشعر وأساليب الفخر ؛ ومن مظاهر ذلك الاتفاق هذه المعانى والأساليب والأبيات :

(٦) قال عمرو :

ورثنا المجد قد علمت معد ... نطاعن دونه حتى يبينا

أى حتى يظهر الشرف أنا . وقال :

ورثنا مجد علقمة بن سيف .

وقال وهو يتحدث عن الخيول الكريمة التى يخوض قومه عليها المعارك :

ورثناهن عن آباء صدق ... ونورثها إذا متنا بنينا

فقال أمية :

ورثنا المجد عن كبرى نزار ... فأورثنا مآثرنا البنينا

ونستطيع أن توازن بين البيتين الأخيرين إذا علمنا أن وراثة المجد فى بيت أمية أبلغ فى الفخر من وراثة الخيل فى بيت عمرو ، وإن كانت وراثة الخيول من أسباب المجد لأن الخيل وركوبها واتخاذها عتاداً دليل الشجاعة والبطولة وحب النضال . وقول أمية « فأرثنا مآثرنا البنينا » أبلغ من قول عمرو : « ونورثها إذا متنا بنينا » لأن أمية ذكر أن أبناءهم ورثوا مجد الآباء فى حياتهم ، أما عمرو فذكر أن الأبناء سيرثون هذه الخيول بعد وفاة آبائهم ، فلم يسند إليهم الشجاعة والبطولة وحماية الذمار فى حياة الآباء ، وهذا قصور فى الفخر . وقال أمية « البنينا » وقال عمرو : « بنينا » فشهرهم أمية نوأبان عن وضوحهم ، وقال عمرو : « آباء صدق » فدل على شجاعتهم ووضوح نسبهم وطهارة أعراقهم ، وهى زيادة لا نظير لها فى قول أمية .

وقد أخذ أمية لفظ « قد علمت معد » من قول عمرو فقال :

وكنا حيثما علمت معد ... أقمنا حيث ساروا هاربينا

(ب) ويقول عمرو : « وأنا المهلكون إذا ابتلينا » أى نهلك أعداءنا ونبيدهم إذا اختبرنا بقتال الأعداء ، فيقول أمية : « وأنا الضاربون إذا لقينا » فتجد قول عمرو أبلغ ، حيث نص على إهلاك الأعداء ، ولم يذكر أمية إلا الضرب ، وإن كان يكنى به عن الشجاعة والإقدام والعزيمة والجد فى طلب الأعداء ، ولكنه على أى حال لم يصور نتيجة الحرب كما صورها عمرو بن كلثوم بقوله « المهلكون » .

(ج) ويقول عمرو : « وأنا المانعون لما أردنا » ، ويروى : الحاكمون بما أردنا ، فيقول أمية : « وأنا المانعون إذا أردنا » .

(د) ويقول عمرو .

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ... ويشرب غيرنا كدرا وطينا

ويروى من جمهرة أمية :

وأنا الشاربون الماء صفوا ... ويشرب غيرنا كدرا وطينا

(هـ) ويقول عمرو .

بفتيان يرون القتل مجداً ... وشيب فى الحروب مجربينا

وقد روى من الجمهرة :

وفتياناً يرون القتل مجداً ... وشيباً فى الحروب مجربينا

ومعلقة عمرو تمتاز بأنها الأصل الذى نسج على منواله أمية ، كما

تمتاز بتنوع أغراضها ، وبطولها ، وأنها ملحمة تاريخية نادرة ، وهى إحدى المعلقات السبع وهى قصائد تحتل الذروة فى الشعر الجاهلى وقد انتخبت من بين القصائد الجاهلية لشهرتها وخصائصها الفنية والأدبية الممتازة . وقال ابن قتيبة فى قصيدة عمرو : وهى من جيد شعر العرب :

أما قصيدة أمية فلا تبلغ إلا نحو الثلاثين بيتاً أو تزيد قليلا فهى نحو ثلث قصيدة عمرو ، وقد وضعها النقاد مع المجمهرات .. والمجمهرات سبع قصائد من الشعر الجاهلى رواها أبو زيد الأنصاري فى « الجمهرة » ، وأصحابها هم :

(ا) عبيد بن الأبرص ، ومجمهرته مشبورة وهى فى الحكمة ومطلعها .

عيناك دمعهما سروب   كأن شأنيهما شعيب

والسروب : الكثيرة الجريان . والشعيب : المزادة .. وتشتهر باضطراب وزنها ؛ ومنها :

والمرء ما عاش فى تكذيب   طول الحياة له تعذيب

من يسأل الناس يحرموه   وسائل الله لا يخيب

(ب) عدى بن زيد ، ومجمهرته فى الحكمة ومطلعها :

أتعرف رسم الدار من أم معبد   نعم ورماك الشوق قبل التجلد

وهى شبيهة بمعلقة طرفة فى وزنها وقافيتها وحكمتها ، وتتفق معها فى بعض الأبيات مثل :

عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه   فكل قرين بالمقارن يقتدى

(ج) النمر بن تولب ، ومجمهرته فى الحكمة أيضاً ومطلعها : « تأبد من أطلال عمرة مأسل »

(د) أمية بن أبى الصلت ، ومجمهرته موضع الحديث ، وهى فى الفخر .

(ﻫ) بشر بن أبى حازم ، ومجمهرته فى الفخر بقومه وبطولتهم وعزم ، ومطلعها :

لمن الديار غشيتها بالأنعم ؟ — تعدو معالمها كلون الأرقم

(و) خداش بن زهير ، ومجمهرته فى الفخر بقومه أيضاً ، ومطلعها : « أمن رسم أطلال بتوضح كالسطر » .

(ز) عنترة ، وقصيدته :

هل غادر الشعراء من متردم — أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟

يعدها بعض النقاد من المعلقات والآخرون من المجمهرات .

وهذه القصائد السبع لم توضع فى مرتبة واحدة لا تفاق موضوعاتها ؛ إذ أن موضوعاتها مختلفة : فثلاث منها فى الحكمة وأربع فى الفخر . كما أنها لم ترتب بالنظر إلى الناحية التاريخية ، إذ أن أصحابها لم يعيشوا فى عصر واحد :

فعدى توفى نحو عام ٥٨٠ م ، وعبيد عام ٥٥٥ ، وأمية عام ٦٢٤ م ، وعنترة عام ٦١٥ م الخ ؛ فهى إذاً إنما وضعت فى منزلة أدبية واحدة تلى منزلة المعلقات الأدبية بالنظر إلى خصائصها الفنية الأدبية وحدها ، ويكاد الناقد الأدبى يقف أمام تشابه شاعرية هؤلاء الشعراء وخصائص الشاعرية فى هذه القصائد ؛ فهذه القصائد السبع يشبه بعضها بعضاً فى النواحى الفنية والفطرة الأدبية وفى خصائص الشعر والشاعرية ، وتكاد تكون متساوية فى حكم النقد الأدبى ، وهى على أى حال تلى المعلقات فى الجودة والمكانة الأدبية .

ونستخلص من ذلك كله أن النقاد لا حظوا الفروق الفنية الكبيرة بين القصيدتين فوضعوا الأولى فى صف المعلقات والثانية مع المجمهرات ، وفى الحق أن شاعرية عمرو فى معلقته أقوى وأبين من شاعرية أمية فى مجمهرته : سواء فى الأسلوب أو المعانى أو الأغراض أو مدى الجودة الفنية ومواهب الشعر .

ويرى الدكتور طه حسين فى كتابه « الأدب الجاهلى » أنه لا يمكن أن تكون معلقة عمرو أو أكثرها جاهلية . وقد شك الرواة فى بعضها ويرجح أن تكون المعلقة منتحلة ، ونحن لا نذهب هذا المذهب ، فالمعلقة تمثل حياة جاهلية لقبيلة تغلب ، وتمثل شاعراً جاهلياً ، وتصـــور حياة عمرو الفنية والاجتماعية نفسها ، وهى شبيهة بالآثار الباقية من شعر عمرو ، وإن كان هذا لا ينفى أن تكون قد زيدت عليها بعض الأبيات ؛ وقصيدة أمية نفسها تؤيد أن قصيدة عمرو جاهلية وأنها لم تنتحل بعد الإسلام على أيدى الرواة .

ونلاحظ على مجمهرة أمية خلوها من الصبغة الدينية التى اشتهر بها أمية ، ويبدو أنه نظمها فى شبابه قبل أن يقف نفسه وحياته وشعره على الجانب الدينى وحـــده . وتقليده فيها لعمرو بن كلثوم يؤكد ذلك وأنها نظمت قبـــل أن تكتمل شخصية أمية الفنية . وقـد يكون السبب الذى جعل أمية ينظم مجمهرته محتذياً فيها عمراً هو إعجابه بمعلقته أو روايته لشعره أو تشابه موقف الفخر الذى وقفه الشاعران ، ونحن لا نستطيع أن نقول إن الرواة أدخلوا على مجمهرة أمية بعض الأبيـــات من معلقة عمرو لتشابه الوزن والقافية والخيـــال والموضوع فى القصيدتين ؛ ذلك لأن مجمهرة أمية ليست طويلة ولأنه إذا حذف منها الأبيات المتشابهة لا يبقى منها فى مقام الفخر إلا القليل من أبياتها ، ولا يعقل أن ينظم الشاعر قصيدة فى الفخر معانيها فيه محدودة أو شبه محدودة .

ورواية أبى زيد للقصيدتين فى كتابه دليل على إيمانه بصحة القصيدتين أولا ، وبأن المعانى المتشابهة فيهما نتيجة لا تفاق الشاعرية أو للتقليد الأدبى ثانياً ؛ وأبو زيد م ٢١٥ ﻫ راوية ثقة .

وبعد فنستطيع أن نقول : إن أمية قلد فى مجمهرته عمرو بن كلثوم فى معلقته تقليداً فنياً واضحاً ، فأخذ من المعلقة كثيراً من معانى الفخر وأساليبه ، وصاغ قصيدته على موسيقى وقافية معلقة عمرو .

وهذا التقليد الفنى ليس بعجيب بين الشعراء فى شتى العصور وليس بغريب فى الشعر الجاهلى نفسه ، فأنت ترى أن الشاعر الجاهلى كثيراً ما يتفق مع شاعر قبله أو معاصر له فى أسلوب أو معنى أو بيت ، وأنت تعرف قول امرىء القيس :

وقوفا بها صحبى علىّ مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل

وقول طرفة

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد

وتعرف غير ذلك من مظاهر التشابه الفنى أو التقليد الأدبى بين الشعراء الجاهليين .

الحكومة الأدبية

بين قصيدتي علقمة وامرىء القيس

أولا :

١ — علقمة بن عبدة التميمى شاعر جاهلى مشهور ، عاصر امرأ القيس زعيم الشعراء الجاهليين ، وتوفى عام ٥٦١ م ، بعد وفاة امرىء القيس بسنة واحدة .

ومطلع قصيدة علقمة :

خليلى مرا بى على أم جندب   لنقضى حاجات الفؤاد المعذب

٢ — والموازنات الأدبية بين القصيدتين بمعناها الصحيح معدومة فى القديم والحديث .

قالوا : إن علقمة ضاف امرأ القيس وكان صديقا له ، فتذاكرا القريض ، وادعاه كل واحد منهما على صاحبه ، ولجأ فى ذلك ؛ فقالت لهما « أم جندب » زوج امرىء القيس : قولا شعرا تصفان فيه الخيل ، وتذكران الصيد ، « على قافية واحدة وروى واحد[1] » ، لأنظر أيكما أشعر ، فرضيا بحكمها ، وأنشداها على البديهة قصيدتين كبيرتين بائيتين ، سبق ذكر مطلعهما ، ولما فرغا من انشادها قالت أم جندب لبعلها : علقمة أشعر منك ، فقال وهو يكاد يتميز من الغيظ : وكيف ذاك ؟ قالت : لأنك قلت :

(١) هذا كلام صاحب الشعر والشعراء (ص٥٨) ، وقد يكون ذلك من زيادة الرواة

فللسوط ألهوب وللساق درة ... وللزجر منه وقع أهوج منعب

فزجرت فرسك ، وجهدته بسوطك ، ومريته بساقك . وقال علقمة :

فأدركهن ثانيا من عنانه ... يمر كمر الرائح المتحلب

فأدرك الطريدة وهو ثان من عنانه فرسه ، لم يضربه بسوط ، ولامراه بساق ، ولا زجره . فتربد وجهه ، وقال لها : ما هو بأشعر مني ولكنك له وامق وطلقها فخلفه عليها علقمة .

وقد ذكر هذه الرواية ابن قتيبة[1] ، وأبو الفرج[2] ، وصاحب الموشح[3] ، مع بعض تغيير فيها ؛ ويزيد المرزباني على هذه القصة رواية أخرى عن أبي عمرو الشيباني يقول فيها[4] : تزوج امرؤ القيس امرأة من طيء ، وكان مفركا ، فلما كان ليلة ابتنى بها أبغضته ، فجعلت تقول : « أصبح ليل ، يا خير الفتيان أصبحت أصبحت » ، فينظر فيرى الليل كهيئته ، فلم يزل كذلك حتى أصبح ، فنزل به علقمة وكان من فحول شعراء الجاهلية وكان صديقا له ، فقال أحدهما لصاحبه أينا أشعر ؟ فقال هذا : أنا ، وقال هذا : أنا ، فتلاحيا ، حتى قال امرؤ القيس : انعت ناقتك وفرسك وأنعت ناقتي وفرسي ، قال: فافعل والحكم بيني وبينك هذه المرأة من ورائك ، فقال امرؤ القيس: « خليلي مرا بي على أم جندب » ، وقال علقمة : « ذهبت من الهجران في غير مذهب » ؛ فلما فرغا من قصيدتيهما عرضاهما على الطائية امرأة امرئ القيس ، فقالت : فرس ابن عبدة أجود من فرسك ، قال لها : وكيف ؟ ،

---

(١) ٥٨ الشعر والشعراء .

(٣) الأغاني ج ٨ ص ١٢٨ .

(٣) ٢٨ الموشح للمرزباني .

(٤) ٢٩ المرجع .

قالت : إنك زجرت فرسك وحركت ساقيك وضربت بسوطك ، تعنى قوله :

فللزجر ألهـــوب وللســـاق درة   وللسوط منه وقع أخرج مهذب[1]

وإن علقمة جاءر الصيد فقال :

إذا ما اقتنصنا لم نقـــده بجنة   ولـكن ننادى من بعيد ألا اركبى

هذه هى حكومة أم جندب الأدبية بين الشاعرين ، فى كثير من رواياتها التى تختلف قليلا وتتفق كثيرا ، والتى لا تخرج عن أن أم جندب فضلت قصيدة علقمة على قصيدة امرئ القيس .

٣ — ويرتاب بعض الباحثين فى صحة هـذه الحـكومة ويرى جورها ويقول : ولعل ذلك مما حمل ابن المعتز على أن ينـكر هذه القصيدة فيما أنكر من شعر امرىء القيس[2] .

وذلك هـو رأى الدكتور طه حسين فى الأدب الجاهلى الذى رأى أن هذه القصة منتحلة[3] .

---

(١) الهوب : ألهب جريه حين زجـره .درة : أى اذا غمـز در بالجرى . الأخرج : الظليم وهو ذكر النعام والأنثى خرجاء فى حال لونه وهو سواد وبياض لون الرمادى والأخرج الرماد . مهذب : مسرع فى عدوه .

(٢) ٢١و٢٢ تاريخ النقد الأدبى عند العرب للمرحوم الأستاذ طه ابراهيم ، وقد أخطأ هذا الباحث فيما زعمه من ابن المعتز أنكر قصيدة امرىء القيس ، وذلك أنه يعتمد فى ذلك على المـرزبانى فى الموشـح : ونص كلام المـرزبانى هو : قال المرزبانى بعد نكره لحكومة أم جندب : « وقد روى هذا الحديث أيضا هشام بن الكـلبى ، ورواه أيضـا ابن المعتـز وذكـره فيما أنكره من شعـر امرىء القيس » (ص ٣٠ الموشح) .

وكلمة أنكره هنا بمعنى نقده وعابه لا بمعنى أنكار القصيدة ودعوى أنها منتحلة وذلك اصطلاح عند صاحب الموشح يفهم من قراءاة الكتاب ، وهب أن الأمر كما يقول هذا الباحث فكلام المرزبانى يجوز أن يحمل على انكار أبيات من القصيدة لا على انكارها كلها .

(٣) راجع الأدب الجاهلى ٢٢٠ ــ ٢٢٥ .

وقد وقف الباحثون حيال هذه الحكومة الأدبية موقفين متعارضين : فريق يؤيد أم جندب فى رأيها ، وفريق آخر يرى جور حكومتها الأدبية .

ومن الفريق الأخير الرافعى الذى عرض لحكومة أم جندب وبين حيفها ، وفضل قصيدة امرىء القيس على قصيدة علقمة ، وأيد ذلك ببعض الآراء والحجج الأدبية[1] .

يقول الرافعى :

وقصيدة علقمة بجملتها ليست بشىء ؛ لأن كل ما فيها من الألفاظ البارعة ، والمعانى الحسنة ، مأخوذ من قصيدة امرىء القيس ، حتى ليأخذ البيت برمته ، والشطر بحاله . ومع ذلك فقد أبر عليه امرؤ القيس فى الصنعة وما أرى كيف هذا ، فلولا أن الرواة مجمعون على أن قصيدة علقمة مما صح لقلت إنها مصنوعة ، وإن صح خبر هذه المنازعة فيكون ذاك هو السبب فى تعفف امرىء القيس على الشعراء وإدلاله بشعره[2] .

وقال[2] : وما أرى أم جندب إلا أرادت ما تريد الفارك من بعلها ، فقرعت أنفه على حمية ونخوة ، وهى تعلم أنها لا بد مسرحة فى زمام هذه الكلمة ؛ وإلا فالبيت الذى توافيا على معناه ليس بموضع تفضيل ، لأن فى قصيدة امرىء القيس ما هو أبلغ فى هذه الصنعة من بيت علقمة ، وهو قوله :

إذا ما جرى شأوين وابتل عطفه تقول : هزيز الريح مرت بأثأب[3]

---

(١) ٢٢٥ ـ ٣/٢٣٤ آداب العرب للرافعى طبعة ١٩٤٠ .

(٢) ص ٣/٢٢٧ تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعى طبعة ١٩٤٠ .

(٣) يقول الرافعى : ليس بين الناس اختلاف فى أن امرأ القيس أول من ابتكر هذا المعنى : فبالغ فى صفة الفرس ، وجعله على هذه الصفة : بعد أن يجرى شأوين ، ويبتل عطفه بالعرق : ثم زاد ايغالا فى صفته بذكر الأثأب ، وهو شجر للريح فى أضعاف أغصانه حفيف عظيم وشدة صوت (٣/٢٢١ المرجع) .

ومن تدبر صنعة امرىء القيس للخيل فى شعره وجد السوط لا يفارقه فلعلها كانت عادته[1].

ويقول : وما رأيت أحدا من أهل النقد وازن بين القصيدتين ، بل كلهم متبعون كلمة هذه المرأة ؛ وبعضهم لا يعرف ما كان بينها وبين امرىء القيس ، وامرؤ القيس يقول فى قصيدته :

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب[2]

والطريف أن الرافعى لم يوازن بين القصيدتين موازنة أدبية وإنما اكتفى بعد ذلك بأن ذكر القصيدتين كاملتين دون تعليق .

وعلى رأى الرافعى سار الأستاذ هاشم عطية فى كتاب الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى[3]، قال بعد أن عرض أبياتا كثيرة من القصيدتين :

« والذين يعرفون أن امرأ القيس كان مفركا تكرهه النساء ، وأن هذه المرأة كانت تكرهه ، وكانت ضلعها مع علقمة[4] ، يدركون فى سهولة أنها جارت فى حكمها على امرىء القيس ، وأن الذى قصد من ذكر السوط والساق والزجر — وإن كان فيه شىء من الهجنة — إنما هو التنبيه على مبلغ عنايته برياضة فرسه وتأديبه وأن عنده أفانين من الجرى ، فيعطى راكبه من كل حالة ما يشبهها من العدو[5] على أنه مع ذلك قال : « فأدرك لم يجهد » وهو

---

(١) ص ٣/٢٢٧ المرجع .
(٢) ص ٣/٢٢٦ » .
(٣) ص ١٨٤ .
(٤) هذه الأسباب الأولى فى تعليل جور حكومة أم جندب الأدبية مضحكة للغاية .
(٥) وهذه أيضا حجة أدبية رائعة مثل ما سبقها .

يدل على ما يدل عليه بيت علقمة من أنه أدرك طريدته ، وهو لا يزال كما هو لم يتعب ولم يثن شأوه ، أى لم يعد الشوط بل أدرك من أول حضر[1] » .

ثانياً :

١ — ونحن هنا فى مطلع موازنتنا الأدبية بين القصيدتين لا يصح أن نحكم فى هذه الموازنة أى باعث غير البواعث الأدبية فى الحكومة بين القصيدتين نفسيهما ، فلا يصح أن نفضل امرأ القيس لأنه زعيم الشعراء الجاهليين ، فنحن نعلم أن علقمة أيضاً شاعر فحل وإن كان لا يصل إلى منزلة امرىء القيس فى زعامة الشعر الجاهلى ؛ قال له ربيعة بن حذار الأسدى الشاعر الجاهلى :« شعرك كزادة قد أحكم خرزها فليس يقطر منها شىء » ، يريد أن شعره يثبت على النقد ولا يطرح منه شىء ، وقال ابن سلام : لعلقمة ثلاث روائع جياد لا يفوقهن شعر :

ذهبت من الهجران فى كل مذهب ولم يك حقاً كل هذا التجنب

والثانية : طحا بك قلب فى الحسان طروب .

والثالثة : هل ما علمت وما استودعت مكتوم[2]

ولعلقمة معان جيدة ، واشتهر بوصف النعامة مما أشاد به ابن الأعرابى ، ولكنه على أى حال لا يصل إلى منزلة امرىء القيس ، فقد وضعه ابن سلام الناقد الكبير فى الطبقة الرابعة مع عدى وعبيد وطرفة[3] ، ووضع امرأ القيس فى الطبقة الأولى .

---

(١) ١٨٤ الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى .
(٢) ص ٥٠ طبقات الشعراء لابن سلام .
(٣) ص ٤٩ المرجع .

فاختلاف منزلة الشاعرين الأدبية وما تلقيه فى روعنا زعامة امرىء القيس للشعر الجاهلى من أثر عميق باطنى ، كل ذلك لا يصح تحكيمه فى الموازنة بأى حال ، إنما يجب أن نهج منهجاً عادلا فيما نتناول به القصيدتين من أحكام .

٢ — أما قصيدة امرىء القيس فقد بدأها بالغزل العذب الجميل ، وفن امرى القيس فى الغزل محبب إلى النفوس مستوفى البلاغة ، قريب من القلب والروح ، يقول فيما يقول :

خليلى مُرا بى على أم جُندبِ ... لنقض لبانات الفؤاد المعذب

ألم تريانى كلما جئت طارقا ... وجدتُ بها طيبا وإن لم تطيب

فإن تنأ عنها حقبة لا تلاقها ... فإنك مما أحدثت بالمجرب

فلله عينا من رأى من تفرق ... أشت وأنأى من فراق المحصب[1]

فريقان : منهم جازعٌ بطن نخلة ... وآخر منهم قاطع نجد كبكب[2]

فعيناك غرْبًا جدول فى مفاضة ... كمر الخليج فى صفيح المصوب[3]

فتجد عذوبة فى جزالة ، وقوة عاطفة فى أسلوب عال من الشعر .

ثم إنتقل إلى وصف الدوية التى جابها على ناقته فى أسلوب رائع ممتع فقال :

---

(١) أشت : أكثر تفرقا . انأى : أبعد . المحصب : المكان الذى ترمى فيه الجمار بمنى .

(٢) جازع : قاطع . بطن نخلة : موضع . نجد كبكب : جبل يستدبره الواقفون بعرفات .

(٣) الغرب : الدلو العظيم . الجدول : النهر . المفاضة : الأرض الواسعة . الخليج : الماء المتخلج وهو الذى تعترضه العقبات فى سيره فيتياسر مرة ويتيامن أخرى الصفيح : العريض من الحجارة . المصوب : المنحدر .

ودوية لا يهتدى لفلاتهـا ... بعرفان أعلام ولاضوء كوكب(١)

تلافيتها والبوم يدعو بها الصدى ... وقد ألبست أطرافها ثنى غيهب(٢)

ثم ألم بناقته وشبهها بالحمار الوحشي ووصفه فقال فيما قال من وصفه :

يغرد بالأسحار فى كل سـدْفةٍ ... تغرد ميـاح الندامى المطرب(٣)

ثم انتقل إلى وصف فرسه ، فأجاد الوصف ، وأمتع فى الأسلوب ؛ وامرؤ القيس أوصف الناس للخيل ، فلا غرو أن يجىء هذا الوصف جميلا ممتعا قويا على غرابة فيه ، ومن قوله فيه :

له أيطلا ظبى وسـاقا نعامة ... وَصهْوة عير قائم فوق مرقب(٤)

كثير سواد اللحم ما دام بادنا ... وفى الضمر ممشوق القوائم شوذب(٥)

وصف امرؤ القيس خلقه وصفاً دقيقاً ، ثم وصف قوته وسرعة عدوه ، فقال فيما قال :

إذا ماجرى شأوين وابتل عطفه ... تقول: هزيزُ الريح مرت بأثأب(٦)

إذا ما ركبنا قال ولدانُ أهلنا ... تعالوا إلى أن يأتى الصيد نحطب(٧)

---

(١) الدوية : الفلاة التى لا يهتدى فيها بعلامة أو ضوء كوكب .

(٢) تلافيتها : قطعتها . الغيهب : الليل الحالك .

(٣) يغرد : يطرب بصوته . السدفة : القطعة من الليل . المياح : المياس .

(٤) الأيطل : الخاصرة . الصهوة : الظهر . العير : حمار الوحش . قائم منتصب . المرقب : المكان المرتفع .

(٥) البادن : السمين . الممشوق : حسن القوام . الشوذب : الطويل الجسم الحسن الخلق المنسجم .

(٦) شأوين : شوطين . ابتل عطفه : سال عرقه على جانبيه . هزيز الريح : صوتها . أثاب : اسم شجر .

(٧) نحطب : نجمع الحطب للطبخ والشواء .

ثم انتقل إلى وصف الصيد ، وهو فن من فنون شعر امرىء القيس الجيدة العالية ، فذكر خروجه للصيد حول ثعالة ، ورؤيته لقطيع كبير من الصيد ، وامتطاءه فرسه ، وحمله غـــلامه خلفه ، وعدوه الشديد بهما على آثاره ، وذكر أنه لم يمهل مع ذلك هذا الفرس ، بل ألحّ عليه يجهده ، ويستحثه بساقه وسوطه ويزجره له ، حتى أدرك القطيع ، قال فيما قال :

فللســـاق ألهوب وللسوط درة   وللزجر منه وقع أهوج منعب(١)
فأدرك لم يجهـــد ولم يثن شأوه   يمر كخذروف الوليد المثقب(٢)

وذكر معركة الصيد وفيئه إلى بيت مشيد ، وجلوسه فيه هو وأصحابه في يوم جميل ممتع :

فظـــل لنـــا يوم لذيذ بنعمة   فقل في مقيل نحسه متغيّب(٣)
يمتعون فيه بأكل الشواء المضهب(٤) .

ثم ذكر رجوعه على فرسه إلى منزله ، وفرسه محبب إلى الأصحاب غير ملعّن .

حبيب إلى الأصحاب غير ملعن   يفدونـــه بالأمهـــات وبالأب
كأن دمـــاء الهـــاديات بنحره   عصارة حنـــاء بشيب مخضب(٥)

---

(١) الألهوب : الجرى الشديد الدرة : الدفعة . الزجر : النهر . الأهـوج . الأحمق . المنعب : الذى يصلح عليه . . . . وبهذا البيت حكمت أم جندب على امرىء القيس بالتقصير وفضلت علقمة عليه .

(٢) الخذروف : لعبة للأطفال .

(٣) يريد أنه كان ذلك اليوم من أيام السعادة التى غاب عنها النحس

(٤) أى الذى لم ينضج تماما .

(٥) الهاديات : أوائل الوحش .

وتنهى هـذه القصيدة الرائعة القوية الخصبة الخيال ، البليغة الأسلوب ، الـكثيرة المعانى ، المشبوبة العاطفة والشعور ، الطويلة حتى لتبلغ أبياتها خمسة وستون بيتا .

٣ — أما قصيدة علقمة فعدد أبياتها خمسة وأربعون بيتا بدأها بالغزل كما بدأ امرؤ القيس قصيدته ، فقال :

ذهبت من الهجران فى غير مذهب ولم يكُ حقا كل هذا التجنب

ليـــالى لا تبلى نصـــيحة بيننا ليالى حلوا بالستار فغرب (١)

مبتـــلة كأن أنضـــاء حليها على شادن من صاحة متربب (٢)

وبعد أن تحدث عن ماضى حبه لهـا ، ذكر الحاضر المؤلم الذى تقطعت فيه أسباب المودة والحب ، فقال فيما قال :

إذا ألحم الواشون للشر بيننا تبلغ رس الحب غير المكذب (٣)

أطعتُ الوشاة والمشاة بصرمها فقد أنهجت حبالها للتقضب (٤)

ويذكر وعدها له ، ودلالها الشديد ، ورجوع المودة والصلة من جديد ، ثم يقول :

---

(١) الستار جبل بعاليه الحجاز . غرب موضع تلقاءه .

(٢) مبتلة : الحسنة الخلقة وتقسيم الأعضاء ، أو الضامرة الكشح . الأنضاء جمع نضو الهزيل : الحلى ، والحلى : ما تتزين به المرأة . الشادن : ولد الغزال . صاحة : موضع . متربب : مربى فى البيوت . شبه جيدها وما عليه من الحلى بجيد هذا الشان الذى تربيه الجوارى فى البيوت .

(٣) ألحم : أدخل . للشر اللام زائدة . الرس : الثابت الراسخ . المكذب : الزائل المتقطـــع .

(٤) الصرم : الهجر ، أنهجت حبالها للتقضب : ضعفت العلاقة بينى وبينها وكادت أن تنقطع ، والتقضب : التقطع .

فعشنا بها من الشـــباب ملاوة   فأنجح آيات الرسول المخبب[١]

ثم يذكر تسليه بالأسفار على ظهر ناقته :

فانـــك لم تنطع ابانة عاشـــق   بمثل بـكور أو رواح مؤوب

ثم ينتقل إلى وصف الناقة ، فيجيد وصفها فى خمسة أبيات جميلة قوية بليغة الأسلوب ، فيقول فيما يقول فى وصف عينها :

بعين كمرآة الصناع تدبرهـــا   لمحجرها من النصيف المثقب[٢]

وفى وصف ذيلها :

تذب به طوراً وطوراً تمره   كذب البشير بالرداء المهدب[٣]

ثم ينتقل إلى وصف الفرس فيجيد إجادة عالية ، قال فيما قال :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها   وماءالندى يجرى على كل مذنب[٤]

بمنجرد تيد الأوابد لاحـــه   طراد الهوادى كل شأو مغرب[٥]

ويصف أذنيه فيقول :

---

(١) ملاوة : دهــرا طويلا · عشنــا بها : أى نعمنــا بوصلهـــا · آيات : علامات ، مخبب معـلم الخب وهـــو الخـــداع ، أو من الخبب يريـــد المشى بين الحبيبين ، والخبب نوع من السير ، يريد الرسول المفسد ·

(٢) أى بعين صافية كمرآة الحاذقة العمل · المحجر : ما حول العين · النصيف : الخمار · المثقب : ذو الثقوب ·

(٣) تذب : تدفع الذباب · المهدب : ذو الأهداب ·

(٤) اغتدى : أخرج فى الغـدو · وكناتها : أعشاشها · المذنب : مسيل الماء الى الرياض ·

(٥) منجرد : قصير الشعر · الأوابد : بقر الوحش · لاحه : أهزله · الطراد المطاردة · الهوادى : أوائل الوحش · الشـاو : الشـــوط · المغرب : البعيـــد ·

له حرتان تعرف العتق فيهما   كسامعتى مذعورة وسط ربرب[1]

وهكذا يصفه علقمة وصفا دقيقا ؛ ثم انتقل إلى الصيد فقال فى أسلوب ممتع وتصوير خصب وخيال جميل :

رأينا شياها يرتعين خميلة   كمشى العذارى فى الملاء المهدب[2]

فبينا تمارينا وعقد عذاره   خرجن علينا كالجمان المثقب[3]

فأدركهن ثانياً من عنانه   يمر كمر الرائح المتحلب[4]

وهذا البيت الأخير من أسباب حكومة أم جندب الأدبية التى فضلت فيها علقمة على امرى القيس ؛ إلى أن قال :

فعادى عداء بين ثور ونعجة   وتيس شبوب كالهشيمة قرهب[5]

ثم يذكر عودته إلى خبائه المطنب المضروب .

فقلنا : ألا قد كان صيد لقانص   فخبوا علينا فضل برد مطنب[6]

---

(١) الحرتان : الأذنان جعلهما حرتين للطافتهما وانتصابهما . السامعتان: الأذنان . المذعورة : المفزعة يريد بقرة الوحش ذعرت فنصبت أذنيها وحددتهما. الربرب . جماعة بقر الوحش .

(٢) الشياء : النعاج الوحشية . الخميلة : الأرض الكثيرة النبات والشجر : المهدب ذو الهدب .

(٣) التمارى : التجادل والتشكك . عقد عذاره : أى الجام الخيل . الجمان حب يصنع من فضة على هيئة العقد أى خرجت متتابعة منظمة كالجمان المنظوم .

(٤) ثنى عنان فرسه : جذبه نحوه . الرائح السحاب . المتحلب : المتساقط المتتابع .

(٥) فعادى عداء : جرى أشواطا متتالية . التيس : الذكر من الظباء . الشبوب القوى . الهشيمة : الشجرة البالية وشبهه بها فى حالة صيده وسقوطه صريعا على الأرض كالشجرة التى تقع وهى بالية .

(٦) فخبوا : أى فضربوا علينا خياما . البرد : كل ثوب موشى . المطنب: المشدود بالأطناب وهى حبال الخيمة .

وتمتعهم بالأكل من الصيد ورميهم لعيون الصيد حول الخباء .

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب[١]

ثم يذكر عودته من رحلة الصيد على فرسه الذى سار فى نشاط وحدة يسابق النوق وتسابقه ؛ ويشبهه بالحية المنسابة :

وَراحَ يبارى فى الجِنابِ قَلوصنا عزيزاً علينا كالحُبابِ المُسيَّبِ[٢]

وبذلك تنتهى هذه القصيدة .

ثالثاً :

ومن ذلك العرض السريع نرى أن القصيدتين :

(ا) تتشابهان فى الوزن والقافية .

(ب) وفى الموضوع أيضاً ، فكلتا القصيدتين مبدوءة بالغزل ، ووصف كل من الشاعرين فى كلتيهما الناقة والفرس ورحلة الصيد ونزوله فى الخباء المضروب للراحة وتناول الطعام وعودته من هذه الرحلة الجميلة الممتعة ، ويزيد امرؤ القيس بوصف المرقبة[٣] فى بيتين والدوية[٤] فى بيتين آخرين بعد الغزل مباشرة .

(حـ) وتتشابه القصيدتين أيضاً فى الخيال والروح ، وفى هذا الارتجال الفنى والبديهة الحاضرة الذين تفيض فى ذكرهما الروايات المختلفة .

---

(١) الجزع : خرز فيه بياض وسواد .

(٢) يبارى : يسابق . الجناب : مصدر جانبه مجانبة اذا صار الى جنبه . القلوص . الناقة الشابة القوية . الحباب : الحية . المسيب ، المسابة .

(٣) هى المكان المرتفع الذى يقف عليه الديدبان ليرقب العدو .

(٤) الدوية : الفلاة الواسعة .

(د) وتتشابهان فوق ذلك فى كثير من المعانى وأساليب الشعر .

١ — قال امرؤ القيس فى الفرس :

حبيبٌ إلى الأصحاب غير مُلَعَّن   يفدونه بالأمهـــات وبالأب

وقال علقمة :

أخا ثقـة لا يلعن الحىُّ شخصـه   صبوراً على العلات غير مسبب

فذكر امرؤ القيس أنه غير ملعن، وفصل علقمة فقال « الحى ، وشخصه » ثم عاد فأجمل فقال . « غير مسبب » أى غير ملعن ؛ وزاد امرؤ القيس بقوله : « أخا ثقة » أى يوثق به وبنجابته وأصالته وقوته وسرعة عدوه عند المطالب، وبقوله « صبورا على العلات » أى على مختلف الحالات أو على ما يلم به من تعب وإنضاء .

٢ — وقال امرؤ القيس فى الفرس أيضاً :

فكان تنادينا وَعقْد عذاره   وقال صحابى : قد شأونك فاطلب

وقال علقمة :

فبينا تمارينا وعقـــدُ عذاره   خرجْن علينا كالجمان المثقب

يقول امرؤ القيس : أبصرنا قطيع الوحش فنادى بعضنا بعضاً وألجمت الفرس ، فسبق الصيد ، وقال أصحابى : قد سبقك القطيع فاطلبه .

ويقول علقمة : أخذنا فى الجدال والكلام والشك وأنا ألجم فرسى وإذا نعاج الوحش تخرج علينا متتابعة كالجمان المنظوم ، فلم يذكر علقمة أن الصيد

قد هرب منه ، ولا أن أصحابه قالوا له شيئاً ، وزاد بهذا التشبيه الرائع : « الجمان المثقب » زيادة رائعة .

٣ — وقال امرؤ القيس فى الفرس :

فأدركَ لم يُجْهِد ولم يثن شأوه　　　يَمرّ كخذْروف الوليد المثقب

وقال علقمة :

فأدركهن ثانيا من عنانه　　　يمر كمر الرائح المتحلب

فذكر امرؤ القيس أن فرسه أدرك الصيد بشوط واحد وأنه كان شديد الجرى لا يبصره الناظر وأن مثله مثل هذه اللعبة التى يلعب بها الأطفال مما يسمونه « المقلاع » فإذا ضربت لم تكد تراها العين ؛ وذكر علقمة أن فرسه أدرك الصيد وهو ثان من عنانه أى لم يجذبه نحوه ، وشبه سرعته النادرة بسرعة السحاب المتساقط المتتابع . . فنجد امرأ القيس ينص على أن فرسه لم يصبه إجهاد وأنه أدرك الصيد من شوط واحد ، ونجد علقمة لا يذكر شيئاً من ذلك ولكنه يذكر أن فرسه كان شديد العدو حتى كان يجذب عنانه نحوه ليهدأ فى سيره ، ويأتى بهذا التشبيه الجيد الذى أفضله على تشبيه امرىء القيس .

٤ — وقال امرؤ القيس فى فرسه :

وَراحَ كتيس الرُّبْل ، يُنغضُ رأسه
أذاةً بـه من صائك متحلّبِ[1]

---

(١) شاة الربل وتيس الربل يعنى الثور الوحشى وقد شبه به الفرس فى نشاطه وحدته . ينغض : يحرك . الصائك : العرق . المتحلب : السائل المتقاطر ، يقول : ان هذا الفرس راح يحرك رأسه ليزيل العرق المتقاطر السائل .

وقال علقمة :

وراح كشاة الربل ينفض رأسه   أذاة بـه من صائك متحلب

فنجد إتفاق البيتين فى أكثر الأسلوب وفى المعنى ، وإن كان علقمة مسبوقا ، والفضل لامرىء القيس .

٥ — ويقول علقمة :

ترى الفأر عن مُستَرغِبِ القَدْر لائحا
على جدد الصحراء من شد مُلهِبِ[1]

خفى الفأرَ من أنفاقه فكأنما   تجلله شؤبوبُ غيث منقب[2]

وظل لثيران الصريم غماغمٌ   يُداعِسهنّ بالنضىّ المعلب[3]

فهاو على حرّ الجبين ومتّق   بمدْراته كأنها ذلق مشعب[4]

وقال امرؤ القيس من قصيدته فى المعنى نفسه :

---

(١) عن يعنى من . مسترغب القدر : وأمنع الخطو . لائحا : ظاهرا . الجدد الطريق . شد ملهب : أى من جرى فرس ملهب وهو الشديد الجرى المثير للغيار .

(٢) خفى الفأر : أخرجه من أنفاقه ، وهى جمع نفق وهو الجحر . تجلله : غشيه وأحاط به . الغيث المطر . المنقب : الذى ينقب فى الأرض ويستخرج ما فيها لشدته . الشؤبوب : الدفعة من المطر .

(٣) ثيران الصريم : بقر الرمل . الغماغم : حوار الثيران عند الطعن . يداعسهن : يطاعنهن : النضى : الرمح . المعلب . المشدود بالعلباء وهى عصبة كانوا يشدون بها الرماح والسهام لئلا تنكسر .

(٤) هاو : ساقط . حر الجبين : ما أقبل عليك منه . المدراة ، القرن . الذلق : الحد والطرف . المشعب : المخرز الذى تخرز به الجلود .

ترى الفأر فى مستنقع القاع لاحبا على جدد الصحراء من شد ملهب[١]

خفاهن من أنفاقهن كأنما خفاهن ودق من عشى مجلب[٢]

وظل لصيران الصريم غماغم يداعسها بالسمهرى المعلب

فكاب على حر الجبين ومتق بمذريه كأنها ذلق مشعب

فتجد تشابه المعنى والأسلوب والألفاظ والخيال فى القطعتين .

٦ — وقال امرؤ القيس :

وقلنا لفتيان كرام : ألا انزلوا فعالوا علينا فضل ثوب مطنب

وقال علقمة :

فقلنا : ألا قد كان صيد لقانص فخبوا علينا فضل برد مطنب

فيزيد علقمة بذكره « صيد القانص » ، ويوجز فيحذف ذكر النزول ، ويزيد امرؤ القيس فينص على كرم الفتيان وعلى ذكر النزول .

٧ — ويقول امرؤ القيس :

وقد اغتدى قبل الشروع بسابح أقب كيعفور الفلاة مجنب[٣]

---

(١) مستنقع القاع : الأرض المنخفضة الذى تنفع فيها المياه . لاحبا : ظاهــرا .

(٢) الودق : المطر . مجلب : شديد الجلبة والصوت .

(٣) السابح : الفرس السريع الجرى . الأقب : الضامر البطن . اليعفور : حمار الوحش . الفلاة : الصحراء .

ويقول علقمة :

وقد اغتدى والطير فى وكناتها — وماء الندى يجرى على كل مذنب[١]
بمنجرد قيد الأوابد لاحه — طراد الهوادى كل شأو مغرّب[٢]

فنجد علقمة يزيد هذه الزيادات الجميلة الرائعة حقاً : « وماء الندى يجرى على كل مذنب » ، و « منجرد قيد الأوابد — البيت كله » ، ويزيد امرؤ القيس فى وصف فرسه بما وصفه به ، وإن كانت « منجرد ، وقيد الآوابد » مما ابتكره امرؤ القيس وأخذ عنه ، إلا أن علقمة هنا أرفع بلاغة من غير شك .

٨ — ويقول امرؤ القيس فى الناقة :

بمجفرة حرف كأن قتودها — على أبلق الكشحين ليس بمغرب[٣]

ويقول علقمة :

بمجفرة الجنبين حرف شملة — كهمك مرقال على الأين ذعلب[٤]

---

(١) المذنب : مسيل الماء الى الرياض .

(٢) منجرد : قصير الشعر . الأوابد : بقر الوحش . لاحه : أهزله . الطراد : المطاردة . الهوادى : أوائل الوحش . الشأو : الشوط . الغرب : البعيـــد .

(٣) المجفر : الناقة العظيمة البطن . الحرف التى تماثل حرف الجبل فى صلابتها . القتـود : أداة الرحـل . أبلق الكشحين يريد حمارا وحشيـا أبيض الخاطر . المغرب : الذى أبيضت أشفاره وحماليقه .

(٤) الحرف : الضمرة أيضا . الشملة : السريعة . كهمك أى كما تشتهى فى سيرها . المرقال : الكثيرة الرقلان وهو المشى السريع . الأين : التعب . ذعلب : خفيفة فى سيرها .

٩ — ويقول امرؤ القيس فى الفرس :

وبهوٌ هـواءٌ تحت صلب كأنه — من الهضبة الخلقاء زحلوقُ مَلعبِ [1]

ويقول علقمة فى المعنى نفسه :

وجوفٌ هواءٌ تحت متن كأنه — من الهضبة الخلقـاء زُحلوق ملعب

١٠ — ويقول امرؤ القيس فى ذنب الفرس :

وأسحم ريـــان العسيب كأنه — عثاكيلُ قنو من سميحة مرطبِ [2]

ويقول علقمة فى ذنب الناقة :

كأن بحـــاذيها إذا ما تشذرت — عثاكيل قنو من سميحةَ مرطب [3]

فيزيد علقمة بالشطر الأول أو أغلبه على امرىء القيس .

١١ — ويقول امرؤ القيس فى الفرس :

وعينان كالمـاويتين [4] ومحْـجرٌ — إلى سَنـدِ مثل الصفيح المنصبِ

ويقول علقمة فى الناقة :

بعين كمرآة الصَّنَاع تديرهـا — لمحجرهـــا من النصيف المثقب

---

(١) البهو : جوف الصدر . هواء : واسع . الصلب : الظهر . الخلقاء : الملساء . الزحلوق : ما يتزحلق عليه الأطفال أثناء لعبهم .

(٢) الأسحم : الأسود ، والمرادبه الذنب . ريان : ممتلىء . العسيب : أصل الذنب . العثاكيل : الأغصان الرقيقة وهى الشماريخ . القنو : العذق وهو العنقود سميحة : بئر على حافته نخل مثمر .

(٣) الحاذان : ما وقع عليه الذنب من الفخذين . تشذرت الناقة : ضربت بذنبها .

(٤) تثنية ماوية وهى المرآة الصافية . المحجر : نقرة العين . الصفيح المنصب : اللوح الحجارة الثابتة .

فيشبه امرؤ القيس عيني الفرس بمرآتين صافيتين ويقول : إن عينه يسندها عظم الوجه القوى الصلب المنتصب . ويقول علقمة : إن عين الناقة شبيهة بعين المرأة الصناع التى تديرها وتنظر بها من خلال ثقوب الخمار ؛ فتجد إحكاما فى التشبيه عندهما واختلافا فى تفاصيل المعنى ، واتفاقا فى عمومه .

وهذا الاتفاق كله يبين لنا مدى هذا التشابه الفنى الواسع بين نينك القصيدتين الكبيرتين .

رابعاً :

وهناك خلاف كبير أيضاً بين القصيدتين يتجلى لك فى ما يأتى :

١ — قصيدة امرىء القيس تزيد على قصيدة علقمة عشرين بيتا فالأولى خمسة وستون والثانية خمسة وأربعون .

٢ — وشتان بين غزل القصيدتين ، فغزل امرى القيس ممتع خصب بعكس غزل علقمة ، وعلقمة لا يحسن أن يتغزل كما يتغزل امرؤ القيس ، فنجده يقول :

فإنك لم تقطع لبانة عاشق   بمثل بكور أو رواح مؤوب

فيرى أن يقطع آماله فى حب محبوبته ويقطع صلته بها بالسفر مبكراً أو رائحاً ؛ ويقول أيضاً :

فقلت لها : فيئى فما يستفزنى   ذوات العيون والبنان المخضب

وإذا لم تستفزه هؤلاء فمن الذى يستفزه بعدهن ؟

ولكن امرأ القيس لا يدور بخلده شيء من ذلك ولا ينطق به لسانه، إنما تراه يقول :

فإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

فتجده يذكر ضعف المرأة وأنوثتها وسحرها مع ذلك وامتلاكها بهذا الضعف القلوب والأرواح .

وقد ذكر علقمة فى غزله الوصل ومظاهر الجمال فى خلق حبيبته وفى زينتها ، ثم صور ما وقع بينهما من صرم وعودة الصلات ثم قطعه لها بالأسفار .
أما امرؤ القيس فيذكر لبانات الفؤاد المعذب وحاجة قلبه إلى اللقاء وجمال محبوبته الفاتن ، ورائحتها الذكية حتى فى غير وقت الزينة والطيب ، وإقامتها على المودة وثقته بها ، ويتذكر ساعات رحيل أحبابه وهو ينظر إليهن نظرة البائس الحزين ، تنهمر دموعه حزناً لفراق أحبابه .

وعلقمة فى غزله الذى يبلغ الأربعة عشر بيتاً لا يصل على أى حال إلى منزلة امرىء القيس شاعر الغزل والجمال الذى رسم فى مطلع قصيدته صوراً حية رائعة لأحبابه وذكراهن فى إيجاز وفى ثلاثة عشر بيتاً .

٣ — أما الناقة فقد وصفها علقمة فى خمسة أبيات ووصفها امرؤ القيس فى بيت بل فى شطرة فقط ، ويزيد امرؤ القيس فيصف حمار الوحش الذى شبه ناقته به وصفا جميلا ، فعلقمة إذاً يتفوق على امرىء القيس فى وصف الناقة ، وإن كان امرؤ القيس يزيد عليه بوصفه للحمار الوحشى فى ثلاثة أبيات :

٤ — ووصف الشاعران الفرس ، ووصفه علقمة فى ثلاثة عشر بيتاً ثم

ذكره فى بيتين فى آخر القصيدة ، ووصفه امرؤ القيس فى سبعة عشر بيتاً ثم عاد إليه فى ذكره لرحلة الصيد ، وفى نهاية القصيدة عاد لذكره فى سبعة أبيات أخرى . ووصف امرىء القيس للفرس وصف دقيق ، لا يترك شيئاً منه إلا ويصفه ويصوره ومن أولى من امرىء القيس بذلك وهو الذى قيل فيه : « أشعرهم امرؤ القيس إذا ركب » ؛ ولكن امرأ القيس مع ذلك يخطىء فى بعض معانيه ، أما علقمة فلا يخطىء فى شىء وذلك ما لا حظته أم جندب ونقدت امرأ القيس من أجله وفضلت علقمة عليه .

٥ — ووصف الصيد عند الشاعرين وصف جميل ممتع . . وصفه علقمة فى ثمانية أبيات ووصفه امرؤ القيس فى اثنى عشر بيتاً ، مع اتحاد فى بعض الأساليب والمعانى ، ولكن امرأ القيس يزيد فى وصف الصيد على علقمة من غير شك ، وزاد عليه أيضاً بوصف الخباء الذى نزل هو ورفاقه فيه لتناول الغذاء وأكل لحم الشواء المضهب كما يقول :

وبذلك نجد تفوق امرىء القيس فى الغزل ووصف الصيد وتفوق علقمة فى وصف الناقة والفرس .

٦ — على أن فى قصيدة علقمة صورا شعرية كثيرة أرجح أنه اقتبسها من قصائد امرىء القيس الأخرى ، كقول علقمة : « وقد أغتدى والطير فى وكناتها » ، وقوله « بمنجرد قيد الأوابد » ، وقوله : « فعادى عداء بين ثور ونعجة » ، وقوله :

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب

خامسا :

وامرؤ القيس له السبق فى إنشاء قصيدته وابتكار معانيها ، فعلقمة تابع له فى المعانى التى شارك امرأ القيس فيها من غير شك .

ولكن بماذا نسمى عمل علقمة ، أنسميه معارضة أم تقليداً فنياً ، أم أنه عمل جديد بكر كعمل امرىء القيس الشاعر الأول .

إن عمل علقمة الفنى ليس جديدا بكرا ، ولكنه جديد فى بعض نواحيه، وهو تقليد فى بعض النواحى ، ومعارضة أدبية فى باقيها ؛ ولسنا نذهب مذهب من يفضل أحد الشاعرين على الاطلاق ، كما فعل القدماء ، ففضلوا علقمة على امرىء القيس ، فقالت أم جندب ما قالت ، وقال ابن رشيق : « ونازع — امرؤ القيس — علقمة بن عبدة ، فكان من غلبة علقمة ما كان[1] » ؛ وكما فعل بعض المحدثين ففضلوا امرأ القيس على أى حال ، ولكن نهجنا فى الموازنة نهج يسير على العدل والحق والانصاف فى الحكومة الأدبية دون نظر إلى ما عدا ذلك .

إن عمل علقمة الفنى فى قصيدته جديد فى الكثير من معانيها وأساليبها وخيالاتها ، وهو تقليد فيما أسلفناه لك من معان احتذى فيها علقمة امرؤالقيس الذى سبقه بارتجال قصيدته ، ولكن العمل الفنى الذى عمله علقمة كله وعلى وجه الاجمال أسميه معارضة ، والمعارضة فى الشعر أن يقول الشاعر القصيدة ، فيتبعه شاعر آخر بقصيدة فى خيالها وروحها وموضوعها مع الاتفاق فى الوزن والقافية فى أحيان كثيرة ، ويقصد الشاعر الثانى أن يسجل بقصيدته على الأول تفوقا ، أو ينقض فكرة الأول فى قصيدته .

---

(١) ١/١٣٥ العمدة ط ١٩٢٥ طبعة هندية بمصر .

والمعارضات فى الشعر العربى القديم والحديث كثيرة ؛ ولكن المعارضة فى قصيدتينا — موضوع هذا البحث — أظهر وأبين وأوضح .

سادسا :

وبعد فقد حاول علقمة بقصيدته أن يتفوق على امرىء القيس فى حكم النقد الأدبى .

وقد نال ما أراد عند القدماء ، وحرمه منه بعض الباحثين من المحدثين .

ولكننا نقدر عمل الشاعرين الفنى معاً :

١ — فلامرىء القيس ميزة البدء وفضيلة الابتكار ، وله فضل التفوق فى الغزل والصيد .

٢ — ولعلقمة فضل المعارضة وفضل الابتكار الذى يظهر فى قصيدته أحياناً حتى ليكاد يجعلها جديدة من نواحيها ، وله فضل التفوق على امرىء القيس زعيم الشعر الجاهلى فى وصف الناقة وفى الفرس وهو الفن الذى شهر به امرؤ القيس .

إن الصور الفنية الممتعة فى القصيدتين كثيرة جداً ، وخيالهما قوى خصب يتكىء على الحس ، ومعانيهما متدفقة ثرة جياشة لا تكاد تنتهى .

ووحدة الموضوع والروح والوزن والقافية فى القصيدتين تكاد تمازج بينهما إلى حد بعيد .

وهذا هو آخر تلك الموازنة الأدبية الدقيقة التى فصلنا القول فيها ؛ لنتخذ منها منهجا أدبيا واضحا فى النقد والموازنة .

رواية الشعر ورواته

روايته :

كان العرب بطبيعتهم أثبت الناس حفظاً وأقواهم حافظة ، ولم تكن الكتابة مما يعتمدون عليها فى نظامهم الاجتماعى ، ومن ثم لم يدوّنوا شعرهم فى الجاهلية فى ديوان أو سفر ، وإنما كان محفوظاً فى الصدور تعيه حافظتهم وقلوبهم وأذواقهم وملكاتهم الأدبية الفطرية .

وقد تعجب مما تقرأ من رواة العرب بعد الإسلام وكثرة ما كانوا يحفظون ولكن لا عجب ، فملكات الذكاء والحفظ قوية عند العرب وكانت تعينهم على تخليد الشعر العربى حتى لا يضيع .

ولقد كان الأصمعى — وهو من مشاهير الرواة فى العصر العباسى — يقول : ما بلغت الحلم حتى رويت اثنتى عشرة ألف أرجوزة ، وكان خلف مع روايته وحفظه يقول الشعر فيحسن وينحله الشعراء ، ويقال إن القصيدة :

إن بالشعب الذى دون سلع   لقتيلا دمه ما يطل

لخلف الأحمر ، نحلها ابن أخت تأبط شراً ، وكذا كان يفعل حماد يحقق الشعر القديم ويقول : ما من شاعر إلا قد حققت فى شعره أبياتاً فجازت عنه إلا أعشى بكر فإنى لم أزد فى شعره غير بيت[1] . ويقول المفضل : سلط على الشعر من حماد ما أفسده ، ورغم هذه الرواية والحافظة القوية فقد ضاع الكثير

---

(١) ٣ : ٤٠٢ العقد .

من الشعر العربى الجاهلى وغيره ، حتى قال أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير[1] .

وأصيب الشعر العربى مع الضياع بالافتراء والاختلاق عليه من بعض الرواة ، لأسباب كثيرة ، منها العصبية أو الرغبة فى تفادى الإحرج أو سوى ذلك .

ولكن النقاد اهتموا بتمييز الصحيح من المنحول ونبهوا على الكثير من المختلق ، وألفوا كتباً كثيرة جمعوا فيها ما صح من الشعر الجاهلى والآثار الأدبية الأخرى .

رواته :

كان لكل شاعر راوية يحفظ شعره وينشده ، ويأخذ من الشاعر فن الشعر ومذهبه فى القريض ، فكان امرؤ القيس : راوية أبى دؤاد الإيادى . وزهير : راوية أوس بن حجر ، والأعشى : راوية المسيب بن علس ، كما كان الحطيئة راوية زهير . .

واشتهر من قريش أربعة بأنهم من رواة الأشعار وعلماء الأنساب وهم : مخرمة بن نوفل ، وأبو الجهم بن حذيفة ، وحويطب بن عبد العزى ، وعقيل بن أبى طالب .

ثم تعدد رواة الشعر من بعدهم وكان من أبرزهم :

---

(١) ٢٩٤ : ٢ المزهر .

١ — أبو عمرو بن العلاء البصرى م سنة ١٥٤ وله روايات ولم يترك مؤلفات[1] .

٢ — حماد الراوية (٧٥ — ١٥٦ هـ) كوفى ، وليس له مؤلفات[2] . ويقول فيه ابن سلام : وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية وكان غير موثوق به ، ويقال إن خالد بن يزيد بن معاوية هو أول من جمع شعر العرب .

٣ — الخليل بن أحمد (بصرى) — (١٠٠ — ١٧٤ هـ) وهو مخترع علم العروض .

٤ — خلف الأحمر (بصرى) توفى سنة ١٨٠ هـ وليس له مؤلفات ، ونقل عن السيوطى أنه ألف كتاب الجبال وما قيل فيها من شعر ، وله ديوان خاص. وقيل إنه صاحب لامية العرب[3] المنسوبة للشنفرى .

٥ — يونس بن حبيب البصرى المتوفى سنة ١٨٢ هـ .

٦ — المفضل الضبى المتوفى ١٨٩ هـ (كوفى) وهو أقدم من جمع المختار من شعر العرب فى كتاب (المفضليات) وأول من فسر الشعر بيتا بيتا ، ويقال إنه أول من جمع أشعار الجاهليين .

٧ — أبو عبيدة (بصرى) المتوفى ٢٠٩ هـ وله مؤلفات فى اللغة ومجاز القرآن ، والنقائض .

---

(١) ٤٢ الفهرست

(٢) الفهرست : ١٣٤ .

(٣) ٤ الصناعتين

٨ — الأصمعي البصري — المتوفى ٢١٦ هـ ، وله مؤلفات في اللغة ، وكتاب الأصمعيات ، طبع أوربا ، وكتاب في الكروم والنخيل .

٩ — محمد بن سلام الجمحي — المتوفى ٢٣١ هـ وله طبقات الشعراء وغريب القرآن (١) .

١٠ — النضر بن شميل المتوفى سنة ٢٠٤ هـ .

١١ — مؤرج السدوسي المتوفى سنة ١٩٥ هـ .

١٢ — ابن الكلبي هشام بن محمد المتوفى سنة ٢٠٤ هـ .

١٣ — الهيثم بن عدي (كوفي) — وله مؤلفات . وتوفي سنة ٢٠٦ هـ .

١٤ — أبو زيد الأنصاري المتوفى ٢١٦ هـ ثقة ، وله مؤلفات .

١٥ — أبو عبيد بن القاسم المتوفى سنة ٢٢٣ هـ .

١٦ — ابن الأعرابي المتوفى سنة ٢٣١ هـ كوفي ثقة وله مؤلفات .

الرواة بين التوثيق والتجريح :

إذا كان من الملاحظ في العصر الجاهلي أن الرواة الموصوفين بهذا الاسم كانوا عادة من الشعراء ، فإنه قد لوحظ في العصر الإسلامي ظهور طائفة من الرواة لم يكونوا ممن يحسنون نظم الشعر ، فهم لا يروونه لغرض تعلمه ، وإنما يروونه لغرض نشره في الناس .

فإذا امتد بنا المسير إلى نهاية العصر الإسلامي ومطلع العصر العباسي وجدنا طبقة من الرواة المحترفين الذين اتخذوا رواية الشعر الجاهلي عملا

---

(١) الفهرست .

أساسيًا لهم ، وهؤلاء الرواة لم يكونوا يقفون عند رواية الشعر القديم مجودة ، بل كانوا يضيفون إليها كثيراً من الأخبار عن الجاهلية وأيامها .

ومع حرص كثير من الرواة على هذا الشعر الجاهلى والحفاظ عليه لأنه سجل حياتهم ومظهر أمجادهم ومفاخرهم . . مع هذا الحرص فقد سقط منه الكثير فى أثناء اجتيازه هذا الطريق الزمنى الطويل . . وفى ذلك يقول ابن سلام : « لما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار ، راجعوا رواية الشعر فلم يؤولوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل من ذلك وذهب عليهم منه كثير »[1] .

ولا نكاد نمضى فى العصر العباسى حتى نجد هؤلاء الرواة قد كونوا مدرستين متقابلتين : هما مدرسة البصرة ، ومدرسة الكوفة ، وعرف الأولون بتشددهم فى الرواية دون الآخرين ، ومن هنا تضخمت الروايات ودخلها موضوع ومنتحل كثير ولعل من الغريب ما ذكر من أن الكوفة عرفت فى الحديث النبوى بالوضع والانتحال ، حتى إن مالك بن أنس كان يسميها (دار الضرب) يريد أنها تضرب الأحاديث وتصنعها كما تضرب الدراهم والدنانير وتصنع ، وفى ذلك يقول أبو الطيب اللغوى : « والشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله ، وذلك بين فى دواوينهم »[2] .

ولقد ندد البصريون بالكوفيين ، وبادلهم الكوفيون نفس التنديد .

(١) طبقات الشعراء لابن سلام .
(٢) ٢٩٤ : ٢ المزهر .

فكان كل منهما يشكك فى الآخر ، فبينما يفتخر البصريون بأنهم لم يأخذوا عن الكوفيين فى هذا الميدان شيئاً وأن الأمر بالعكس ، يدعى الكوفيون أن الأصمعى وأبا عبيدة (وهما من أبرز البصريين الرواة) لا يحسنان قليلا ولا كثيراً[1] .

ومع هذه الاتهامات والادعاءات المتبادلة بين البصريين والكوفيين فإن الواضح أن رواية البصرة فى جملتها أوثق من رواية الكوفة ، وليس معنى ذلك أن رواة الكوفة فى الجملة كانوا متهمين بخلاف رواة البصرة ، فبين الطرفين جميعاً متهمون ، وموثقون أحاطوا روايتهم بسياج من الأمانة والدقة والتحرى . وربما كان السبب الحقيقى فى تقدم البصرة على الكوفة فى الرواية أن رأس رواتها — وهو أبو عمرو بن العلاء — كان أميناً ، بينما اتهم رأس رواة الكوفة — حماد — بكثرة الوضع ، فهو لا يوثق به فيما يرويه[2] .

ولم يترك علماء الرواية الميدان خاليا من جهودهم ، فقد قاموا يميزون بين الأصلى الخالص والدخيل ، وهــذا هو (المفضل الضبى) يدلى بدلوه فى مجال الرواية ، ويروى ابن الأعرابى الكوفى عن المفضل أنه قال : « قد سلط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يصلح أبداً ، فقيل له : وكيف ذلك ؟ أيخطىء فى روايته أم يلحن ؟ فقال : ليته كان كذلك ، فإن أهل العلم يردون من أخطأ إلى الصواب ، لا ، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله

(١) راجع مصادر الشعر الجاهلى د. ناصر الدين الأسد ٤٢٩ — ٤٣٨ ط دار المعارف بمصر ١٩٥٦ م .
(٢) راجع العصر الجاهلى ص ١٥٢ .

فى شعره ، ويحمل عنه ذلك فى الآفاق فتختلط أشعار القدماء ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد وأين ذلك ؟ »[١] .

وإذا كان المفضل قد تصدى لأمثال حماد الرواية الكوفى ، فإن الأصمعى قد تصدى كذلك لأمثال خلف الأحمر البصرى وسدد إليه سهام الاتهام ، وأنه « وضع على شعراء عبد القيس شعراً موضوعا كثيراً وعلى غيرهم عبثاً بهم فأخذ ذلك عنه أهل البصرة وأهل الكوفة[٢] وبهذا يبرز دور العلماء مع الرواة بين التوثيق والتجريح ...

تدوين الشعر الجاهلى :

ثبت أن العرب لم يدونوا شعرهم فى الجاهلية وإنما كانوا ينشدونه إنشاداً ، اعتماداً منهم على سرعة البديهة وقوة الذاكرة ، وفى ذلك يقول الجاحظ : « وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ، فما هو إلا أن يصرف (العربى) وهمه إلى جملة المذهب ، وإلى العمود الذى إليه يقصد ؛ فتأتيه المعانى أرسالا (أفواجاً) ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا ، ثم لا يقيده على نفسه»[٣] .

وظل هذا شأن العرب فى صدر الإسلام ، حتى مصرت الأمصار وراجعت العرب الأشعار ، وأخذت فكرة التدوين تسلك طريقها فى تسجيل غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم وأحاديثه ، وتقييد بعض الأخبار التاريخية ، وقد يكون فى تدوين الحديث ما يرشد عن تدوين الشعر فلقد كان كثير من الصحابة والتابعين ينكرون فكرة التدوين ، ومن هنا يمكن القول بأن

---

(١) الأغانى ٨٩٦ ومعجم الأدباء ١٠ : ٢٦٥ ، العصر الجاهلى ص ١٥٢ .
(٢) مراتب النحويين ص ٤٧ .
(٣) البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٨ ، العصر الجاهلى ص ١٥٨ .

التدوين لم يكن عاما إلا على رأس المائة ، وأن اهتمام القبائل بشعرهم الجاهلى وشعرائها الذين يعدون مناط شرفها وفخرها لما يسجلون من مناقبها وأمجادها ومثالب خصومها ، كل ذلك كان من أهم الدواعى لتدوين هذا الشعر ولكنه لم يدون إلا فى حقبة متأخرة من عصر بنى أمية[1] ثم بلغ ذورته فى عصر بنى العباس .

أهم المجموعات التى دوّن فيها الشعر الجاهلى :

كانت المدونات الشعرية الأولى قد وصلت إلى علماء الطبقة الأولى من الرواة ، فاعتمدوها مصدرا من مصادر تدوينهم ثم تناولت هذه المدونات منتخبات عامة ودواوين مقودة للشعراء وأخرى للقبائل .

ومن أوائل هذه المجموعات التى تعد من أهم مصادر الشعر الجاهلى : **المعلقات** ؛ ويقال إن أول من رواها مجموعة فى ديوان خاص بها : حماد الراوية ؛ وقد عنى الشراح بهذه المجموعة فشرحوها مراراً ، وطبع من شروحهم شرح الزوزنى المتوفى سنة ٤٨٦ھ ثم شرح التبريزى المتوفى سنة ٥٠٢ ھ . وغيرهما من الشراح وكان حماد الراوية قد اختار لهذا الديوان سبع قصائد من عيون الشعر وسماها بالسموط أو المعلقات دلالة على نفاستها ونقاء جوهرها ، وهذه القصائد هى معلقات امرئ القيس وزهير وطرفة ولبيد وعمرو بن كلثوم ؛ وهذه هى القصائد المتفق على أنها من المعلقات ؛ والسادسة والسابعة : قصيدتا عنترة والحارث بن حلزة ، وقد وضع المفضل مكانهما قصيدة النابغة التى مطلعها :

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نؤى وأحجار

(١) راجع العصر الجاهلى ١٥٩ .

وقصيدة الأعشى التى أولها :

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالى وما ترد سؤالى

وشعراء هذه المعلقات هم أشعر شعراء الجاهلية ما عدا الحارث بن حلزة ويقال إن السبب فى ضم قصيدته إلى هذه المجموعة عصبية حماد لقبيلته بكر بن وائل ؛ وكانت هذه القبيلة فى عداء دائم مع قبيلة تغلب ؛ وقد شهرت قصيدة عمرو بن كلثوم شهرة واسعة لتمجيدها قبيلة تغلب ؛ ولا نتشار هذه القصيدة بين الناس وفى المجتمعات والأندية لم يسع حماداً أن يعدل عن اختيارها ؛ ومن هنا وجد نفسه مضطرا لاختيار قصيدة أخرى إلى جانبها تشيد بمجد سادته وهم قبيلة بكر بن وائل ؛ وهكذا اختار قصيدة سليل هذه القبيلة وشاعرها وهو الحارث بن حلزة القليل الشهرة فيما عدا ذلك[1] .

وهناك من يجعل هذه المختارات تسعا ؛ بإضافة القصيدتين اللتين اختارهما المفضل إلى السبع التى اختارها حماد ؛ وهناك من يجعلها عشرا بإضافة قصيدة عبيد بن الأبرص التى أولها :

أقفر من أهله ملحوب فالقطبيات فالذنوب

والمجموعة الثانية من هذه المنتخبات هى المفضليات ؛ نسبة إلى جامعها : المفضل الضبى . راوى الكوفة الثقة ؛ وهى موزعة على سبعة وستين شاعراً منهم سبعة وأربعون جاهليا وعلى رأسهم : المرقشان الأكبر والأصغر ؛ وعلقمة ابن عبدة ؛ والشنفرى ؛ وتأبط شرا ؛ والحارث بن حلزة ؛ وبشر بن أبى خازم وغيرهم .

---

(١) تاريخ الأدب العربى . كارل بروكلمان جـ ١ ص ٦٨ ، الأدب العربى بين الجاهلية والاسلام للدكتور عبد الحميد المسلوت ص ٢٠١ .

والمجموعة الثالثة : الأصمعيات ، نسبة إلى الأصمعي راويها ، وقد نشرها (الوارد) عن نسخة سقيمة في برلين سنة ١٩٠٢ م وأعاد نشرها عبد السلام هارون وأحمد شاكر عن نسخة للشنقيطي نقلها عن أصل قديم ، وهي نشرة علمية جيدة ، وقد بلغ عدد قصائدها ومقطوعاتها اثنتين وتسعين ، موزعة على واحد وسبعين شاعراً ، منهم نحو أربعين جاهليا على رأسهم امرؤ القيس .

وهذه المجموعة كسابقتها (المفضليات) في الثقة بها وفي درجتها ، غير أنها لم تحظ بتعلق الشراح بها كالمفضليات ، لأنها كانت أقل اشتمالا على الغريب ، لأن الأصمعي عمد فيها إلى اختصار الرواية .

والمجموعة الرابعة : جمهرة أشعار العرب لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ، ولا يوجد اسمه بين الرواة المشهورين ، وهذه الجمهرة تضم تسعا وأربعين قصيدة طويلة ، موزعة على سبعة أقسام ، في كل قسم منها سبع قصائد . والقسم الأول منها خاص بالمعلقات .

وإذا تركنا هذه المختارات إلى الدواوين المفردة ، وجدنا منها دواوين الشعراء الستة الجاهليين : امرىء القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة ، وقد نشرها (الوارد) إلا أنه لم يكتف برواية الأصمعي التي احتفظ بها في شرح (الشنتمري) بل أضاف إليها زيادات هي في الأكثر منحولات .

ومن الكتب الجيدة التي تشتمل على شعر جاهلي كثير .. شرح النقائض لأبي عبيدة ، فقد أنشد فيه كثيراً من الشعر الذي قيل في أيام العرب ، وهذا

---

(١) العصر الجاهلي د . شوقي ضيف ص ١٧٦ ، الأدب العربي د. عبد الحميد المسلوت ص ٢٠٢

حذوه من كتبوا فى أيام العرب مثل ابن الأثير فى كامله ، وابن عبد ربه فى عقده .

ومن الكتب الجيدة كذلك : طبقات الشعراء لابن سلام ، وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة .

وهناك كتب ألفت فى البصرة مثل : البيان والتبيين للجاحظ ، والكامل للمبرد والأمالى لأبى على القالى والأخير فيه انتحال كثير .

ومن المختصرات التى تفيد فى المراجعة : كتاب المؤتلف والمختلف للامدى ، ومعجم الشعراء للمرزبانى ، وكذا كتابه الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء .

وهناك أشعار جاهلية كثيرة فى كتب النقد مثل نقد الشعر لقدامة ، والصناعتين للعسكرى ، والوساطة بين المتنبى وخصومه للجرجانى ، والعمدة لابن رشيق ، والأغانى لأبى الفرج الأصبهانى المتوفى سنة ٣٥٦ هـ ويعد من أهم هذه المراجع .

ومن الكتب المتأخرة التى احتفظت ببعض ما فقد من الروايات القديمة خزانة الأدب للبغدادى المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ وهو شرح على شواهد الرضى شارح كتاب الكافية لابن الحاجب وفيه تراجم دقيقة لبعض الجاهليين وملاحظات على بعض أشعارهم من حيث الانتحال والصحة ، ومثل هذا الاتجاه فى شرح السيوطى على شواهد المغنى لابن هشام[1] .

---

(١) يراجع فى هذا البحث : مصادر الشعر الجاهلى د. ناصر الدين الاسد ص ٥٧٣ وما بعدها ، العصر الجاهلى د. شوقى ضيف ص ١٨٢ ، تاريخ الادب العربى ، كارل بروكلمان جا ص ٦٧ — ٨٦ .

المعلقات عمل فنى عظيم فى العصر الجاهلى

— ١ —

عرف المستشرقون المعلقات ، وعنوا بها عناية كبيرة ، تجلت فى ترجمة نولدكه لمعلقة النابغة وزهير والأعشى ولبيد وعمرو بن كلثوم إلى الالمانية ، وأرفق بها شرحا جليلا ، كما ترجمها إلى الانجليزية شعرا مع شيء من التصرف مستر ولفرد بلنت ، ولادى آن بلنت ومن أشهر طبعات المعلقات طبعة ليبسيك بعناية العلامة أرنولد عام ١٨٥٠ . وطبعها سير شارلز ليل عام ١٨٩٤ بكلكتا .

وقد لاقت المعلقات عناية ضخمة من النقاد والدارسين والباحثين الأوروبيين وغير الأوروبيين على مختلف العصور ، واهتمام العلماء والرواة والأدباء والنقاد بها خير دليل على ما لها من مكانة فى الأدب العربى القديم والحديث على السواء .

- ٢ -

وللمعلقات منزلة عظيمة فى الشعر الجاهلى ، فهى أعلا قصائده طبقة فى البلاغة ، وبعد الأثر ، وجلال التأثير والسحر . وهى لشعراء ممتازين فى منزلتهم فى هذه الجزيرة المقفرة البدوية ، وهى الناطقة بمجد العرب ومحامدهم وأخبارهم ، وشاهد صدق على أخلاقهم وطباعهم وعاداتهم وتقاليدهم ولون تفكيرهم .. وتمتاز بطولها وتهذيبها وروعتها وجمال معانيها وسحر أساليبها وجزالتها وشدة أسرها ، فوق متنوع فنونها وأغراضها وما فيها من تشبيه ساحر ، واستعارة نادرة وكناية طريفة ، وهى مع ذلك ثروة لغوية كبيرة لا غنى عنها للباحثين والدارسين . وقد شرحها كثيرون منهم أبو جعفر النحاس المصرى المتوفى

عام ٣٣٨ هـ ، والزوزنى المتوفى عام ٤٨٦ هـ ، ومحمد بدر الدين أبو فراس النعسانى الحلبى المتوفى فى القرن الرابع عشر الهجرى وسواهم .

— ٣ —

والمعلقات هى سبع قصائد : لامرئ القيس ، والنابغة ، وزهير ، وطرفة ، ولبيد ، وعمرو بن كلثوم ، والأعشى . وقيل هى ثمانى قصائد ، بإضافة عنترة ومعلقته الميمية « هل غادر الشعراء من متردم » ، وقيل إنها تسع قصائد بإضافة الحارث بن حلزة . ويجعلها النعسانى الحلبى شارح المعلقات عشرا بإضافة قصيدة عبيد بن الأبرص اللامية إليها ، ومطلعها :

ليس رسم على الدفين ببالى

فلوى ذروة فجنبى ذيال

— ٤ —

والمعلقات كان المفضل الضبى المتوفى عام ١٨٩ هـ — كما ورد فى كتاب جمهرة أشعار العرب — يسميها السموط ، وسماها أبو زيد القرشى الأنصارى صاحب الجمهرة المتوفى عام ٢١٦ هـ المعلقات ، وجعلها ثمانى قصائد بإضافة قصيدة عنترة الميمية ، والذى عليه أكثر الرواة أن حمادا الراوية المتوفى عام ١٥٦ هـ ، هو أول من سماها بالمعلقات ، فلما رأى زهد الناس فى الشعر ، جمع لهم هذه القصائد السبع ، وسماها معلقات ومشهورات ، فسميت القصائد المشهورة .

ويقول الزوزنى : إنما سميت بالمعلقات لأن العرب فى الجاهلية كان الرجل منهم يقول الشعر فى أقصى الأرض فلا يعبأ به ، ولا ينشده أحد ، حتى يأتى

مكة ، فيعرضه على أندية قريش فإن استحسنوه روى وكان فخرا لقائله ، وإن لم يستحسنوه طرح ولم يعبأ به .

ويقول ابن الكلبي المتوفى عام ٢٠٤ هـ ، أن أول شعر علق على ركن من أركان الكعبة أيام الموسم كان لامرىء القيس ، وعدد من علق شعرهم سبعة . ويؤيد ذلك ابن عبد ربه فيقول فى كتابه « العقد الفريد » ، وقد بلغ من كلف العرب وتفضيلها الشعر أن عمدت إلى سبع قصائد من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب فى القباطي المدرجة وعلقتها فى أستار الكعبة . ويذكر السيوطى فى كتابه « المزهر » هذا الرأى ورأيا آخر هو أنها سميت المعلقات لأن الملك كان إذا استجيدت قصيدة يقول : علقوا لنا هذه ، لتكون فى خزانته . ويذكر الشيخ الإسكندرى المتوفى عام ١٩٣٦ م تفسيرا آخر لتسميتها بالمعلقات ، هو أنها كانت تعلق فى الخيام حيث يقيمون .

ويقول الألوسى فى كتابه بلوغ الأرب : إن هذه القصائد علقت فى سوق عكاظ ، ومن أجل ذلك سميت بالمعلقات .

وهناك ناقد آخر هو أبو جعفر النحاس ، وكان معاصرا لابن عبد ربه ، كان ينكر تعليق هذه القصائد على الكعبة ، ويقول : إنه لا يعرفه أحد من الرواة مستندا فى ذلك إلى أن حمادا حين جمعها قال هذه هي المشهورات فسميت القصائد المشهورة ، ولو كانت علقت على الكعبة لاعطاها هذا الاسم . وقد سبق أن نقلنا رواية أخرى هى أن حمادا أطلق عليها الاسمين معاً .

إن قصة التعليق مشكوك فيها ومختلف عليها ، والذين ينكرون هذا التعليق يتلمسون لهذه التسمية سببا غيره ، فمنهم من يقول إن هذه الأشعار حينما كانت تنشد بعكاظ وتستحسن كان يبلغ ذلك ملك الحيرة الذى كان

بيادر فيأمر بتعليقها له فى خزائنه ، ولعل المراد بملك الحيرة هو النعمان بن المنذر الذى كان عنده ديوان مكتوب جمع فيه أشعار الفحول .

وممن أنكر قصة تعليق هذه القصائد المستشرق الالمانى (نولدكه) الذى رجح أن معنى المعلقات المنتخبات ، وأنها سميت المعلقات تشبيها لها بالقلائد التى تعلق فى الصدور واستدل على ذلك بأن من أسمائها السموط والقلائد ، ويقول كما جاء فى دائرة المعارف البريطانية إن قصة القول بأن هذه القصائد كتبت بالذهب ترجع إلى تسميتها بالقصائد المذهبات ، وهى تسمية مجازية للدلالة على عظم أمرها ، وهناك اشتقاق آخر من المادة نفسها وهو كلمة علق بمعنى الشيء النفيس .

ويؤيد كليمان هيوار الفرنسى رأى نولدكه ذاهبا إلى أن المعلقات جمع معلقة بمعنى القلادة ، وكذلك ذهب إسكندر آغا ابيكاريوس فى كتابه تزيين الأدب فى أنباء العرب .

ويرجح نيكلسون المستشرق الإنجليزى أن كلمة المعلقات من قولهم علق وهو الشيء الثمين النفيس .

ومهما كان من خلاف حول سر تسمية هذه القصائد المشهورة بالمعلقات ، فإنها تعد من أعظم الأعمال الفنية القديمة ، وقد استمرت نموذجا يحاكيه الشعراء العرب على اختلاف العصور الأدبية ، وينظر إليها الأدباء والمتأدبون على أنها حازت [illegible] كبيرا فى الشهرة ، لأنها بلغت الذروة [illegible] امتازت به من طول القافية ، وتنوع الأغراض ، وكثرة [illegible] المعانى والتشبيهات ، فضلا عن أساليبها من القوة والمتانة والجزالة وحسن السبك والبلاغة

ومعلقة امرىء القيس المشهورة « قفا نبك » يضرب ببلاغتها المثل ، وهى أروع المعلقات وأسيرها ذكرا ، وأكثرها شهرة .

وإننا نقول إن هذه القصائد السبع أو الثمانى أو التسع أو العشر ، هى من أعظم الأعمال الفنية فى العصر الجاهلى ، ولا تزال حتى اليوم محتفظة بجدتها وروعتها وبلاغتها ودليل صادق على حياة العرب الاجتماعية والعقلية فى العصر الجاهلى .

نظرية الانتحال فى الشعر الجاهلى

— ١ —

كتاب فى الشعر الجاهلى للدكتور طه :

فى عام ١٣٤٤ هـ / ١٩٢٦ م كان الدكتور طه حسين — رحمه الله — عضواً فى هيئة التدريس فى كلية الآداب بالجامعة المصرية — جامعة فؤاد الأول — ثم جامعة القاهرة فيما بعد — وكان يقوم بتدريس مادة « تاريخ الأدب العربى » .

وفى العام نفسه أصدر كتابه المشهور « فى الشعر الجاهلى » ، الذى طبع فى مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة فى ١٨٣ صفحة .

وأثار الكتب ضجة أدبية وسياسية كبيرة كان لها أثرها الضخم فى الحياة الأدبية والفكرية ؛ ومن غير شك كان الكتاب أساساً للدراسات الأدبية الحديثة . بل إننا نعده بدء مرحلة جديدة فى دراسة الأدب العربى . ولقد عزز المنهج الحديث الاستشراقى فى دراسة الأدب ونقده ، وفتح الباب على مصراعيه لتأثر كبير فى مجال الدراسات الأدبية بالمناهج الجديدة ؛ وقد صدر فى نقده كتب كثيرة ، كان فى مقدمتها :

١ — النقد التحليلى لكتاب الشعر الجاهلى للأستاذ محمد أحمد الغمراوى .

٢ — الشهاب الراصد للأستاذ محمد لطفى جمعة — صدر عام ١٩٢٦ .

٣ — نقض كتاب « فى الشعر الجاهلى » للشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر فيما بعد — وقد صدر عام ١٣٤٥ عن المطبعة السلفية فى القاهرة .

٤ — محاضرات فى بيان الأخطاء التى اشتمل عليها كتاب « فى الشعر الجاهلى » للشيخ محمد الخضرى — نشرت فى مجلة القضاء الشرعى .

٥ — نقد كتاب « الشعر الجاهلى » لمحمد فريد وجدى — طبع بمطبعة دائرة معارف القرن العشرين بمصر — فى أكتوبر ١٩٢٦ .

٦ — نقض مطاعن فى القرآن الكريم للشيخ محمد عرفة .

٧ — الشعر الجاهلى والرد عليه لمحمد حسين .

٨ — مع زعيم الأدب العربى فى القرن العشرين ، للشيخ عبد المتعال الصعيدى .

٩ — نظرية الانتحال فى الشعر الجاهلى — للدكتور عبد الحميد المسلوت .

وعرض لنظرية الدكتور طه حسين فى انتحال الشعر الجاهلى كثيرون من دارسى الأدب الجاهلى — وفى مقدمتهم الدكاترة : محمد عبد المنعم خفاجى فى كتابه « الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى »[1] ، ناصر الدين الأسد فى كتابه « مصادر الشعر الجاهلى » ، وشوقى ضيف فى كتابه « تاريخ الأدب العربى — العصر الجاهلى » — كما عرض لها كتاب كثيرون نشروا بحوثهم فى مختلف الصحف والمجلات المصرية والعربية .

ولا شك أن هذه الموجة الضخمة من الكتب التى صدرت فى دراسة الكتاب والتعليق عليه ونقده ، كانت اعترافا بأهمية الكتاب وأثره ومدى ما أثاره من قضايا أدبية تاريخية .

وقد صودر كتاب « فى الشعر الجاهلى » وطبع من جديد بعنوان « الأدب

---

(١) ص ٣٨٩ — ٤٠٤ الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى — طبعة ١٩٤٨ .

الجاهلى » بعد حذف فقرات منه كانت هى السبب الجوهرى فى مصادرته : وهذه الفقرات كانت عن قصة إبراهيم وإسماعيل ، حيث ذهب الدكتور طه إلى أنها « قصة متكلفة ومصنوعة فى عصور متأخرة دعت إليها حاجة دينية أو اقتصادية أو سياسية ورأى أن ورودها فى الكتب الدينية لا يكفى لإثبات صحتها التاريخية »[١] . وكانت هذه الفقرات بمثابة التحدى ، بل كانت مجازفة جريئة فى ميدان البحث العلمى أيضاً . وقد سبق أن جهر بعض المستشرقين بهذا الرأى من قبل ، وذلك من مثل « القس زويمر » الذى ترجم إلى العربية كتاب « مقالة فى الإسلام » لمؤلفه جرجيس سال الإنكليزى ، وألحق به ذيلا ردد فيه (فى ص ١٠ — ٢٥) القول بأن قصة إسماعيل وسكناه مكة دسيسة لفقها قدماء اليهود للعرب ، تزلفا إليهم ، وتذرعاً بهم إلى دفع الروم عن بيت المقدس أو إلى تأسيس مملكة لهم فى بلاد العرب . ولما ظهر الرسول محمد رأى المصلحة فى إقرارها فأقرها[٢] . هكذا قال زويمر وهو مبشر معروف فى الأوساط التبشيرية .

إن كتاب الأدب الجاهلى يمثل كل آراء ونظرية الدكتور طه فى الشعر الجاهلى ، ويحتوى على نظرية الانتحال التى ذهب إليها ؛ وعرضها بتفصيل ، مبينا أدلتها ونتائجها التطبيقية ، حيث أفاض الدكتور فى شرح ذلك كله إفاضة واسعة .

---

(١) ٢٥ — ٢٩ فى الشعر الجاهلى .
(٢) النص عن كتاب مع زعيم الأدب العربى ص ٢٥ — ٤٨ .

— ٢ —

شرح الدكتور طه لنظريته فى الانتحال :

يرى الدكتور طه حسين أن الكثرة المطلقة مما يسمى أدباً جاهلياً ليست من الجاهلية فى شىء إنما هى منتحلة بعد ظهور الإسلام ، فهى تمثل حياة المسلمين أكثر مما تمثل حياة الجاهلية ؛ وما بقى من الأدب الجاهلى الصحيح قليل جدا ، لا يمثل شيئاً ، ولا يدل على شىء . والعصر الجاهلى القريب من الإسلام إنما يمثله القرآن ، وتمثله الأساطير ؛ وعلى هذا فلا يصح الاستشهاد بهذا الشعر المنحول فى تفسير القرآن ، بل يجب العكس[١] . والشعر الذى يضاف إلى الجاهليين يمثل حياة غامضة جافة بعيدة عن الدين ، والقرآن يمثل لنا حياة دينية وعقلية قوية ، مما كان عليه المستنيرون من العرب ؛ ويمثل لنا القرآن الكريم أيضاً اتصال العرب بغيرهم من الأمم المجاورة كما يصور حياة العرب الاقتصادية ، من حيث يخلو الشعر الجاهلى من ذلك كله[٣] . والأدب الجاهلى أيضاً لا يمثل اللغة الجاهلية لاختلاف اللغة الحميرية عن اللغة العدنانية جد الاختلاف ، والمأثور من شعر الشعراء القحطانيين مروى باللغة العدنانية ، مع أنهم لم يكونوا يتكلمون بها ، ولم يتخذوها لغة أدبية لهم قبل الإسلام ، كما حدث بعد الأسلام ، مما يدل على انتحال هذا الشعر وسواه من فنون الأدب على هؤلاء القحطانيين[٤] . كما أن اختلاف اللهجات العدنانية أمر ثابت لا شك فيه ، ولا نجد أثرا لهذا الاختلاف فى الشعر الجاهلى المأثور ، مما يدل

(١) ٦٤ و ٦٥ و ٧٠ الأدب الجاهلى .
(٢) ٦٦ المرجع نفسه .
(٣) ٧٠ — ٨١ الأدب الجاهلى .
(٤) ٨١ — ٩٥ المرجع نفسه .

على انتحال هذا الشعر ؛ وأنه قد حمل حملا على هذه القبائل بعد الإسلام[1] .

ثم يجمل الدكتور طه حسين في كتابه أسباب انتحال الشعر الجاهلي ، فيذكر البواعث الدينية والسياسية ، وأثر القصاص والشعوبية والرواة في هذا الانتحال[2] . ثم يستعرض الشعراء ، مؤكدا ما ذهب إليه من أن أكثر ما يضاف إلى هؤلاء الشعرا الجاهليين منحول ، رافضا الشعر المنسوب إلى شعراء من اليمن ، لأن لليمن لغة تخالف لغة قريش ، ويقول : إن هجرة اليمنيين إلى الشمال مشكوك فيها أولا ، وليس كل الشعراء هاجروا من اليمن ثانيا ، فالشعر الذى يضاف إلى « جرهم » وسواهم من الذين عاصروا إسماعيل منحول ، وليس لليمن في الجاهلية شعرا . أما ربيعة وهى من عدنان ، وتسكن في الشمال ، فشعرها دون شعر المضريين ، وأما مضر فكان لها شعراء يتخذون الشعر فنا ؛ فالشعر أصل في مضر دون اليمن أو ربيعة ، فنظرية تنقل الشعر في القبائل غير صحيحة ، فالشعر إنما كان في مضر ، ثم انتقل إلى أقرب القبائل العربية إليها ، وهم ربيعة ، ثم إلى القبائل البعيدة كاليمن ، ثم إلى الموالى وليس كما يقول علماء العربية من أن الشعر كان في اليمن ، ثم انتقل إلى ربيعة ، ثم إلى قيس من مضر ، ثم إلى تميم ، وشعراء المدينة ليسوا يمنيين ، بل هم مضريون[3] .

إن جملة آراء الدكتور طه حسين ترتكز على أساس واحد ، هو انتحال الشعر الجاهلي ، وتأكيد هذا الانتحال بأدلة كثيرة ، أهمها :

١ — أن هذا الشعر المنسوب إلى الجاهليين لا يمثل الحياة الجاهلية .

٢ — وأنه لا يمثل اللغة نفسها .

---

(١) ٩٦ وما بعدها المرجع نفسه .
(٢) ١٢٢ — ١٨٦ الأدب الجاهلي .
(٣) راجع ١٩٢ — ٢٠٨ الأدب الجاهلي للدكتور طه .

٣ ــ كما أنه لا يمثل اللهجات العربية .

هذه هى نظرية الدكتور طه فى انتحال الشعر الجاهلى كاملة ؛ وهى نظرية كان لها دويها الشديد ، وكان لها كذلك طابع الثورة العقلية ، التى استمد أصولها الدكتور من دراسته فى فرنسا ، وعلى أيدى الكثير من المستشرقين ، وقد اعتمدت على ما تعتمد عليه مثل هذه الثورة من أدلة خطابية كثيرة لا تستند إلى أساس علمى صحيح .

- ٣ -

نظريه الانتحال قبل الدكتور طه :

وبلا ريب فإن لهذه النظرية مقدمات طويلة كانت هى مصادر الدكتور طه فيما ذهب إليه حولها :

١ ــ فالمفضل الضبى (ـ١٨٩ هـ) كما يروى أبو الفرج فى كتاب الأغانى يذكر عن حماد أنه « رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه مذهب رجل ، ويدخله فى شعره ، ويحمل ذلك عنه فى الآفاق ، فتختلط أشعار القدماء ، ولا يتميز الصحيح منها إلا عند عالم ناقد ، وأين ذلك »[١] .

ويروى أبو الفرج أن حمادا (ـ١٥٥ هـ) اعترف فى مجلس الخليفة المهدى العباسى بأنه زاد فى شعر زهير ، وأن خلفا الأحمر (١٨١ هـ) وغيره اخترعوا من الشعر ما لم يكن موجودا فى الجاهلية وكذبوا على الشعراء[٢] .

---

(١) الأغانى لأبى الفرج ١٧٢/٥ ـ طبعة الساسى .
(٢) المرجع السابق أيضا ـ وقد سبق الى ذكر ذلك محمد لطفى جمعة فى =

٢ — ويعد محمد بن سلام الجمحى البصرى (- ٢٣١ هـ) من قدامى الذين عرضوا للشعر الجاهلى وانتحاله فى كتابه « طبقات الشعراء » ، فقال[1] : « وفى الشعر المسموع مفتعل موضوع كثير ، لا خير فيه ، ولا حجة فى عربيته ، ولا أدب يستفاد ، ولا معنى يستخرج ، ومثل يضرب ، ولا مديح رائع ، ولا هجاء مقذع ، ولا فخر معجب ، ولا نسيب مستطرف . وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب ، لم يأخذوا، عن أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء » .
ويذكر ابن سلام أن ما حمل على طرفة وعبيد بن الأبرص من الشعر كثير[2].
ويرجع سبب الانتحال إلى : غفلة العلماء أو جهلهم بوضع الشعر وانتحاله ، أو اختلاط الأمر على بعض الرواة ، أو محاولة بعض القبائل إلى التزيد من الشعر الذى قيل فى مآثرهم ، أو كذب الرواة وتلفيقهم رغبة فى الجوائز ؛ على أن أبا عبيدة (-٢٠٨هـ) ، والمفضل (-١٨٩هـ) ، والأصمعى (-٢١٦هـ) كانوا من ذوى العناية والتدقيق والضبط ، وكان حماد (-١٥٥هـ) من موالى بكر ، ولم يمنعه ذلك من رواية معلقة عمرو بن كلثوم فى مفاخر قبيلة تغلب ، وكما نعلم فإن تغلب وبكرا كانا فى الجاهلية من أشد الأعداء بعضهما لبعض .

يثبت محمد بن سلام إذاً الانتحال، ويرجعه إلى أسباب معقولة ، ولا يسرف

« الشهاب الراصد ص ٢٥ و ٢٦ — ويذكر ذلك د . المسلوت فى كتابه « نظرية الانتحال فى الشعر الجاهلى » أيضا ص ٧١ و ١٩٣ و ١٩٤ وينفى رواية أن حمادا جلس فى مجلس الخليفة المهدى ، لأن هذا الخليفة لم يجلس على عرش الخلافة الا عام ١٥٨ هـ ، بينما توفى حماد عام ١٥٥ هـ فى رواية ابن خلكان ، أو عام ١٥٦هـ فى رواية ابن النديم فى « الفهرست » . وقد ذكر ذلك نقلا عن الخضر حسين فى كتابه « نقض كتاب فى الشهر الجاهلى » ص ٣٧١ .

(١) ص ٦ من مقدمة كتاب « طبقات الشعراء » بتحقيق الأستاذ محمود شاكر

(٢) ص ٢٢ المرجع نفسه .

فى أمر هذا الانتحال ، فيجعله فى مواضع خاصة لا يتعداها ، ومناسبات معينة لا يتجاوزها .

٣ — وابن هشام (٢١٨ هـ) صاحب السيرة يذكر الكثير من المنحول على حسان وغيره من شعراء الرسول والسيرة .

٤ — وكذلك يذكر أبو الفرج الأصفهانى فى كتابه « الأغانى » الكثير من المنحول على الشعراء القدماء والمحدثين .

٥ — وعرض مصطفى صادق الرافعى فى كتابه « تاريخ آداب العرب » المطبوع عام ١٩١١ للانتحال فى الشعر الجاهلى وأسبابه عرضاً تفصيلياً[1] .

٦ — وكذلك عرض الدكتور أحمد ضيف فى كتابه « مقدمة لدراسة بلاغة العرب » لأصول نظرية الانتحال فى الشعر الجاهلى وأسبابه ، مستدلا بكلام ابن سلام ، وسائرا فى ضوئه[2] .

٧ — وممن أثار البحث فيها من المستشرقين : « نولدكه » ، « بسّيه » عميد كلية الآدب بجامعة الجزائر سابقا ، فى رسالة له عنوانها « الشعر العربى الجاهلى » طبع بباريس عام ١٨٨٠ ؛ وكذلك « نيكلسون » فى كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية »[3] .

٨ — وذهب « مرجليوث » إلى أن الشعر الجاهلى منحول كله بعد الإسلام ، وأضيف إلى أسماء جاهلية[4] ، ويقول : إن فى لغة القرآن مشابه

---

(١) ٣٦٥ — ٣٨٥ تاريخ آداب العرب للرافعى .

(٢) ٥٠ — ٦٢ مقدمة لدراسة بلاغة العرب لضيف — ط ١٩٢١ بالقاهرة .

(٣) ص ١١٣ و ١٢٨ و ١٣١ — ١٣٥ طبعة عام ١٩١٤ .

(٤) مادة محمد من دائرة معارف الأديان والعقائد .

كثيرة من لغة الشعر الجاهلي[١]، كما يرى أن الشعر الجاهلي في معظمه مصنوع، وضع على مثال القرآن[٢] . وقد أكد ذلك في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية عام ١٩١٦[٣] . وقد تصدى للرد عليه السير « تشارلس جيمس ليال » في مقدمة ترجمة « المفضليات للامام المفضل الضبي ـــ ١٨٩ هـ » المطبوعة عام ١٩١٨ ، ثم عاد مرجليوث وكتب في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية عام ١٩٢٥ مقالا ذكر فيه أدلته على انتحال الشعر الجاهلي[٤] .

هذه هي جملة الآراء التي قيلت عن انتحال الشعر الجاهلي قبل أن يصدر الدكتور طه حسين كتابه « في الشعر الجاهلي » ، ويتبنى هذه النظرية ويفصلها، ويتوسع في ذكر أدلتها في كتابه « الأدب الجاهلي » .

— ٤ —

أهم أدلة الدكتور طه على نظريته :

أولا : لا يمثل الشعر الجاهلي حياة الجاهليين الدينية ، ولا العقلية ، ولا يصور لنا ما كان بينهم وبين غيرهم من الأمم المجاورة لهم من صولات سياسية ولا يصور لنا حياة العرب الاقتصادية[٥] .

وقد يكون رأى نولدكه المستشرق المعروف مناقضا كل المناقضة لرأى

---

(١) كتاب محمد وظهور الاسلام لمرجليوث ، المطبوع عام ١٩٠٥ .
(٢) راجع ص ٣٥٢ مصادر الشعر الجاهلي .
(٣) ص ٣٩٧ — راجع ص ١٧ من كتاب نقض كتاب في الشعر الجاهلي للشيخ الخضر حسين .
(٤) ٣٥٢ مصادر الشعر الجاهلي ، ١٧ نقض كتاب « في الشعر الجاهلي » للخضر حسين ، ٧٥ نظرية الانتحال في الشعر الجاهلي للمملوت .
(٥) ٧٠ — ٨١ الأدب الجاهلي لطه حسين .

الدكتور طه ، حيث ذهب إلى السبع الطوال أو المعلقات خالية بالتأكيد من التزييف أو التزوير فلا يشك فى صحتها .

ويؤكد رينان صحة الشعر الجاهلى وثبوت صدقه بلا قيد ولا حصر ، فإن المعلقات وديوان الحماسة وكتاب الأغانى وديوان الهذليين قد قبلها العلماء ، وسلموا بأنها سابقة فى معناها ومبناها لمبعث محمد ، أى أن العلماء أقروا صحتها شكلا وموضوعاً ، وأقروا انحدارها إلينا من العهد المتقدم على الإسلام ، أما فيما يتعلق بالمعانى فلايجوز الشك فيها لأن هذه الأشعار تمثل لنا الحياة الجاهلية ، كما تمثلها مرآة كاملة ، وهذه القصائد تتعلق بشخصيات وحوادث حقيقية . ولا يوجد ما يبيح لنا أن نفترض — كما افترض شولتنز — أن المسلمين قد أبادوا الأدب الجاهلى بسبب عداوتهم للوثنية ، فإن افتراضا كهذا يتنافر مع النتيجة الثابتة ، التى تدل على أن الكتابة لم يشع استعمالها عند العرب إلا قبل محمد بقرن واحد تقريبا ؛ ويجب علينا أن نمنح درجة أعلى من التصديق والصحة المقطوعات الشعرية الصغيرة المثبتة فى كتب التاريخ والشعر الجاهلى ، فإن هذا هو فى الحق أقدم أنواع الشعر العربى . . ثم يقول رينان أيضا : وفى الحق نعتقد أن العرب لم يغيروا فى الشعر الجاهلى شيئا عن قصد ، وأن الاختلافات التى وجدت هى من النوع الذى لا يمكن اتقاؤه فى حالة تداول النصوص بين أفواه الحافظين لها ، دون معونة التقييد بالكتابة[٢] .

وقال نيكلسون فى كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » ص ١٣١ : كان[٣]

---

(١) ٣٥٤ و ٣٥٥ تاريخ اللغات السامية لرينان نقلا عن ص ٣٠٢ من كتاب « الشهاب الراصد » .

(٢) ٣٦٢ المرجع السابق .

(٣) هذا النص منقول عن كتاب الشهاب الراصد ص ٣٠٤ .

الشعر الجاهلي محفوظا بالتواتر الشفوى ، وتساءل عن سر إمكان ذلك وأجاب عن هذا التساؤل فى قوة وتأكيد لصحة هذا الشعر .

والحياة الجاهلية فى كل صورها وألوانها لا يمكن أن تجد وثيقة كبيرة تدل عليها إلا الشعر الجاهلى .

يقول « تين » فى مقدمة كتابه « تاريخ فنون الأدب عند الإنجليز » : إن الأدب صورة كاملة صحيحة من الأشخاص والزمن الذى يعيشون فيه[1]. ويقول نيكلسون أستاذ آداب اللغة العربية فى جامعة أكسفورد سابقا ومؤلف كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » — ص ١١ — من مقدمة الكتاب المطبوع عام ١٩١٤ : (إن الشعر الجاهلى مرآة الحياة العربية) ، ويقول أيضاً فى ص ٢٦ : (مزايا العصر الجاهلى مرسومة صورها بأمانة ووضوح فى الأغانى والأناشيد التى نظمها الشعراء الجاهليون) — ويقول كذلك فى صفحة ٢٧ : (إن الأدب الجاهلى المنظوم منه والمنثور من تصوير حياة تلك الأيام — الجاهلية — تصويرا أقرب ما يكون من الدقة فى مظاهره الكبرى) .

ويقول ثور بيكة THORBECKE المستشرق الألمانى فى كتابه « عنترة أحد شعراء الجاهلية »[2] : « لا نملك مصادر موثوقا منها لتدوين تاريخ تلك الغارات البدوية سوى القصائد والمقطوعات المحفوظة عن شعراء الجاهلية » . وقال أيضاً فى كتابه ص ٧٩ : « يمكن تعريف الشعر الجاهلى بأنه وصف مزين بالشواهد لحياة الجاهلية وأفكارها » .

ويقول نولدكه المستشرق الهولندى فى « كتابه الشعر العربى القديم » —

---

(١) ص ٣٩ الشهاب الراصد — محمد لطفى جمعة .
(٢) راجع ص ١٤ من الكتاب .

الجاهلى ـ ص ١٧[1] : إن عادات العرب الجاهليين وأحوالهم معلومة لنا بدقة من أشعارهم ، وفى الشعر الجاهلى ما يفتن القارئ من أوصاف الحياة والعادات فى البادية .

إن الشعر الجاهلى فى رأينا نحن وثيقة خطيرة تصور حياة الجاهليين وألوان معيشتهم ، وتصف البيئة الجاهلية بما فيها من حيوان ونبات وأرض وجبال وأشجار ووديان وقرى وصفا دقيقا ؛ وتعبّر تعبيرا واضحا عن الأمطار والرياح والجو ، وهى سجل لتاريخ الجاهليين وأيامهم وأخبارهم . يقول محمد لطفى جمعة فى كتابه « الشهاب الراصد »[2] : « يدل الشعر الجاهلى على نفوس ناظميه وحياتهم ، بل إنه أصدق مثال لحياة العرب أنفسهم » .

الشعر الدينى الذى يمثل الحياة الدينية عند الجاهليين كثير ومبثوث فى مختلف المصادر القديمة . ويرى جورجى زيدان أن منظومات العرب الجاهليين فى الناحية الدينية قد ضاعت فى أثناء الأجيال لعدم تدوينها لاشتغالهم عنها بالحماسة والفخر ، فلما جاء الإسلام أغضى الرواة عنها لأنها وثنية والإسلام يمحو ما قبله .

وفى الشعر الجاهلى دلالات واضحة كثيرة على اتصال العرب بغيرهم من الأمم ، وعلى ألوان الحياة الاقتصادية التى كانت تظلهم ، ولكن هذا الشعر مفرق فى مختلف المصادر ، وليس مجموعا فى كتاب واحد .

ثانياً : ما ذكره الدكتور طه من نفى وجود شعراء يمنيين ، ومن عكسه

---

(١) طبع عام ١٨٦٤ فى هانوفر ـ نقلا عن ص ٤٠ من كتاب الشهاب الراصد لمحمد لطفى جمعة .

(٢) ٤١ الشهاب الراصد .

لما ذهب إليه الباحثون القدماء حول نظرية تنقل الشعر فى القبائل . . وهو إنما يعتمد فى ذلك على أدلة هى تصورات لا ترتفع إلى درجة الحقيقة .

ثالثاً : الشعر الجاهلى واللغة :

يستدل الدكتور طه على انتحال الشعر الجاهلى بأنه لا يمثل اللغة العربية . فالدكتور يرفض الشعر المنسوب إلى شعراء من اليمن لأن لليمن لغة تخالف لغة قريش ، ويشك فى هجرة اليمنيين إلى الشمال ، وليس من المعقول عنده أن يكون كل الشعراء قد هاجروا من اليمن ، ويقول : إنه ليس لليمن فى الجاهلية شعراء ، وكل ما يضاف إلى « جرهم » وسواهم منحول . إن المأثور من شعر الشعراء القحطانيين مروى باللغة العدنانية الفصحى ، مع أنهم لم يكونوا يتكلمون بها ولم يتخذوها لغة أدبية لهم قبل الإسلام ، مما يدل ـ فى رأى الدكتور ـ على انتحال هذا الشعر على القحطانيين .

ولا نسلم مع وجود فوارق بين الحميرية والعدنانية أنهما لغتان متميزتان ، بل لا يزيد الخلاف بينهما على أنه اختلاف لهجات ، والفوارق الكبيرة التى يجسمها بعض العلماء بين الحميرية والعدنانية يمكن حملها على أنها صورة لحياة قديمة جداً قبل عمل عوامل التهذيب الاثوى فى الجزيرة العربية . ولو سلمنا بهذه الفوارق الكبيرة بين اللغتين القحطانية والعدنانية ، فإنه لا يترتب على ذلك وجـــوب تمثيل القحطانية فى شعر الشعراء القحطانيين المروى شعرهم ، لأن القحطانيين فريقان : سبئيون ، وحميريون ، فالسبئيون[1] نزحوا من الجنوب إلى الشمال قبل الإسلام بعد سيل العرم ، كما تؤكد ذلك جميع الوثائق التاريخية ، ومصادر كتب اللغة والأدب ؛ ومنهم اللخميون المناذرة ملوك

(١) الدولة السبئية عاصمتها مارب (٩٥٠ ـ ١١٥ قم) .

الحيرة ، والغساسنة ملوك الشام ، والأوس والخزرج سكان المدينة ، وسواهم .
أما « حمير »[1] فهى التى كانت بأرضها فى ظفار وصنعاء وما جاورها ، وهى التى قال فيها أبو عمرو بن العلاء (١٥٤ هـ) : ما لسان « حمير » وأقاصى اليمن بلساننا ، ولا عربيتهم بعربيتنا .

لقد قربت عوامل التهذيب اللغوى المتعددة بين لغات الجنوب والشمال ، وجعلت هجرة السبئيين إلى الشمال اللغة العدنانية لغة لهم ، وسكان الجنوب على أية حال إنما يرجع أكثرهم إلى هجرات شمالية ، فقد ثبت للباحثين من أمثال مولر ، وجلازر أن المعنيين[2] أصلهم من عمالقة العراق بدو الآراميين الذين كانوا فى أعالى جزيرة العرب قبل الإسلام وقبل ظهور حمورابى بجملة قرون ، والدولة الحميرية حكمت ستة قرون ونصف قرن (١١٥ ق م ـ ٥٢٥ م) وعدد ملوكها ثلاثون ملكا ، وقد فتح الأحباش اليمن فى عهد الملك الحميرى ذى نواس (٥١٥ ـ ٥٢٥ م) وقد قام الأمير الحميرى سيف بن ذى يزن بتحرير اليمن بمساعدة الفرس .

أما دولة سبأ فهى التى كانت قبل الدولة الحميرية وقد عاشت قرونا طويلة قبل الميلاد حتى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد أيضاً ، وقد انتهت حضارة هذه الدولة وسيادتها بفعل عاملين كبيرين :

الأول — انتقال التجارة إلى الطريق البحرى وانقطاع مرورها بسبأ .

والثانى — « سيل العرم » الذى حطم « سدُّ مأرب » فأغرق البلاد ، وهاجر أهلها منها ، وتفرقوا فى أرجاء الجزيرة العربية .

---

(١) الدولة الحميرية (١١٥ ق م ـ ٥٢٥ م) وعاصمتها ظفار .
(٢) الدولة المعينة قبل السبئية وعاصمتها القرن (١٢٠٠ ـ ٦٥٠ ق م) .

وقد كانت هناك عوامل عديدة قربت على أية حال لغة السبئيين والحميريين من لغة العدنانيين ، واستمرت هذه العوامل تعمل عملها إلى ما قبل ظهور الإسلام ؛ وإلا فكيف كان يفهم ولاة رسول الله على اليمن لغة أهل اليمن وكيف فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لغة وفد اليمن الذى قدم المدينة عام الوفود ليسلم بين يدى الرسول صلوات الله عليه ؟

إن القحطانية والعدنانية فى الأصل لغة واحدة ، والخلاف بينهما لا يرتفع عن مستوى كونه خلافا فى اللهجات .

وإنكار شعر شاعر مثل امرىء القيس — بحجة أنه يمنى وأن لغته تغاير اللغة العدنانية التى روى بها شعره — لا يمثل لنا منطقا تاريخيا يرد على ما نعرف من الأصول العدنانية لقبائل اليمن ، ومن هجرة قبيلة كندة إلى الشمال ونشأة امرىء القيس فى مواطن بنى أسد العدنانيين ، وليس من المعقول أن يكون ملكا على الشماليين ويتكلم بلغة غير لغتهم وهو بين أظهرهم . ويقول « سيديو » فى كتابه المشهور « خلاصة تاريخ العرب » : كان بين الإسماعيلية — العدنانية — والقحطانية تنافس المعاصرة المؤدى إلى اختلاف الكلمة ، ثم مالوا إلى الوحدة السياسية ؛ ورأوا الأشعار وسيلة لانتشار فخارهم ، وسبيلا إلى وصول مآثرهم وأعمالهم إلى أحفادهم فأحيوها وعكفوا عليها ، لكن كلام شعراء نجد والحجاز لم يفهمه شعراء اليمن ، بل لم تتفق قبائل بلد واحد على لغة واحدة .

رابعاً : الشعر الجاهلى واللهجات :

يؤكد الدكتور طه نظريته فى انتحال الشعر الجاهلى بأن اختلاف اللهجات أمر ثابت لا شك فيه ، ونحن لا نجد أثرا لهذا الاختلاف فى الشعر

الجاهلي المأثور ، مما يدل على انتحال هذا الشعر ، وأنه قد حمل حملا على هذه القبائل بعد الإسلام[1] ، ويرى أن شعر الشعراء الذين ينتسبون إلى ربيعة منحول لأنه لا يمثل لهجاتهم التي كانوا يتكلمون بها .

ونحن نرد على ذلك بأن اختلاف اللهجة لا يؤثر على وزن الشعر وقافيته ، لأن اللهجة هي طريق أداء الكلام إلى السامع ويتمثل ذلك في التفخيم والترقيق والإمالة وعدمها ، والجهر والهمس ، مما لا يؤثر في ذات الحرف ولا يستلزم العدول عنه أو عن الكلمة إلى غيرها ، والجملة الواحدة نستطيع النطق بها مختلفة الهيئة مع بقاء حروفها وكلماتها في كل صورة من صور النطق ، كما في تلاوة القرآن الكريم بالقراءات المتعددة .

على أن التباين المتناكر من اللهجات قد أزالته عوامل التهذيب اللغوى العديدة في جزيرة العرب ، وسيادة لغة قريش ولهجتها قبل الإسلام ؛ وكان لمكانة قريش ولتنقلها بين القبائل والأمم ، ولشهودها مواسم الحج وأسواق العرب وكثيرا من حروبهم ؛ كان لكل ذلك أثره في صفاء لهجة قريش ، وعذوبة لغتها ، وتخيرها من لهجات ربيعة وغيرها ، مما جعل لهجتها تسود قبل الإسلام جميع لهجات القبائل ، وصارت القبائل المختلفة وشعراؤها يحاكونها في بلاغتها وفصاحتها وسمو لهجتها ، وكانت صلات المصاهرة والمجاورة والاختلاط بين القبائل تعفى على كل خلاف لغوى ، وتقضى على كل فرقة لغوية بينها .

إن اختلاف لهجات القبائل العربية أمر مسلم به ، ولكن هذا الاختلاف

---

(١) ص ٩٦ وما بعدها من كتاب الأدب الجاهلي .

لا أثر له إطلاقا على الشعر ولا يخرج القبائل عن وصفها بأنها ذات لسان واحد ولغة واحدة .

— ٩ —

وبعد : فإن نظرية الدكتور طه حسين فى انتحال الشعر الجاهلى تعدُّ من أعجب النظريات الأدبية الجديدة ومن أشدها تنافرا ، ومن أقواها إثارة ، وأكثرها حوارا وجدلا .

وقد أحدثت أثرها فى تطور الدراسات الأدبية والنقدية ، وفى التمهيد للمناهج الجديدة ، فى دراسة الأدب ونقده ، وفى قيام حركة حوار رائعة خصبة لم تشهد الحركة الأدبية الحديثة والمعاصرة مثيلا لها من قبل ولا من بعد .

ومهما قيل فى نقد هذه النظرية وفى التعليق عليها فإنها بلا ريب تعدُّ حدثا أدبيا فى تاريخنا الأدبى المعاصر ، وتعدُّ ظاهرة أدبية جديرة بالتسجيل والتفهم ، وتعد علامة على طريق البحث الأدبى والتجديد فيه .

وقد كان الدكتور طه عجيبا فى أسلوبه وتفكيره وجمعه بين الآراء المتباينة ليؤلف منها وحدة متكاملة . وكان فى إثارته ، وفى جدله وحواره ، وفى نقده وتعليقه ، شيئا غريبا .

وكان له من ملكاته ومواهبه وثقافته ، ومن ذكائه وألمعيته ، ومن ذوقه الأدبى الرفيع ، ما جعله يصعد إلى القمة ، ويسمو إلى الذروة ، ويجلس على أعلى مكان فى صرح الأدب ، حتى لقب بعميد الأدب العربى ، وكان هو فى النثر الأدبى والدراسة الأدبية كشوقى بين الشعراء ؛ كل منهما احتل منزلة العمادة ، هذا فى النثر ، فصار عميده ، وذاك فى الشعر فصار أميره .

وعلى الجملة فإن طه حسين ونظريته فى انتحال الشعر الجاهلى سيظلان موضع الإثارة والاهتمام على مرور الأيام ، وتوالى العصور :

أسباب الانتحال فى رأى الدكتور طه حسين

١ — العامل السياسى :

السياسة قد خلقت خصومة حادة بين الأنصار وبين أهل مكة الذين آذوا الرسول صلى الله عليه وسلم وحاربوه وأخرجوه حتى اضطر إلى الهجرة منها إلى المدينة ، وهذه الخصومة هى التى أدت إلى الوضع والاختلاق بل هى التى دفعت إليه دفعاً .

ويسوق الدكتور طه دليلا على ذلك قصيدة حسان بن ثابت فى مدح الزبير بن العوام وأسفه على ضياع إنصاف الأنصار وموالاة النبى فيهم ، فقد حدث الرواة أن الزبير بن العوام مر بنفر من المسلمين فإذا فيهم حسان ينشدهم ، وهم غير حافلين بما يقول ، فلامهم على ذلك ، وذكرهم موقع شعره من النبى صلى الله عليه وسلم ، وأثر ذلك فى نفس حسان فقال يمدحه :

أقام على عهد النبى وهديه ... حواريه والقول بالفعل يعدل

أقام على منهاجه وطريقه ... يوالى ولى الحق والحق أعدل

هو الفارس المشهور والبطل الذى ... يصول إذا ما كان يوم محجل

إلى آخر ما قاله فى مدحه ..

وقد روى هذه القصة نفر من آل الزبير ومن أحفاد عبد الله بن الزبير ، أفتستبعد أن تكون عصبية الزبيريين قد مدت هذه الأبيات وطولتها وتجاوزت بها ما كان قد أراده حسان من الاعتراف بالجميل إلى ما كانت تريده العصبية

الزبيرية من تفضيل الزبير على منافسيه ، أو على منافس ابنه عبد الله[١] .

كذلك يسوق الدكتور طه قصيدة النعمان بن بشير التى أنشدها وهو جالس بين يدى معاوية ، حين قال الأخطل فى هجاء الأنصار :

ذهبت قريش بالمكارم والندى والؤم تحت عمائم الأنصار

فدخل النعمان على معاوية وأنشده القصيدة :

معاوي إلا تعطنا الحق تعترف لحي الأزد مشدود عليها العمائم

أيشتمنا عبد الأرقم ضلة فماذا الذى تجدى عليك الأراقم

فمالى ثأر دون قطع لسانه فدونك من ترضيه عنك الدراهم

إلى أن يقول :

وإنى لأغضى عن أمور كثيرة سترقى بها يوما إليك السلالم

أصانع فيها عبد شمس وإننى لتلك التى فى النفس منى أكاتم

فما أنت والأمر الذى لست أهله ولكن ولى الحق والأمر هاشم

إليك يصير الأمر بعد شتاته فمن لك بالأمر الذى هو لازم

بهم شرع الله الهدى فاهتدى بهم ومنهم له هاد إمام وخاتم

فظاهر جدا أن هذه الأبيات الثلاثة الأخيرة على أقل تقدير قد حملت على النعمان بن بشير حملا ، ثم يخلص من ذلك إلى أن العصبية قد دفعت كل قبيلة إلى أن تعود إلى جاهليتها وتعتز بقديمها وتنشر مفاخره ، وتردد من أمجاده ،

(١) فى الأدب الجاهلى .

وكانت فى حاجة إلى الشعر تقدمه وقوداً لهذه العصبية المضطرمة ، فاستكثرت من الشعر ، وقالت منه القصائد الطوال ونحلتها شعراءها القدماء[١] .

٢ — العامل الدينى :

وكان للعامل الدينى أثره القوى كذلك فى انتحال الشعر وإضافته إلى الجاهليين — فيما يراه الدكتور طه حسين — إذ كان القصاص يلجأون إليه لتفسير ما يجدونه مكتوباً فى القرآن من أخبار الأمم القديمة البائدة كعاد وثمود ومن إليهم ، فالرواة يضيفون إليهم شعراً كثيراً . وقد كفانا ابن سلام نقده وتحليله حين جد فى طبقات الشعراء فى إثبات أن هذا الشعر وما يشبهه مما يضاف إلى تبع وحمير موضوع منتحل ، وضعه ابن إسحاق ومن إليه من أصحاب القصص .

ومن ذلك أيضاً شعر الشواهد الذى اخترعه الرواة حين عمد الدارسون إلى دراسة القرآن لغوياً وإثبات صحة ألفاظه ودلالتها على معانيه فقد حرصوا على أن يستشهدوا على كل كلمة من كلمات من القرآن بشئ من شعر العرب يثبت أن هذه الكلمة عربية لا سبيل إلى الشك فى عربيتها .

٣ — القصص : فقد وجد الفن القصصى وازدهر فى عصر غير قصير من عصور الأدب العربى الراقية . أزهر أيام بنى أمية وصدراً من أيام بنى العباس ، حتى إذا كثر التدوين وانتشرت الكتب ، واستطاع الناس أن يلهوا بالقراءة دون أن يتكلفوا الانتقال إلى مجلس القصاص ضعف أمر هذا الفن وأخذ يفقد صفته الأدبية الراقية شيئاً فشيئاً ، حتى ابتذل وانصرف عنه الناس[٢] .

---

(١) فى الأدب الجاهلى ١٢٥ — ١٣٢ وراجع : الأدب العربى بين الجاهلية والاسلام للدكتور المسلوت ص ٢٠٨ .

(٢) فى الأدب الجاهلى راجع من ص ١٤٨ — ١٥٩ ، الأدب العربى بين الجاهلية والاسلام د. المسلوت ص ٢٠٩ — ٢١١ .

كان قصاص المسلمين يتحدثون إلى الناس فى مساجد الأمصار فيذكرون لهم قديم العرب والعجم وما يتصل بالنبوات ، ويمضون معهم فى تفسير القرآن والحديث ورواية السير والمغازى والفتوح إلى حيث يستطيع الخيال أن يذهب بهم لا حيث يلزمهم العلم والصدق أن يقفوا ، وكان الناس كلفين بهؤلاء القصاص مشغوفين بما يلقون إليهم من حديث ، وما أسرع ما فطن الخلفاء والأمراء لقيمة هذه الأداة الجديدة من الوجهة السياسية والدينية فاصطنعوها وسيطروا عليها واستغلوها استغلالا شديداً ، وأصبح القصص أداة سياسية كالشعر .

وكان هـذا القصص الذى سيطر على الحياة فى العصر الأموى فى أمس الحاجة إلى شعر يزينه من حين إلى حين ، ومن هنا عمد القصاص إلى وضع الشعر ليزدان به قصصهم من ناحية وليستغلها القراء والسامعون من ناحية أخرى، ومن ذلك أخبار المعمرين الذين مدت لهم الحياة إلى أبعد مما ألف الناس .

٤ — الشعوبية : ثم يتحدث الدكتور طه عن الخصومة بين العرب والموالى فى الإسلام فيقول[١] : « أما نحن فنعتقد أن هؤلاء الشعوبية قد نحلوا أخباراً وأشعاراً وأضافوهـا إلى الجاهليين والإسلاميين ولم يقف أمرهم عند نحل الأخبار والأشعار ، بل هم قد اضطروا خصومهم ومناظريهم إلى النحل والإسراف فيه » ويقول أيضاً : « كانت الشعوبية تنحل من الشعر ما فيه عيب للعرب وغض منهم وكان خصوم الشعوبية ينحلون من الشعر ما فيه ذود عن العرب ورفع لأقدارهم » .

---

(١) فى الأدب الجاهلى ص ١٦٠ — ١٦٧ .

٥ — الرواة : والرواة فى رأى الدكتور طه حسين « بين اثنين : إما أن يكونوا من العرب ، فهم متأثرون بما كان يتأثر به الموالى من تلك الأسباب العامة وهم على تأثرهم بهذه الأسباب العامة متأثرون بأشياء أخرى هى التى أريد أن أقف عندها وقفات قصيرة ، ولعل أهم هذه المؤثرات التى عبثت بالأدب العربى وجعلت حظه من الهزل عظيما : مجون الرواة وإسرافهم فى اللهو والعبث ، وانصرافهم عن أصول الدين وقواعد الأخلاق إلى ما يأباه الدين وتنكره الأخلاق » .

هذه هى الأسباب التى رآها الدكتور طه حسين داعية للوضع والانتحال فى الشعر الجاهلى .

الفصل الرابع

صور من الشعر الجاهلى ، نقدها

النص الأول

— ١ —

امرؤ القيس يصف الليل من معلقته الرائعة

وليل كموج البحر أرخى سدوله ... على بأنــواع الهمـوم ليبتلى [١]

فقلت له لمـــا تمطى بصـــلبه ... وأردف أعجازا وناء بكالـكل [٢]

إلا أيها الليل الطويل ألا انجلى ... بصبح وما الاصباح منك بأمثل [٣]

فيالك من ليل كأن نجومــــه ... بكل مغار الفتل شدت بيذبل [٤]

كأن الثريا علقت فى مصـــامها ... بأمراس كتان إلى صم جندل [٥]

روعة الصورة :

إن القارئ يقف أمام هــذه القطعة الفنية الجميلة متأملا معجبا مشدوها ،

---

(١) سدوله : ستوره ، شبه الليل بموج البحر فى تراكمه وشدة ظلمته .

(٢) تمطى : امتد . صلبه : متنه وظهره ، ويروى (بجوزه) أى وسطه . الأعجاز جمع عجز : وهو مؤخر الحيوان . ناء بكلكله : نهض بصدره .

(٣) انجلى : انكشف . والياء فيه من صلة الكسر . أمثل : أحسن . ويروى (وما الأصباح منك بأمثل) أى انا أبدا مغموم فى الليل وفى الصباح .

(٤) المغار : الشديد الفتل ، يذبل : اسم جبل ..

(٥) المصام : المكان الذى يقام فيه ، ولا يبرح منه كمصام الفرس ، وهو مربطه . ومصام النجم : معلقة ، والامراس جمع مرس وهو الجبل .

من روعة البيان وجمال التصوير ودقة وقوة التأثير ومن الشخصية الفنية الكاملة التى تبرز فى هذه الأبيات فى وضوح وجمال .

الليل رهيب ، ظلماته كالموج اللجى ، وقد أقبل على الشاعر فأثار فى نفسه الذكريات ، وهاج كوامن الاحزان وبعث الهموم من مرقدها ، وترك النفس موزعة حيرى مفزعة .

واستمرت صور الماضى وأحداث الحاضر تتراى أمام عينيه ، يتذكرها ويذكرها ، يتذكر حياته اللاهية العابثة ، وهذه الآمال والآلام التى تعتلج فى صدره وذكريات الحب والأحباب الخالدة التى لا تبلى ملامحها .

وطال الليل على الشاعر وطال ، وامتد ، فرسم لطوله هذه الصورة البارعة التى تجدها فى البيت الثانى ، فكأنه يتمطى بصلبه ، وكان أعجازه وأواخره يمد بعضها بعضا ، وكأنه يقع بصدره على المهمومين والمحزونين ليوسعهم ألما وشقاء .

ويتمنى الشاعر أن يذهب الليل بظلمته ورهبته ، وأن يشرق الصبح بضوئه وجماله ولكنه يعود فيتذكر أحزانه كامنة فى نفسه ، فلن يسرى عنه الهم إشراق الصباح ولا ضجيج الحياة فى أول النهار .

وتستمر الصور والذكريات تطوف بخيال الشاعر وأمام عينيه اليقظتين ، والليل كما هو ، لم يذهب ، ولم يطلع الصباح الجميل ، وكأنه لا يريد أن يذهب ، بل كأنه مشدود بحبال قوية شدت بصخرة من صخور هذا الجبل الغليظ .

صور جميلة لا يعدل جمالها جمال ، وخيال يقظ ، مشبوب لا يماثله فى استنباط دقائق التصوير خيال .

وهكذا كان امرؤ القيس وبحق ما كان زعيم الشعراء فى الجاهلية ..

موازنة بين امرىء القيس والنابغة فى وصف الليل

١ — قال المرزبانى فى كتابه الموشح : تشاجر الوليد بن عبدالملك ومسلمة أخوه فى شعر امرىء القيس والنابغة فى وصف الليل : أيهما أجود ؟ فرضيا بالشعبى ، فأحضر فأنشده الوليد للنابغة :

كلينى لهم يا أميمة ناصب ... وليل أقاسيه بطىء الكواكب
تطاول حتى قلت ليس بمنقض ... وليس الذى يرعى النجوم بآيب
وصدر أراح الليل عازب همه ... تضاعف فيه الحزن من كل جانب

وأنشده مسلمة أبيات امرىء القيس فى وصف الليل فلما وصل إلى آخر أبيات امرىء القيس ضرب الوليد برجله طربا ، فقال الشعبى : بانت القضية ، قال الصولى : إن النابغة جعل صدره مألفا للهموم ، وجعلها كالنعم العازبة بالنهار عنه ، الرائحة مع الليل إليه ، كما تريح الرعاة إبلهم بالليل إلى أماكنها . . والشعراء على هذا المعنى متفقون ولم يشذ عنه ، ويخالفه منهم إلا أحدثهم بالشعر والمبتدىء بالإحسان فيه ، أما امرؤ القيس ، فإنه بحذقه ، وحسن طبعه ، وجودة قريحته كره أن يقول إن الهم يخف عنه فى نهاره ، أو يزيد فى ليله ، فجعل النهار والليل سواء عليه فى قلقه وهمه ، وجزعه وغمه ، فقال :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى ... بصبح وما الاصباح منك بأمثل

٢ — أن ليل النابغة طويل كواكبه بطيئة ، ولكنه عند امرىء القيس ثابت الكواكب ، فالثريا مشدودة بأمراس كتان إلى صخر قوى لاتتحرك ، وبهذا تفوق النابغة ، ولهذا تنازع الوليد ومسلمة ، ثم التفت الوليد إلى معنى

امرىء القيس فى وصف الليل بأنه ثابت الكواكب لا بطيئها فحسب ، فضرب الأرض برجله طربا ، وقال الشعبي لهما : بانت القضية .

والليل وحده مكان الهموم عند النابغة ، وهو أول من قرر هذا المعنى ، وهو تزايد الهموم وتجمعها بالليل ، أما امرؤ القيس فليله ونهاره سيان ، ولو كنا بسبيل وصف الهم لتفوق امرؤ القيس ، ولكنا بسبيل وصف الليل ، ومن هنا تفوق النابغة على امرى القيس حتى قيل : ليل نابغى .

أما امرؤ القيس فله إلى جانب ما سبق روعة تصوير الليل بجعله كأمواج البحر ، وتصويره فى صورة المتمطى ذى الصلب والصدر والاعجاز ، وإن كان يعاب عليه التضمين وهو أنه أتى بقول فى بيت وبمقوله فى بيت آخر .

شاعرية امرى القيس فى رأى النقاد :

وفى امرىء القيس يقول الآمدى : وفضلوا امرؤ القيس لأن الذى فى شعره من دقيق المعانى وبديع الوصف ولطيف التشبيه وبديع الحكمة ، فوق ما استعار سائر الشعراء منه فى الجاهلية والإسلام . ولولا لطيف المعانى واجتهاد امرىء القيس فيها وإقباله عليها لما تقدم على غيره ولكان كسائر شعراء أهل زمانه . ألا ترى أن العلماء بالشعر إنما احتجوا فى تقديمه بأن قالوا هو أول من شبه الليل بالعصا وذكر الوحش والطير وأول من نال قيد الأوابد إلخ . فهل هذا التقديم إلا لاجل معانيه[1] .

ولقد سئل جرير رأيه فى امرىء القيس فقال : اتخذ الخبيث الشعر نعلين ، وهذا رأى يمثل اقتدار امرىء القيس على الشعر وشدة تمكنه منه .

---

(١) ٨٠ الموازنه للآمدى .

وقيل للفرزدق : من أشعر الناس يا أبا فراس ؟ فقال ذو القروح ، قيل حين يقول ماذا ؟ قال حين يقول :

وقاهم جـــدهم بـــبنى أبيهم   وبالأشـــقين ما كان العقـــاب

وقال ابن يحيى ، سمعت من لا أحصى من الرواة يقولون أحسن الناس ابتداء فى الجاهلية امرؤ القيس حيث يقول : ألا عم صباحا أيها الطل البالى ، وحيث يقول : قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل ، وفى الاسلام القطامى حيث يقول : إنا محيوك فاسلم أيها الطلل ، ومن المحدثين بشار حيث يقول :

أبى طلـل بالجزع أن يتـكلما   وماذا عليه لو أجـاب متيما

شعر امرىء القيس :

أجمع الأدباء على أنه رأس الشعراء الجاهليين ، وزعيم الطبقة الأولى منهم، على الرغم من أنه مسبوق بأمثال أبى دؤاد الأيادى ، وخاله المهلهل بن ربيعة لأنه برز عنهم ، وفاق عليهم ، وطرق كثيرا من الأبواب ، وأفاض فى نواح متعددة وأجاد فى الحديث عن النساء ، ووصف الخيل والليل ، وإيراد الاستعارة واستعمال التشبيه ، ومن قصائده يشتم الإنسان رائحة النبل ، ويلمح شارات السيادة والسؤدد . . وهو وإن ظهرت فيه البداوة فى جفوة التعبير ، وخشونة الألفاظ ، وتجهم المعانى ، فإنه تظهر فيه ـ أيضاً ـ الحلل السندسية ، والديباجة الخسروانية ، وجمال المعنى ، ورقة النسيب ، مما كان منه لمن جاء بعده أروع مثال يحتذى ، وأحسن حلة ينسج الشعراء على منوالها . . . ومع كونه يفحش فى غزله فى بعض الأحايين ، وتبدو فى شعره صور واضحة لا ستهتاره ولذاته ، ولهوه ومجونه ، فقد كان لرحلاته المتنوعة إلى الشام واليمن وغيرها أثر فى سعة

خياله وحسن تصويره . واستعمال ألفاظ جديدة .. وقد ورث عنه الأدب العربى أبياتاً كثيرة يتمثل بها كقوله . .

وقـــد طوفت فى الآفـــاق حتى   رضيت من الغنيمة بالإياب[1]

وإنك لم يفخر عليك كفاخر   ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب[2]

كذلك جدى لا أصاحب صاحباً   من الناس إلا خاننى وتغيرا[3]

ويظهر من تتبع حياته وقراءة ديوانه أن شعره قبل مقتل أبيه حيث كان غارقا فى اللهو ، سابحا فى المجون مشتغلا بالسكر والعربدة ، ومنادمة المستهترين ، ومصاحبة الأشرار ، كان شعرا يمثل حياة شاب مترف عابث لا يلوى على الحوادث ولايتأثر بالخطوب ، ولايعنيه سوى حاضره الباسم ، ويومه الميمون ، يغنم فيه الصفو ، ويستبق اللذة ، من غير تجهم ولا عبوس .. أما شعره بعد ذلك ففيه شكوى من الزمان والأخوان وسوء الحظ . . ومعلقته أشهر ما قال من الشعر وهى صورة لشبابه الذى كان مليئا باللذة والخلاعة والانطلاق والجرى وراء الشهوة الجامحة .

وقدا بتدأها بالوقوف على الأطلال للبكاء على أصحابها الذاهبين الذين كان من أثر فراقهم له ، وبعدهم عنه ، أنه صار يقاسى الشدة ، ويعانى الألم . .

كأنى غـداة البين يوم تحملوا   لدى سمرات الحى ناقف حنظل[4]

---

(١) طوفت بمعنى طفت وارتحلت وتنقلت ، الاياب الرجوع ..

(٢) مغلب مغلوب مرارا ، والمعنى لم يغلبك مثل الضعيف الذى تأبى عليك مروءتك وشرفك أن تنازله .

(٣) الجد : الحظ .

(٤) تحملوا ارتحلوا ، سمرات جمع سمرة وهى شجرة الطلح ، ناقف الحنظل الذى يشقه ليستخرج « بذره » وعينه تدمع من مرارة الحنظل .

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتحمل (١)

وإن شفائى عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول (٢)

وينتقل من هذا الوصف لحاله ، والحديث عن وجده ، إلى أن ذلك دأبه من أم الحويرث وجارتها أم الرباب ، ويذكر أياما له معهما ، ومع غيرهما « ألا رب يوم منهما لك صالح » وعقره للعذارى مطيته ، وارتماءهن بلحمها فى أنس وبهجة ، وفرح ولذة ، واقتحامه الخدر على عنيزة ، وفرقها من ذلك ، وطلبه منها جناها المعلل ، فى شىء من الإغراء الداعر ، لأنه كم دخل على مثلها من حبلى أو مرضع .

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق وتحتى شقها لم يحول (٣)

ويوما على ظهر الكثيب تعذرت على وآلت حلفة لم تحلل (٤)

أفاطم مهلا بعض هذا الدليل وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى

ويستمر فى هذه الصورة الغزلية الرائعة ، ثم ينتقل من حديث الدبيب إلى النساء واحدة بعد أخرى ، ودلالهن عليه ، وبذله لهن أو بذلهن له ، فى وصف يغرى ، ونعت يهيج .

---

(١) تحمل من الاحتمال ، أو تجمل بمعنى ترفق بنفسك .

(٢) مهراقة مراقة مصبوبة ، معول بمعنى تعويل واعتماد ، يقومل : لايفيدك أن تبكى على طلل دارس ارتحل أهله وخلفوه أثرا بعد عين .

(٣) بشق : بناحية أو جانب وتحتى منها جانب آخر لم يتحول وهو من أفحش القول .

(٤) الكثيب جميع الرمل ، تعذرت امتنعت ، آلت حلفت ، لم تحلل لا مخلص منها ، صرمى قطيعتى وفراقى ، أجملى أرفقى .

إلى مثلها يرنو الحليم صبابة ... إذا ما اسبكرت بين درع ومجول(١)

ولا يزال هكذا إلى البيت الثانى والأربعين من أبيات المعلقة البالغ عددها الثمانين ثم يأخذ فى وصف الليل حتى إذا بلغ غايته منه أخذ فى وصف واد مقفر كجوف البعير تعوى به الذئاب ، وينتقل منه إلى وصف فرسه بما لا مزيد عليه من البيان الرائع ، والبلاغة الساحرة .

له أيطلا ظبى وساقا نعامة ... وإرخاء سرحان وتقريب تتفل(٢)

ولمناسبة وصفه للفرس فى سرعة انقضاضه وتشبيهه له بالبرق يتحدث عن البرق .

أصاح ترى برقا أريك وميضه ... كلمح اليدين فى حبى مكلل(٣)

يضىء سناه أو مصابيح راهب ... أهان السليط بالذبال المفتل(٤)

ولما كان البرق قد جاء بعده المطر فلابد من وصفه والحديث عنه كذلك :

كأن ثبيراً فى عرانين وبله ... كبير أناس فى بجاد مزمل(٥)

---

(١) يرنو يطيل النظر ، صبابة شوقا ، اسبكرت تطاولت بقامتها بين أترابها اللائى يلبسن الدرع أو المجول وهو الثوب .

(٢) السرحان الذئب ، والتتفل ولد الثعلب ، والأيطل الخصر ، والارخاء والتقريب نوع من السير .

(٣) لمح : لمع والحبى السحاب المتراكم ، والمكلل الذى يشبه الاكليل .

(٤) السليط المصباح والذبال : خيط « شريطه » المفتول ، أهان او أمال السليط بالذبال كناية عن عدم بخله ليشتد الضوء .

(٥) ثبير جبل ، وعرانين الوبل أو المطر أوائله ، والبجاد الثوب المخطط ، والتزميل التلفيف . يشبه الجيل وقد كساه المطر من راسه جلالا وروعة بزعيم القوم تزمل بالبجاد .

كأن ذرى رأس المجيمر غدوة   من السيل والغثاء فلكة مغزل[١]

وبعد رسمه تلك الصورة الجميلة المطر برأس هذين الجبلين « ثبير والمجيمر » ينتقل إلى ختام المعلقة منوهاً بطرب الطيور لصفاء الجو ، وطيب الهواء ، وروعة الطبيعة بعد أن صنع بها الغيث هذا الصنيع :

كأن مكاكى الجواء غدية   صبحن سلافاً من رحيق مفلفل[٢]

ويعلق محمد هاشم عطية فى كتابه الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى على معلقة امرئ القيس بعد عرضها فيقول : فأنت ترى أنه بدأ القصيدة بما عده الأدباء بحق أجود مطالع الشعر الجاهلى جملة . وضربوا بحسنه المثل ، وقد جمع فى شطر هذا المطلع « قفا نبك من ذكر حبيب ومنزل » بين أشياء عدها الناس من أولياته ، لأنه وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكر الحبيب والمنزل ، ثم جعل يذكر حبائبه ، ويصفهن بالطيب والنعمة فى عذوبه ورشاقة ، ويتحدث عن قصته معهن فى يوم الغدير — ويرجح أنه نظم قصيدته هذه بسبب تلك القصة — وما كان من تخالعه المزوج بمطاوعة الشباب ، ونبل الملوك ... وكان فى مثل عذوبة السلاف حين رقق الغزل فى قوله : « أغرك منى » إلى قوله : وما ذرفت عيناك البيت ، وحين وصل إلى وصف الدبيب والاستهتار فى الحب ، والتعرض للهلكة فى مخاتلة الأحراس بعزمهم على قتله .. ثم انتحى نحواً آخر فى وصف الليل ، ووصف الفرس بما هو فيه أول الواصفين بالإجماع ، ثم وصف البرق والمطر ، وجعل الطيور — المكاكى — من شدة

---

(١) ذرى : اعالى ، المجيمر : جبل أيضا ، الغثاء : ما يحله السيل من الحشائش والحطب ، فلكة المغزل رأسه .

(٢) المكاكى : الطيور ، سلاف خمر ، مفلفل عليه فلفل .

سرورها بصفاء السماء بعد المطر الذى غرقت فى أقاصيه السباع ، كأنما شربن رحيقاً مفلفلا . وكل هذا مفرغ فى ذوب من ماء العربية بين الجزالة والعذوبة ، تستطيع بعد ذلك أن تحكم على هـــذه المعلقة بأنها أجل أثر تاريخى لتلك الفصاحة العربية فى العصر الجاهلى ، وهى فى جملة أغراضها وأوصافها ونسيبها وكناياتها المثل الذى احتذاه الشعراء بعده وجعلوه به رئيس فخرهم ، والمقدم عليهم .

ألوان من النثر الجاهلى

الحكم الجاهلية :

يقصد بالحكمة القصد والصواب ، وإصابة الهدف ، ووضع الأشياء فى مواضعها ، والاعتدال فى الرأى ، والبصر بالعواقب ، والاتزان فى السلوك ، والحكيم من الناس الذى تكامل عقله ، ونضج تفكيره ، وتم رشده ، وثقل ميزانه ، وبعد نظره ، فلا تنزلق به رجله ، ولا يخونه صوابه ، ولا تتخلى عنه بصيرته ، ولا يطيش به رأيه ، ولا يضع الدواء إلا فى موضع العلة ... والحكمة على هذا كلمة جامعة تتناول الصواب والصدق والقصد والاعتدال وحسن الدخول فى الأمر والخروج منه ... وفى القاموس : الحكمة العدل والعلم والحلم والنبوة والقرآن . وأحكمه أتقنه ومنعه من الفساد ... إلا أن الأدباء يقصدون بالحكمة القول الرائع الذى يصيب به صاحبه كبد الحقيقة بعبارة موجزة قد اكتست من البلاغة ثوباً جميلا ، وصادفت من القبول رغبة حارة ، ومن الذيوع ما تصادفه شمس النهار بنورها الساطع ، ودفئها الجميل . وحرارتها النافعة، يتواصى الناس بحفظها وتناقل ألفاظها ، وتضمين كلامهم لها ، لأنها تجرى على الميزان الصحيح . والقول الصدق ، والحكم العدل ، والمنطق والصواب ، والبرهان السليم والفطرة المستقيمة .. واحتفال الناس بها ، وإقبالهم عليها ، لا يرجع إلى قيمتها البلاغية بمقدار ما يرجع إلى أنها تتجاوب مع وجداناتهم وعواطفهم ، وتتلاقى مع رغباتهم وأهوائهم ، وتشفى غليل نفوسهم ويحسون أنها التعبير الذى كانوا بحاجة إليه ، لو أسعفهم البيان ، وساعدهم اللسان .

والحكمة قول رائع يتضمن حكما صحيحاً مسلماً به وكما تكون نثراً تكون نظما ، ولكنها فى النثر أوفى عدداً ، وأكثر دورانا . . ولقد فاضت الحكمة على ألسنة كثيرين من العرب لسلامة الفطرة ، ورجحان الفكر ، ونضوج العقل ، وعرف فيهم الحكماء الذين تنصاع إليهم السادة وتنزل على حكمهم العلية ، يفضون الخصومات ويحسمون النزاع ، وكان قولهم مرضياً ، ورأيهم قاطعاً : ومن هؤلاء : أكثم (١) بن صيفى التميمى وعامر (٢) بن الظرب العدوانى ... وكما تكون الحكمة فى النثر - كقولهم : خير الموت تحت ظلال السيوف ، مصارع الرجال تحت بروق الطمع ، من سلك الجدد أمن العثار ، كلم اللسان أنكى من كلم السنان ، خير الغنى القناعة ، قطيعة الرحم تورث الهم ، رضا الناس غاية لا تدرك ؛ أول الحزم المشورة ، رب عجلة تهب ريثاً ، يكفيك من شر سماعه — تكون أيضاً فى النظم ، كأبيات زهير بن أبى سلمى المبدوءة بـ « ومن » ، ومثل :

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه ... فليس على شىء سواه بخزان

ولست بمستبق أخاً لا تلمه ... على شعث أى الرجال المهذب

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكل رداء يرتديه جميل

الأمثال الجاهلية :

المثل لا يعتمد على الروعة البيانية ، ولا يهتم بالأناقة فى اللفظ ، ولكنه جملة تصدر فى حادثة ، أو تقال فى مناسبة ، ولعل من أسرار الجمال فيه اقتران

(١) كان أكثم من حكماء تميم وحكامها ذا فصاحة وعلم بالأنساب والأخبار .
(٢) عامر من حكام قيس ، وذوى المكانة فيها .

حالين متشابهتين ، وارتباط معنيين متقاربين ، لأنك حين تحكى قول القائل « الصيف ضيعت اللبن » لمن يطلب شيئاً قطع على نفسه أسبابه ، وفوت أوانه ، ثم يغيب عن ذهنه أن المفرط أولى بالخسران : إنما تجمع له فى حزمة واحدة صورتين إحداهما الأخرى ، صورة المرأة التى طلبت من زوجها الطلاق فى الصيف ، ثم جاءت إليه فى الشتاء — وقد ضاقت عليها الأرض بما رحبت — ترجو أن يمد لها يد المعونة بشىء من اللبن تروى به ظمأها ، وتغالب به جوعها وتمسك رمقها . . . وصورة الرجل — أو المرأة — الذى يطلب معونة من إنسان لم يسكن بينه وبينه من الود ما يشفع له بعطفه عليه ، ولم يسبق منه من المعروف ما يحمله على الاستجابة إليه . ولاقتران النظير بالنظير روعة وخلابة ، ولاستحضار الصورة للصورة جمال وسحر ، ولهذا يرى علماء البلاغة أن الأمثال لا تغير ، وأن المثل يحكى كأصله على ما كان عليه من الافراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث لأن من تمام الحسن للمثل المحافظة على صورته الأصلية كما هى . . والمثل نوعان حقيقى وافتراضى . . فالحقيقى تسجيل لواقعة حدثت ، والافتراضى تسجيل لواقعة منتزعة من الخيال لا أساس لها من الصحة .

فمن الأمثال الحقيقية التى جاءت نثراً :

رب رمية من غير رام ؛ جوع كلبك يتبعك ؛ استنوق الجمل ، إن العوان لا تعلم الخمرة ، سبق السيف العذل ، ما يوم حليمة بسر ، مواعيد عرقوب .

ومن الأمثال الحقيقية التى جاءت شعراً :

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار[1]

---

(١) العرار نبت طيب الرائحة والمثل يضرب فى التمتع من الزائل .

لا ذنب لى قد قلت للقوم استقوا[١] أن ترد الماء بماء أوفـــق

إن كنت شهماً فأتبع رأسها الذنبا[٢] لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها

كناطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل[٣]

ومن المثل نوع فرضى وهو قول ينتزع من الخيال انتزاعا ويتوهمه القائل توهما ، من غير أن تكون له حادثة معروفة ، أو قائل معين . وأغلب ما يكون منسوبا للحيوانات والطيور ، كتلك التى تضمنها كتاب « كليلة ودمنة » فى الأدب العباسى . وأغلب الظن أن الناس يلتجئون إلى هذا اللون من الأمثال حينما يستدعيهم ضغط السياسة ، وظلم الحكومة ، وعسف السلطان ، وكبت الحرية ؛ فلا يجدون متنفساً يتنفسون منه ، ولا مخرجاً ينفذون إليه ، سوى ذلك التعبير الذى يسكنون به عما يرزحون تحته من نير ، ويحتملونه من عنت ... ومنه :

« إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض » التى تروى على لسان ثور أحمر كان معه ثوران آخران — أبيض وأسود — وكان يعيش معهما الأسد فى الغابة ! فقال ذات يوم للثورين — الأسود والأحمر — إن الأبيض يدل علينا بلونه ! وهو مع هذا يلفت نظر الصياد إلينا بشدة بياضه ! فلو أذنتما لى فى أكله لنأمن شره فقالا له : دونكه ، وما هو إلا أن أكله ، حتى اختلى بالأحمر يستأذنه فى أكل الأسود لأنه بينهما غريب ، ولونه فيهما شاذ ، فلما وصل إلى

---

(١) تضرب فى الاحتياط للشر حتى لا يقع المرء فيه .. والمعنى : ان ترد الماء ومعك الماء أوفق لنجح قصدك ، وبلوغ غايتك ، فان أصبت مما وردته فبها والا فانت فى غنى عنه .

(٢) يضرب للشر تبقى له بقايا فيتولد منها آخر يكون له ضرره .

(٣) الثور الوحشى والمثل يضرب لمن يحاول شيئا لا يستطيعه .

غايته من أكله ووجد أن الجو قد خلا له وأن الثور الأحمر لا يستطيع مقاومته قال له: إن الجوع اشتد على وليس من أكلك بد، فقال الثور الأحمر للأسد: دعنى لأنادى بأعلى صوتى ثلاثاً «إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض»، فذهبت مثلا لمن يسلم فى أعوانه فيكون فى هذا التسليم هلاكه ...

ومنه كذلك قولهم :

«كيف أعاودك وهذا أثر فأسك» وأصله — كما يقولون — على لسان حية عظيمة كانت فى واد موحش، وقد صادفت رجلا فنهشته فمات، فذهب أخوه إليها ليأخذ بالثأر، فضربها بفأسه فأدمى بعض جسدها ولم تمت، فصالحته على أن يتركها فى مقابل إعطائها له كل يوم ديناراً، ومكثا على ذلك طويلا من الزمن ولكن الرجل كان قد تذكر عار عدم أخذه بثأر أخيه كما كان قد أثرى فلم يصبح بحاجة إلى المال بعد، فصمم على قتل الحية، فذهب إلى جحرها ليقتلها ولما أهوى بفأسه وأخطأها قطعت عنه الدينار، وعلى طول الأيام وإحساسه بالحرمان . ندم على ما بدر منه، فرجع إليها وأبدى رغبته فى عودة صداقتهما، ولما وقف على باب الجحر وناداها وقال لها هل لك أن نتواثق ونعود إلى ما كنا عليه، قالت: «كيف أعاودك الخ» فذهبت مثلا لمن لا يجاب إلى عهد لظهور آثار غدره .

ومن الحوادث الفرضية — كذلك — ما يستدعى عدة أمثال تجىء فى ثنايا القصة ثم يكون كل منها مثلا بنفسه، وذلك كما يحكى أن أرنباً التقطت تمرة فاختلسها الثعلب فأكلها فذهبا يختصمان إلى الضب فلما جاءت إليه الأرنب وكان فى داخل جحر، قالت له يا أبا الحسل فقال لها: «سميعاً دعوت» قالت أتيناك لنختصم إليك فقال «عادلا حكمتما» قالت فاخرج إلينا فقال لها «فى بيته يؤتى الحكم» قالت إنى وجدت تمرة، فقال «حلوة فكليها» قالت

اختلسها الثعلب ، فقال » لنفسه بغى الخير » قالت فلطمته فقال : بحقك أخذت ، قالت إنه لطمنى فقال : « حر انتصف لنفسه » قالت فاقض بيننا فقال « قد قضيت » :

فهذه أمثال كلها وردت فى كتاب الأمثال للميدانى وغيره فى قصة المثل « فى بيته يؤتى الحكم » ، وكل واحد منها يضرب لما يناسبه من الأحوال .

خطب جاهلية :

١ — من خطب العظة والاعتبار للمأمور الحارثى فى نادى قومه :

« أرعونى[١] أسماعكم ، وأصغوا إلى قلوبكم ، يبلغ الوعظ منكم حيث أريد . طمح[٢] بالأهواء الأشر ، وران[٣] على القلوب الكدر ، وطخطخ[٤] الجهل النظر . إن فيما نرى لمعتبرا لمن اعتبر ، أرض موضوعة ، وسماء مرفوعة ، وشمس تطلع وتغرب ونجوم تسرى فتغرب[٥] ، وقمر تطلعه النحور ، وتمحقه أدبار[٦] الشهور وعاجز مثر[٧] وحول مكد[٨] ، وشاب مختضر[٩] ويفن

---

(١) أرعاه سمعه أصغى اليه .

(٢) علا وارتفع وتجاوز الحد ، والأهواء الميول ، والأشر البطر وكفران النعم .

(٣) غلب وغطى .

(٤) أظلم .

(٥) تبعد .

(٦) أواخر .

(٧) غنى كثير المال .

(٨) الحول الذى يحتال للأمور فيصيب منها بعقله وحزمه ورأيه ، والمكدى فى الأصل الذى يحفر فتصادفه الكدية وهى الحجارة الغليظة فتحول بينه وبين الاستمرار فى غرضه .. ومنه « أعطى قليلا فأكدى » والاكداء الحرمان .

(٩) ميت فى صغر سنه ، أما اليفن فكبير السن .

قد غبر ، وراحلون لا يؤوبون ، وموقوفون لا يفرطون[١] ، ومطر يرسل بقدر ، فيحيي البشر ، ويورق الشجر ، ويطلع الثمر ، وينبت الزهر ، وماء يتفجر من الصخر فيصدع المدر عن أفنان الخضر ، فيحيي الأنام ؛ ويشبع السوام ، إن فى ذلك لأوضح الدلائل على المدبر المقدر البارىء المصور ، يا أيها العقول النافرة ، والقلوب النائرة[٢] ، أنى تؤفكون ، وعن أى سبيل تعمهون ، وفى أى حيرة تهيمون ، وإلى أى غاية توفضون[٣] ، لو كشفت الأغطية عن القلوب ، وتجلت الغشاوة عن العيون ، لصرح الشك عن اليقين ، وأفاق من نشوة الجهالة ، من استولت عليه الضلالة .

٢ — ومن خطب التهنئة والسفارات ما قاله عبد المطلب لسيف بن ذى يزن ملك اليمن بعد انتصاره على الحبشة :

إن الله تعالى أحلك محلا رفيعا ، صعبا منيعا ، باذخا شامخا[٤] ، وأنبتك منبتا طابت أرومته ، وعزت جرثومته[٥] وبسق فرعه ، فى أكرم معدن ، وأطيب موطن ، فأنت « أبيت اللعن » رأس العرب ؛ وربيعها الذى به تخصب ، وملكها الذى به تنقاد ؛ وعمودها الذى عليه العماد ؛ ومعقلها[٦] الذى إليه تلجأ العباد ، سلفك خير سلف ، وأنت لنا بعدهم خير خلف . ولن يهلك من

---

(١) يقدمون .

(٢) النافرة .

(٣) بالياء للمجهول من الافك بمعنى الكذب أو من الافك بمعنى الحمق .. وهذه الخطبة فى الامالى للقالى الجزء الأول طباعة دار الكتب المصرية ص ٣٧٣ .

(٤) مرتفعا والباذخ والشامخ بمعنى واحد .

(٥) الأرومة والجرثومة بمعنى الأصل .

(٦) المعقل : الحصن وعقل الدابة ربطها ومنه سمى العقل عقلا لأنه يمنع الانسان عن الاسفاف ويحفظه من الشرور .

أنت خلفه ، ولن يخمل[1] من أنت سلفه ، نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته، وسدنة بيته . أشخصنا[2] إليك الذى أبهجنا[3] ، بكشف الكرب الذى فدحنا[4] فنحن وفد التهنئة ، لا وفد المرزئة[5] .

٢ — ومن خطب الإملاك « الزواج » ما قاله أبو طالب بن عبد المطلب حين تزوج النبى صلى الله عليه وسلم بالسيدة خديجة بنت خويلد الأسدية :

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بلدا حراما[6] ، وبيتاً محجوجا ، وجعلنا الحكام على الناس . ثم إن محمد بن عبد الله ابن أخى . من لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح عليه براً وفضلا ، وكرما وعقلا ، ومجدا ونبلا ، وإن كان فى المال قلا ، فإن المال ظل زائل وعارية مسترجعة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه كذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلى[7] .

وصايا ونصائح :

١ — من الوصايا ما قالته أعرابية لابنتها عند زفافها إلى زوجها :

أى بنية إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل . ومعونة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها

---

(١) خمول الذكر عدم اشتهاره ويقابله نباهة الذكر والشان .
(٢) أتى بنا اليك والشخوص : الوقوف بين يديه .
(٣) من البهجة بمعنى الفرح والسرور .
(٤) أثقلنـــا .
(٥) المصيبة والرزيـة .
(٦) محرما على الناس أن يسفكوا فيه دما أو يرتكبوا محظورا .
(٧) الصـداق المهـر .

وشدة حاجتهما إليه ، كنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ، ولهن خلق الرجال . أى بنية إنك فارقت الجو الذى منه خرجت ، وخلفت العش الذى فيه درجت إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك رقيبا ومليكا ، فكونى له أمة يكن لك عبداً وشيكا[1] ، يا بنية احملى عنى عشر خصال تكن لك ذخرا[2] وذكرا ، الصحبة بالقناعة ؛ والمعاشرة بحسن السمع والطاعة . والتعهد[3] لموقع عينه ، والتفقد لموضع أنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح ، والكحل أحسن الحسن ، والماء أطيب الطيب المفقود ، والتعهد لوقت طعامه ، والهدوء عند منامه . فإن حرارة الجوع ملهبة[4] وتنغيص النوم مغضبة ؛ والاحتفاظ ببيته وماله ، والإرعاء[5] على نفسه وحشمه[6] وعياله ، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التدبير ، والإرعاء على الحشم والعيال جميل التقدير ، ولا تفشى له سراً ، ولا تعصى له أمراً ، فإنك إن أفشيت سره لم تأمنى غدره ، وإن عصيت أمره أوغرت[7] صدره . ثم اتقى مع ذلك الفرح إن كان ترحا ، والاكتئاب عنده إن كان فرحا ، فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ، وكونى أشد ما تكونين له إعظاما ، يكن أشد ما يكون لك إكراما ، وأشد ما تكونين له موافقة ، يكن أطول ما تكونين له مرافقة ، واعلمى أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك ، وهواه على هواك ، فيما أحببت وكرهت .. والله متخير لك ...

(١) سريعا .
(٢) الذخر بمعنى المذخور المصون المحفوظ والمعنى حرز وحصن .
(٣) التعهد الرعاية للشىء والعناية بـه .
(٤) مشعلة لنار الغضب والغيظ .
(٥) من الرعاية .
(٦) الخدم .
(٧) أوغر صدره ووغره أغراه بحقده وكراهيته .

٢ — ومن وصية عامر بن الظرب العدوانى لقومه ، . .

يا معشر عدوان ، إن من جمع بين الحق والباطل لم يجتمعا له ، وكان الباطل أولى به ، وإن الحق لم يزل ينفر من الباطل ، ولم يزل الباطل ينفر من الحق ... يا معشر عدوان لا تشمتوا [١] بالذلة ، وتفرحوا بالعزة ، فبكل عيش يعيش الفقير مع الغنى ، ومن يرى يوماً يرى به ، إن مع السفاهة الندامة ، والعقوبة نكال [٢] وفيها دمامة ، ولليد العليا العاقبة ، والقود [٣] راحة ، لا لك ولا عليك ، وإذا شئت وجدت مثلك ، إن عليك كما أن لك ، وللكثرة الرعب ، وللصبر الغلبة ، ومن طلب شيئاً وجده ، وإن لم يجده يوشك أن يقع قريباً منه ...

٣ — والوصايا كالخطب إلا أن الخطب أوسع دائرة ، وأبعد مدى لأنها للشاهد والمجامع والأيام والمواسم والتفاخر والتنافر ، ومن الوفود فى كل مهم لدى الملوك والأمراء . والسادة والكبراء . بينما الوصايا لا تعدو قوماً مخصوصين فى أمر مخصوص كأن تصدر من سيد لعشيرته ، أو أب لبنيه ، أو امرأة لابنها ، وأكثر ما تكون عند الإحساس بدنو الأجل ، أو توقع الفرقة . وقد سما بالخطابة إلى الذروة ، ورفع من شأنها إلى الغاية أنها كانت فى السادة والرؤساء وزاد فى قدرها انتشار الأمية ، وكثرة الدواعى الباعثة عليها ، والدافعة إليها ، مثل المفاخرات والمنافرات والأخذ بالثأر ، والدعوة إلى السلم ، أو التحريض على القتال ، أو الترغيب فى الخير والتنفير من الشر ، وكذلك استعملوها فى السفارات وفى التهانى ، وفى الإملاك ـ الزواج ـ .

---

(١) الشماتة اظهارك السرور للمكروه يصيب غيرك .
(٢) عبرة ، والدمامة قبح المنظر .
(٣) القود القصاص .

وأسلوب الخطابة يتميز بالجزالة الفخمة ، والوضوح البين ، وتجنب المغالاة والبعد عن السوقى[١] من الألفاظ ، والميل إلى الازدواج أو السجع وربما اهتموا بالبراهين يستعينون بها على الالزام والإقناع ، والتسليم والإذعان ، كما اهتموا بالخيال الذى يثير الوجدان ، ويوقظ العاطفة ، وكانت رغبتهم فى القصار أكثر ، وميلهم إلى الإيجاز أشد ، وبخاصة بعد ظهور التكسب بالشعر ، الذى أزرى به ، ليكون ذلك أعون على تناقلها وتداولها ، وروايتها وحفظها ، وجريانها على الألسنة ، وانتشارها بين الناس .

---

(١) السوقة والدهماء بمعنى واحد والالفاظ المنسوبة اليهم والكلام الذى عنهم نازل فى فصاحته ، مبتذل فى بلاغته ، تاباه السادة ، وتتفاداه الخاصة .

الفصل الخامس

الشاعر المصوّر

النابغة فى الاعتذار

النابغة يعتذر إلى النعمان بن المنذر ؛ ويمدحه :

أتانى أبيت السنن أنت لمتنى ... وتلك التى أهتم منها وأنصب (١)

فبت كأن العائدات فرشن لى ... هراسا به يُعلى فراشى ويقشب (٢)

حلفت فلم أترك لنفسى ريبة ... وليس وراء الله للمرء مذهب (٣)

لئن كنت قد بلغت عنى خيانة ... لمبلغك الواشى أغش وأكذب (٤)

ولكننى كنت امرأ الى جانب ... من الأرض فيه مستراد ومذهب (٥)

ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم ... أحكم فى أموالهم وأقرب (٦)

كفعلك فى قوم أراك اصطنعتهم ... فلم ترهم فى مدح ذلك أذنبوا (٧)

---

(١) ابيت العن : من تحية الجاهلية : اى أبيت ان تاتى ما تلعن عليه او ابيت ان تلعن لكرمك . وابيت أن اكون فى جهد وعناء .

(٢) الهراس كسحاب : شجر كثير الشوك . والعائدات : الزائرات فى المرض . وفرشن لى : بسطن لى . يقشب : يخلط او يجدد .

(٣) الريبة : الشك .

(٤) الواشى : النمام المعتاد الكذب .

(٥) لى جانب : متسع من الارض وتمكن . مستراد : اقبال وأدبار ، يعنى سعة المكان وأمنه وهو يصف حاله عند الغسانيين ، وتمكنه منهم .

(٦) ملوك : هم الغسانيون الذين اكرموا وافادته لما حل بهم ، وهرب اليهم من النعمان .

(٧) يقول اذا استظنت قوما فشكروا ، فهن تراهم نبين ؟ فهذا حالى مع هؤلاء الملوك الذين مدحتهم وهذا من جيد الاعتذار .

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب[١]

فلا تتركني بالوعيد كأنني إلى الناس مطلى به القار أجرب[٢]

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب[٣]

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب[٤]

فإن أك مظلوما فعبدا ظلمته وأن تك ذا عتبى فمثلك يعتب[٥]

مغزى هذا النص :

هذا النص فى جملته أثنا عشر بيتا ، كلها فى الاعتذار ، وهو الفن الذى أجاد فيه النابغة إجادة عالية ، وأتى فيه بأرفع المعانى وأروع الأخيلة . . ونتتبع ... هنا النص بيتا يقول الشاعر :

١ — بلغنى أيها الملك العظيم أنك نسبت إلى ذنبا أتيته ، وجرما ارتكبته وهذا ما أهمنى وأقلقنى وتركنى فى نصب وشقاء ، ويدل البيت على أن النابغة أتى بسبب حقد الواشين الذين وشوا به إلى النعمان .

٢ — لم أستطع النوم ولكن الأرق والقلق لازمانى وبت حزينا كئيبا .

---

(١) المعنى : أنت بين الملوك كالشمس بين النجوم ، فاذا ظهرت غمرتهم بنور وجهك .

(٢) لوعيد : التهديد . القار : القطران .

(٣) السورة : بفتح السين وضمها ، ومعناها على الأول السطو : وعلى الثانى المنزلة والرفعة والشرف . ويتذبذب يضطرب .

(٤) استبقاه : عفا عن زلله فبقيت مودته . والشعث : الفساد والتفرق وتلم : تجمع وتضم .

(٥) العتبى : الرضا . أعتبه : أعطاه العتبى وترك ما كان يغضب عليه ، من أعتبه وحقيقته أزال عتبه . والهمزة فيه للسلب ، كما فى اشكاه أى أزال شكايته .

كأنى سقيم فرش له عواده هـذا الشجر الكثير الشوك يعلون به فراشه ويرفعونه به .

٣ — يقسم النابغة لممدوحه قسما مؤكدا لا يترك فى نفس النعمان شكا ولا يبقى بعده فى قلبه ريبة وليس بعد القسم بالله طريق لنفى التهمة وإزالة الشك .

٤ — يقسم الشاعر أن الخيانة التى تنسب إليه والذنب الذى يتهم بارتكابه إنما هو من تلفيق الوشاة وكيد الحاقدين الكاذبين العابثين ولا نصيب لكل ذلك من الصحة والواقع والحقيقة .

٥ — فإن الأمر لا يعدو أن يكون من جانب الشاعر رحلة إلى الغساسنة الذين يولون الشاعر كل عطف وخير وأمن .

٦ — وأمراء الغساسنة ملوك لكنهم أصدقاء الشاعر الذين يكرمون وفادته حين ينزل ضيفا عليهم فيقربونه منهم ويحكمونه فى أموالهم .

٧ — وهذا كما يفعل الملك النعمان نفسه مع بعض الشعراء ممن اصطفاهم لنفسه واصطنعهم لمجلسه ووقفوا عيون قصائدهم على مدحه ، فهم فى ذلك غير ملومين ولا مذنبين .

٨ — والنعمان عظيم المنزلة بين الملوك والأمراء فهو فيهم كالشمس وهم بالنسبة له كالكواكب ، إذا ظهر بضوئه ومجده ، فلا يبدو مع شمسه كوكب ولا تقاس قدرتهم بجانب قدرته .

٩ — لا تتوعدنى أيها الملك وتتركنى أمشى بين الناس قلقا حائرا منبوذا كأنى بينهم بعير أجرب طلى جلده بالنار فهم يتجنبونه وينأون عنه .

١٠ — لقد أعطاك الله أيها الملك شرفاً رفيعا وقدرة كبيرة ، تخشاه الملوك ويهابونه إذا أردت فيهم أمرا ، فكيف يكون حالى بالنسبة لهم وأنا الضيف الذليل .

١١ — ولو حاولت أن تبعد عنك كل من يذنب فى حقك ، دون أن تحاول إصلاحه وتربيته ، لما أبقيت لك صديقا ، فمن من الناس لا يخطىء ؟ .

١٢ — وهبنى مظلوما أفلست غير عبدك ظلمته ، وهبنى أعدتنى إلى مثل مكانى عندك فمثلك يفعل ذلك ويعفو عمن أساء فى حقه .

تعريف بالشاعر :

النابغة هو زياد بن معاوية بن غيظ بن مرة بن ذبيان بن قيس من مضر (٥٢٥ — ٦٠٤ م) ، وكنية النابغة أبو أمامة ، ولقب بالنابغة لنبوغه فى الشعر وهو كبير[1] دفعة واحدة ، بعد أن أحكمته التجارب ومشى به السن . وهو أحد الاشراف الذين غض الشعر منهم ، ويعد من شعراء الطبقة الأولى مع امرىء القيس وكانت تضرب له قبة بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء تعرض عليه أشعارها فيفاضل بينهم .

وكان النابغة من أشراف قومه ، ومع تكسبه بالشعر فإنه كان يعتز

(١) راجع ٣٦ الجمهرة .

بنفسه لا كما صنع الأعشى . وكان يقصد الملوك ويمدحهم فى غير ذلة فيجزلون له العطاء .. اتصل بالنعمان بن المنذر أبى قابوس ملك الحيرة الذى تولى الملك من عام (٥٨٠ — ٦٠٢ م) ومدحه بقصائد رائعة كثيرة فقربه النعمان إليه ، وصار أميرا عنده ومن ندمائه وغمره بعطائه الجزل حتى صار النابغة يأكل فى صحاف الذهب والفضة ثم غضب عليه فهرب من الحيرة قبل أن يقع فى قبضته .

وأيا ما كان سبب غضب النعمان عليه فقد كان لوشايات خصوم النابغة آثارها فى تغيير قلب النعمان وسخطه فهرب وأتى قومه ، ثم شخص إلى ملوك غسان بالشام وكانوا أعداء لملوك الحيرة فاتصل النابغة بعمرو بن الحارث الأصغر ملك غسان ومدحه ومدح أخاه النعمان وظل لديه حتى مات وملك أخوه النعمان فأقام عنده أثيرا لديه . ولكنه كان يحن إلى بلاط النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، ويرسل إلى الملك قصائد من اعتذارياته الرائعة ، يتبرأ فيها مما رمى به ويعتذر مما كان وتوالت اعتذرياته على النعمان فعفا عنه وعاد إليه وعاشره فى الحيرة .. ويقال إن النابغة استجار ببعض المقربين لدى النعمان فكلموه فى شأنه ، حتى أمنه وأمر له بمائة بعير ، ويقال إن النابغة علم بمرضه فلم يملك صبره وسار إليه فألفاه فى مرضه فمدحه ثم عفى عنه النعمان فأمنه وأقام عنده وظل النابغة عظيما مشرفا مكرما عند الملوك والأمراء ، حتى توفى عام ٦٠٤ م .

شعره وشاعريته :

شعر النابغة لطيف رقيق إذا تملكته عاطفة قوية من إشفاق أو حماسة أو رهبة كما ترى فى أهاجيه ومدائحه واعتذارياته وقيل عنه : أشعر الناس

إذا رهب وهو فى اعتذارياته حزين عميق الحزن قلق مضطرب يداخله التشاؤم واليأس الشديد ذلك كله لأن خيال الشاعر دقيق واسع يسمو إلى درجة عالية فى إكمال الصورة وإيضاح المشابهات ، يتوسع بالتشبيه ويفسح له خياله المجال فى التصوير كما فى وصفه للفرات أو غيره . ويمتاز شعره ببلوغه غاية الحسن والجودة ونقاوته من العيوب وبجودة مطالع قصائده وأواخرها وكان البدو من أهل الحجاز يحفظون شعره ويفاخرون به لحسن ديباجته وجمال رونقه وجزالة لفظه وقلة تكلفه وليس له نظير فى وصف الاحساسات النفسية كالخوف وما شابه ذلك .

ويمتاز معانيه بالدقة والانسجام والتآلف والصدق والقرب من العقل والبعد عن التعقيد والغموض مع مراعاة المخاطبين ومع البصر بمواقع الكلام .

وقد أجاد النابغة فى المدح والاعتذر والغزل والفخر إجادة بالغة كما أجاد الوصف والرثاء والحكمة إجادة دون ذلك .

وأسباب إجادته المدح معروفة ، منها حب المال وخصب الخيال وقوة الذكاء وميله إلى التجويد والتنقيح والتهذيب إلى غير ذلك من الأسباب وإجادته فى الاعتذار كذلك كان الباعث عليها الرهبة والخوف مع الرهبة والأمل أما الوصف فقد أجاد فى بعض الأوصاف دون البعض الآخر ، فأجاد فى وصف الثور والوحش والفرات وما إلى ذلك .

وقال الأصمعى : لم يكن النابغة وزهير وأوس يحسنون صفة الخيل ولكن طفيلا الغنوى أحسن فى صفة الخيل غاية الإحسان :

وقد عده بعض العلماء من شعراء المعلقات ومعلقته فى رأى بعض العلماء هى :

يادار ميـة بالعلياء فالسـند   أقوت وطال عليها سالف الأمد

وتقع فى واحد وخمسين بيتا . وهى من قصائد الاعتذاريات ، بدأها ببكاء الاطلال كالمألوف من أشعار الجاهلية ، ثم انتقل من ذلك إلى وصف ناقته ثم خلص إلى الاعتذار بأسلوب رائع .

ويروى عن حسان قصة تدل على مكان النابغة عند النعمان ، وفضله لديه على جميع الشعراء ، وحسان منهم [١] .

حضر النابغة سوق عكاظ مرة فأنشده الأعشى ثم حسان ثم شعراء آخرون ثم الخنساء فقال لها لولا أن أبا بصير أنشدنى لقلت إنك أشعر الجن والإنس ، فقال له حسان : أنا أشعر منك ومن أبيك فقال له النابغة يا ابن أخى إنك لا تحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذى هو مدركى   وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ومن روائع شعره قصيدته :

كلينى لهم يا أميمه ناصـب   وليل أقاسيه بطىء الكواكب

ومن معانيه المبتدعة قوله :

نبئت أن أبا قابوس أوعدنى   ولا قرار على زأر من الأسد

وقوله :

فلو كفى اليمين بغتك خونا   لأفردت اليمين عن الشمال

---

(١) ٣٥ و ٣٦ جمهرة اشعار العرب .

أخذه عنه المثقب العبدى فقال :

ولو أنى تخالفنى شمالى بشر لم تصاحبها يمينى

وقول النابغة :

فحملتنى ذنب امرىء وتركته كذى العر يكوى غيره وهو راتع

أخذه الكميت فقال :

ولا أكوى الصحاح براتعات بهن العر قبلى ما كوينا

وقال النابغة وهو أحسن ما قيل فى العفة :

رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب

ومن حكمه :

ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب

ومما سبق إليه قوله :

نظرت إليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العود

أخذه أبو نواس فقال :

ضعيفة كر الطرف تحسب أنها قريبة عهد بالافاقة من سقم

ومما يستحسن قوله :

حسب الخليلين نأى الأرض بينهما هذا عليها وهذا تحتها بالى

القيمة الفنية لهذا النص :

هذا النص فى الاعتذار يعد من أروع فانظمه شاعر معتذر إلى أمير من وشايات ألصقت به والنابغة يجيد فى فن الاعتذار ويجيد هنا خاصة إجادة لا يلحقه فيها أحد .

فالمعانى مختارة وحججه فى الاعتذار مهذبة كل التهذيب وعالية المنزلة فى البلاغة فهو يبدأ فيتذكر وشايات الوشاة وأثرها فى نفسه ثم يحلف الملك بكل يمين بأنه ما خانه ولا أخطأ فى مقامه وأن الذين أبلغوه ما ابلغوه فى حقه وشاة كاذبون غشاشون لا يضمرون الخير الملك نفسه ثم يعتذر عن قصده لأعداء النعمان وخصـــومه بأنهم أولوه برهم فمدحهم كما يفعل الملك مع من يقصده بالمدح والثناء وهناك يبلغ النابغة غاية الاجادة فى تهذيب الحجة وترتيبها ترتيبا منطقيا سليما ثم يدعو الملك إلى أن يقيس نفسه بغيره من الملوك منوهـــا بقدرته وسلطانه فهو كالشمس وهم الكواكب ويستعطفه غاية الاستعطاف فيصور نفسه بالبعير الأجرب المنبوذ بسبب تهديد النعمان ووعيده هذا التهديد الذى لا يقر عليه الملوك فكيف يأمن معه النابغة على حياته .

ثم يرتفع النابغة إلى قمة التجربة الإنسانية بحكمته الرفيعة ولست بمستبق إلخ » ويصور عظمة الملك وذلة نفسه فى بيته الأخير تصويرا رائعا .

إنها معان رائعة فى الاعتذار لم يهتد إليها شاعر غير النابغة ولأجل ذلك قيل أشعر الناس النابغة إذا رهب ، أى فى مقام الاعتذار .

ويحمل النص خصائص شعر النابغة كلها ، من قوة الأسلوب ، وقوة الحجة

وروعة الحكمة وعظمة التجربة وصدق الاحساس والشعور وبساطة التعبير وهو من أجل ذلك الشاعر المحلق وبلاغته فى الذروة .

ومع ذلك فالنص يحمل كثيرا من خصائص الشعر الجاهلى، الفنية والعقلية، ورعة هــذا الاعتذار هى دليل صدق على أن النابغة أعظم شعراء الاعتذار فى الأدب العربى قديمه وحديثه على السواء .

نقد القصــيدة :

١ — لا شك أن الطابع الجاهلى ظاهر فى أبيات القصيدة بوضوح ، فالجملة ، أبيت اللعن ، وتعبيره بالمراس ، وبقوله ، يقشب وتشبيه نفسه وقد تجنبته الناس لوعيد النعمان إياه بالبعير الأجرب المطلى بالقار ، كل ذلك صور جاهلية ترشد إلى عصر هذا النص .

٢ — عندما نعلم أن النص فى الاعتذار وأنه على أى حال من أجود ما قاله الشعراء فى هــذا الفن ، ندرك أننا لا بد أن نكون بين يدى شاعرية النابغة ، وخاصة أن سمات شعر النابغة هى كل سمات هذا النص الذى بين أيدينا والنابغة يمتاز شعره بصفاء الديباجة وإشراق الأســلوب وجزالة اللفظ وقلة السقط والتكلف ، وموافقته لهوى النفوس ، ولهذا لم يغن بشعر أحد مثل ما غنى به من شعره ، واعتذاره ومدحه يكثر فيهما الرقة والعذوبة وتظهر روعة شعر النابغة وتتجلى قوته حين تتماسكه عاطفة قوية من حماسة أو اشفاق أو رهبة كما نرى فى اعتذارياته طابع الحزن والقلق والحيرة ، وحسن التنصل وجميل الأدب فى الاعتذار وفى شعر النابغة صور كثيرة من بديع الكناية وجميل التشبيه ، وروائع الاستعارة ، ودقيق الخيال .

ولقد تهيأت للنابغة ولا ريب كل أسباب الشاعرية : من نشأة بدوية فى الصحراء التى تفسح الخيال ، وتلهب العاطفة ، وتذكى الشعور ، بين قوم مفطورين على البلاغة مفتونين بالفصاحة واللسن، ومن خوضه المعارك والحروب وشهوده للكثير من الخصومات القبلية وتصدره فى ميدان النقد والشعر ، ومن رحلاته ومعيشته فى بلاط الملوك . . . كل ذلك مما غذى شاعريته ، وأجج ملكته وفتق أكمام موهبته ، وجعله من أعلام الشعر الجاهلى ، ولقد كان النابغة من جملة الشعراء الذين كانوا يهذبون أشعارهم ويختارون ألفاظهم ويجودون قصائدهم طمعا فى عصافير المدوحين ورغبة فى عطائهم ومن ثم كان هو وزهير والأعشى ثم الحطيئة « من عبيد الشعر » ومن المصنعين فيه .

مصادر لدراسة النابغة

١ — الأغانى ٩ : ١٦٢

٢ — الشعر والشعراء لابن قتيبه

٣ — أشعار الشعراء الستة الجاهليين

٤ — الروائع عدد ٣٠

٥ — رجال المعلقات العشر

٦ — النابغة لجميل سلطان .

٧ — النابغة لعمر الدسوقى .

٨ — النابغة لسليم الجندى .

٩ — النابغة لحنا نمر — من سلسلة الطرائف عدد ١٢ .

١٠ — الأدب الجاهلى .

١١ — الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى المؤلف .

١٢ — تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان .

الفصل السادس

شاعر الحرب والنزال

عنترة فى وصف المعركة

يقول عنترة فى وصف المعركة والحرب :

لما رأيت القـوم أقبل جمعهم   يتذامرون كررت غير مذمم[١]

يدعون عنـتر والرماح كأنها   أشطان بئر فى لبان الأدهم[٢]

مازلت أرميهم بثغرة نحره   ولبانـه حتى تسربل بالدم[٣]

فازور من وقـع القنا بلبانه   وشكى إلى بعبرة وتحمحم[٤]

لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى   ولكان لو علم الكلام مكلمى[٥]

ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها   قيل الفوارس ويك عنتر أقدمى[٦]

والخيـل تقتحم الخبار عوابسا   من بين شيظمة وأجـرد شيظم[٧]

---

(١) يتذامرون : يحض بعضهم بعضا على القتال .

(٢) عنتر : أى يا عنتر على حذف التاء للترخيم . والاشطان جمع شطن ، وهى الحبال الطويلة الشديدة الفتل ، واللبان : الصدر ، والادهم فرسه .

(٣) ثغرة النحر : هى النقرة التى تكون فى أعلى الصدر . تسربل : تغطى.

(٤) العبرة تردد البكاء فى الصدر قبل ان تفيض الدمعة . التحمحم الصوت المتقطع دون الصهيل .

(٥) المحـاورة : الخطـاب .

(٦) ويك كلمة مركبة من وى وكاف الخطاب ووى للتعجب كأنهم قالوا عجبا لك أقدم أو هى مخففة من ويلك .

(٧) الخبار : الأرض اللينة . الشيظمة : الطويل من الخيل .

منزلة هذا النبض من معلقة عنترة :

معلقة عنترة التى مطلعها :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟[١]

هى أجود شعره وكانت العرب تسميها الذهبية والمذهبة ، وهى من روائع الشعر العربى القديم .

بدأها عنترة بالغزل الذى أبدع فيه غاية الإبداع كما فى قوله :

يا دار عبلة بالجواء تكلمى وعمى صباحا دار عبلة واسلمى

ثم يستطرد إلى وصف الروضة فيقول فيما يقول :

وخلا الذباب بها فليس ببارح غردا كفعل الشارب المترنم

ثم يصف ناقته فى أبيات غريبة كأبيات طرفة ، وينتقل إلى الفخر بنفسه وشجاعته :

أثنى على بما علمت فإننى سهل مخالطتى إذا لم أظلم

فإذا ظلمت فإن ظلمى باسل مر مذاقته كطعم الحنظل

ويختمها بتهديد ابنى ضمضم الذين كانا قد نذرا دمه وتربصا له لأنه قتل أباهما فى الحرب :

---

(١) غادر بمعنى ترك . المتردم : اسم مفعول من تردم ثوبه بمعنى أصلحه ورقعه . التوهم : الظن .

الشـــاتمى عرضى ولم أشتمـا　　والناذرين إذا لم القهمـــا دمى
إن يفعلا فلقد تركت أباهما　　جزر السباع وكل نسر قشعم(١)

والذى يتناول معلقة عنترة بالدراسة يصادفه أبيات من أروع ما يـكون الوصف ، وأجود ما يـكون التصوير . . منها فى وصف الروضة :

ولقد مررت بدار عبـــلة بعدما　　لعب الربيع بربعهـــا المتوسم
جادت عليه كل عـــين ثرة　　فتركن كل قـــرارة كالدرهم(٢)
سحاً وتسكابا فكل عشية　　يجرى عليها المـــاء لم يتصرم
وخلا الذباب بها فليس ببارح　　غردا كفعل الشـــارب المترنم
هزجاً يحك ذراعه بذراعـه　　قدح المكب على الزناد الأجذم(٣)

ويصف فرسه الذى خاض به المعركة فيقول :

مازلت أرميهم بثغرة نحـــره　　ولبانه حتى تسربــــل بالدم
فازور من وقـــع القنا بلبانه　　وشكا إلى بعـــبرة وتحمحم(٤)
لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى　　ولـكان لو عـلم الـكلام مكلمى
والخيل تقتحم الخبـار عوابساً　　ما بين شيظمة وأجرد شيظم(٥)

---

(١) جزر السباع أى فريسة لها . القشعم من النسور : النسر الكبير .
(٢) كالدرهم فى استدارته ولمعانه فيه .
(٣) الاجذم : الذى به مرض الجذام فهو ناقص طول اليد .
(٤) لبانه : صدره ، تحمحم : عطف ورقة لأمله فيه .
(٥) الخبار الأرض اللينة ، والشيظم الطويل من الخيل .

مغزى النص :

فى هذا النص يصف عنترة المعركة والتحام الجيوش فيها ، وموقفه بفرسه منها ، وإقدامه فى وسط المعمعة شجاعا مقداما جريئا لا يهاب ولا يخاف ، وصفا رائعا جميلا دقيقا مصورا ؛ وفن الحماسة ، أو الشعر الحماسى ، هو الفن الذى أجاده عنترة وبلغ فيه الذروة ، وارتفع فيه إلى قمة البلاغة ، يقول الشاعر فى هذا النص :

١ — حين شاهدت جيش الأعداء مقبلا يحض بعضهم بعضا على القتال أسرعت بفرسى إلى خوض غمار المعركة غير هياب ولا خائف ولا جبان .

٢ — وإن الأبطال والجنود فى وسط النضال ليعرفون عنترة ، ويعرفون حماسته وشجاعته ، فهم ينادونه ويهتفون باسمه ، ويتعجبون لفرط شجاعته ، وهو على فرسه الأدهم تمتد إليه الرماح مشرعات طوالا كأنها حبال البئر البعيدة القاع ، فتصل إلى صدر فرسه ، ولكن عنترة بشجاعته يجعلها لا تناله ، وهو لا يهابها كذلك .

٣ — ولم أزل مشرع الرمح والسيف وسط المعركة أرمى الأعداء برأس الأدهم وصدره حتى خضبته الدماء من كل جانب . . وذلك كله كنايات ساذجة عن اشتداد النضال ، واحتدام القتال .

٤ — ولقد سار الفرس معى فى المعركة طويلا حتى فزع لهولها ، واضطرب لشدتها ، ونأى بصدره من شدة ما وقع عليه من ضرب بالسيوف والرماح ، بل أخذ يشكو بصهيله إلى والدموع تدور فى مآقيه ، وصوته الحزين يخرج من قلبه المكلوم .

٥ ــ ولو كان الفرس يعرف كيف يخاطبنى لا شتكى إلى ما هو فيه ، ولو كان يعرف الكلام لتكلم باكيا شاكيا حزينا .

٦ ــ ولكن الشىء الذى كان يعزينى فى المعركة هو تقدير الأبطال وهتافهم باسمى ، ونداؤهم لى ، وقولهم عجبا لك يا عنترة ولحماستك وشجاعتك وقلبك الجرىء ، استمر فى بسالتك ، وفى إقدامك وفرط شجاعتك .

٧ ــ والخيل فى المعركة تصول وتجول وتكر وتفر من إناث وذكور ، فهى تقتحم الرمال اللينة فى الصحراء اقتحاما ليس مثله اقتحام ؛ عابسة مكشرة عن أنيابها ، لا تكل ولا تمل ، دون خوف أو اضطراب .

دلالة النص :

والنص يمثل عنترة تمام التمثيل فى حماسته وشجاعته وإقدامه وبسالته ، وحبه للحرب ، واقتحامه لأهوالها ، ومخاطراته بنفسه فيها ، دون تردد أو وجل ، والصورة صورة القتال فى العصر الجاهلى ، هذا القتال الذى يدور حول اقتحام الجنود والقواد وسط أرض المعركة دون نظام أو ترتيب أو تصفيف ، وقائد كل فريق من فرق المقاتلين يحارب فى أرض المعركة ببسالة ، دون جزع أو فزع أو خور . . والنص يمثل كذلك روح العربى الجاهلى وعقله الساذج ، وبساطته فى الفهم والتصور ، فهو يدخل المعركة لأن أعداءه دخلوها ، وهو يقف فى وسطها لأن المحاربين يهتفون باسمه ويدعونه حين احتدامها ، وهو يكر عليهم بفرسه مقدما جريئا غير هياب ولا مذعور ، والفرس يجول ويدور فى أرض المعركة حتى أضناه النصب وأتعبه القتال فشكا وبكى وحمحم بصوته حمحمة المناضل المكدود ، والفرس لو استطاع الحديث لتحدث ، ولو استطاع

الكلام لتكلم عن هول المعركة وما قاساه فيها . ولكن الشيء الذى يبعث السرور والنشاط فى قلب الشاعر البطل فى أرض المعركة هتاف الفوارس باسم عنترة وإعجابهم بشجاعته ، ودعاؤهم لعنترة بأن يستمر فى إقدامه ونضاله .

صور كلها ساذجة ملائمة للعقل العربى فى جاهليته ولطبيعة الفن العسكرى الذى كان سائدا فى أرض العرب آنذاك .

وهى صور كلها تدل على العصر الجاهلى ، وعلى عنترة بالذات شاعر الحماسة والقتال والمعارك والنزال .

وعنترة هـــو القائل يصور حبه للحرب وإقدامه فيها فى عذوبة وسهولة نادرتين :

دعنى أجد إلى العلياء[1] فى الطلب	وأبلغ الغاية القصوى من الرتب
لعـــل عبلة تضحى وهى راضية	على سوادى وتمحو صورة الغضب
إذا رأت سائر السادات[2] سائرة	تزور شعرى بركن البيت فى رجب
يا عبل قومى انظرى فعلى ولا تسلى	عنى الحسود الذى ينبيك بالكذب
إن أقبلت حدق[3] الفرسان ترمقنى	وكل مقدام حرب مال للهرب
فما تركت لهم وجهـــا لمنهزم	ولا طريقا ينجيهم من العطب[4]

---

(١) أصل العلياء المكان المشرف ويقصـــد بها ما وراء الســـؤدد والشـرف من الأمور المكتسبة بالجد والتحصيل .

(٢) جمع سادة وهم رؤوس الناس وسراتهم .

(٣) واحدتها الحدقة ، والرمق النظر .

فبادرى وانظرى طعنا إذا نظرت ... عين الوليد إليه شاب وهو صبى

خلقت للحرب أحميها إذا بردت ... وأصطلى نارها فى شدة اللهب

بصارم[1] حيثما جردته سجدت ... له جبابرة الأعجام والعرب

وقد طلبت من العلياء منزلة ... بصارمى لا بأمى لا ولا بأبى

فمن أجاب نجا مما يحاذره ... ومن أبى ذاق طعم الحرب والحرب[2]

عنترة الشاعر :

قال صاحب الأغانى : هو عنترة بن شداد ، وقيل : ابن عمرو بن شداد ، وقيل عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية من بنى عبس بن بغيض من غطفان ابن سعد من قيس عيلان بن مضر . وأمه أمة حبشية يقال لها زبيبة ، وقد كان شداد نفاه مرة ، ثم اعترف به فألحقه بنسبه ، وكانت العرب تفعل ذلك: تستعبد بنى الاماء ، فإن أنجب اعترف به ، وإلا بقى عبدا . ورث عنترة لون السواد من أمه زبيبة ، ولذلك عدوه من أغربة العرب وسودانها ، وكان يلقب بعنترة الفلحاء : لتشقق السفلى . وكان من فرسان العرب المعدودين المشهورين بالنجدة ، وكان يقال له عنترة الفوارس . قال ابن قتيبة : كان عنترة من أشد أهل زمانه ، وأجودهم بما ملكت يداه . وقال وقد سأله بعضهم : أنت أشجع العرب وأشدها ؟ فقال : لا : قال فيم شاع لك هذا ؟ قال : كنت أقدم إذا رأيت الاقدام عزما ، وأحجم إذا رأيت الأحجام حزما ، ولا أدخل

(١) الصارم : السيف .
(٢) الحرب بفتح الحاء والراء : الهلاك .

موضعا لا أرى لى منه مخرجا ، وكنت أعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة ، يطير لها قلب الشجاع ، فأثنى عليه فأقتله . وكان عمرو بن معد يكرب يقول : ما أبالى من لقيت من فرسان العرب مالم يلقنى حراها وعبداها يعنى بالحرين : عامر بن الطفيل ، وعتبة بن الحارث بن شهاب . وبالعبدين : عنترة والسليك بن السلكة : قال ابن قتيبة : وهو قتل ضمضما المرى فى حرب داحس والغبراء .. وكان من حديث عنترة أن أمه كانت أمة حبشية تدعى زبيبة فوقع عليها أبوه ، فأتت به ، فقال لأولاده : إن هـذا الغلام ولدى . قالوا : كذبت ، أنت شيخ قـد خرفت ، تدعى أولاد الناس . فلما شب قالوا له اذهب فارع الإبل والغنم ، وأحلب وصر . فانطلق يرعى ، وباع منها ذودا ، واشترى بثمنه سيفا ورمحا ، وترسا ودرعا ومغفرا ، ودفنها فى الرمل ، وكان له مهر يسقيه ألبان الإبل .

وجاء عنترة ذات يوم إلى الماء فلم يجد أحدا من الحى ، فبهت وتحير ، ثم عمد إلى سلاحه ، فأخرجه وإلى مهره فأسرجه ، وأتبع القوم الذين سبوا أهله ، فكر عليهم ، ففرق جمعهم ، وقتل منهم ثمانية نفر ، فقالوا له : ما تريد ؟ قال أريد العجوز السوداء والشيخ الذى معها ، يعنى أباه وأمه ، فردوها عليه ، فقال له عمه : يا بنى كر . فقال : العبد لا يكر ، لكن يحلب ويصر . فأعاد عليه القول ثلاثا ، وهو يجيبه كذلك. قال له : إنك ابن أخى، وقد زوجتك ابنتى عبلة ، فصرع منهم عشرة . فقالوا له ما تريد ؟ قال : الشيخ والجارية ، يعنى عمه وابنته ، فردوها عليه . ثم قال : إنه لقبيح أن أرجع عنكم وجيرانى فى أيديكم ، فأبوا فكر عليهم حتى صرع منهم أربعين رجلا : قتلى وجرحى ، فردوا عليه جيرانه ، فأنشد هذه القصيدة :

هـل غادر الشعراء من متردم

وكان عنترة من أشجع الفرسان ، وأجود العرب بما ملكت يداه ، وكان لا يقول من الشعر إلا البيتين والثلاثة ، حتى سبه رجل فذكر سواده أمه وأنه لا يقول الشعر : فقال عنترة : والله إن الناس يرفدون الطعام فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك مرفد الناس ، وإن الناس ليدعون فى الغارات فيعرفون بتسويمهم فما رأيتك فى خيل مغيرة فى أوائل الناس قط ، وأن اللبس ليكون بيننا فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك خطة فصل، وإنى لأحضر اللبس وأوفى المغنم وأعف عند المسألة وأجود بما ملكت يدى وأفصل الخطة الصماء ، وأما الشعر فستعلم ، فكان أول ما قاله معلقته المشهورة : (هل غادر الشعراء) . وحضر عنترة حرب داحس والغبراء ، وحسن فيها بلاؤه ، وحمدت مشاهده ، وعاش طويلا حتى كبر ومات نحو عام ٦١٥ م .

بواعث شاعريته :

كانت البيئة العربية ، والخصومات القبلية والحروب المستمرة ، والمنافسة بين عنترة وأقرانه من الشعراء ، وحبه لعبلة ابنة عمه ، وغير ذلك من الأمور ، من بواعث شاعريته ، وملهمات قريحته ، حيث هاج كل ذلك من ملكاته ، وفجر ينابيع الشعر فى نفسه .

ويمتاز شعره بعذوبة الأسلوب وسهولة اللفظ ورقة المعنى ، ومعلقته تسميها العرب المذهبة ، وهى من أجود المعلقات ، وأكثرها انسجاما وأبدعها وصفا وأشدها حماسة ، وفخرا ، وله متانة الفخر ، وحلاوة الغزل .

وقد ذكره أبو عبيدة فى الطبقة الثالثة من شعراء الجاهلية ، وعده صاحب

الجمهرة ثانى أصحاب الجمهرات ، قال : وقد أدركنا أكثر أهل العلم يقولون : إن بعدهن (أى بعد السموط والمعلقات) سبعا ماهن بدونهن ، ولقد تلا أصحابهم أصحاب الأوائل فما قصروا وهى الجمهرات : لعبيد بن الأبرص، وعنترة ، وعدى بن زيد ، وبشر بن أبى حازم ، وأمية بن أبى الصلت وخداش بن زهير ، والنمر بن تولب .

ومن روائع شعر عنترة قوله :

ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكل

وأنشد رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا البيت فقال : ما وصف أعرابى قط فأحببت أن أراه إلا عنترة . ومما سبق إليه ولم ينازع فيه قوله :

إنى امرؤ من خير عبس منصبا شطرى وأحمى سائرى بالمنصل

وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت ألفيت خيرا من معم مخول

ومن مبالغته الشديدة قوله :

وأنا المنية فى المواطن كلها والطعن منى سابق الآجال

مصادر لدراسة عنترة

١ — أشعار الشعراء الستة الجاهليين .

٢ — الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى للمؤلف .

٣ — الأدب الجاهلى لطه حسين .

٤ — بحوث فى الأدب الجاهلى .

٥ — شرح ديوان عنترة .

٦ — الأغــانى ٧ : ١٤٨ .

٧ — فارس عبس لحسن قرشى .

٨ — شعراء النصرانية .

٩ — الجمهــرة .

١٠ — تاريخ الآداب العربية لجورجى زيدان .

١١ — شرح القصائد العشر .

١٢ — رجال المعلقات العشر .

١٣ — الروائع عدد ٢٧ لفؤاد البستانى .

١٤ — الشعر والشعراء لابن قتيبة .

الفصل السابع

شاعر المجد العربى

لبيد يفتخر بقومه وبأحسابهم

قال لبيد العامرى من معلقته :

من معشر سنت لهم آباؤهم   ولكل قوم سنة وإمامها
لا يطبعون ولا يبور فعالهم   إذ لا يميل مع الهوى أحلامها[1]
فاقنع بما قسم المليك فإنما   قسم الخلائق بيننا علامها
وإذا الأمانة قسمت فى معشر   أوفى بأوفر حظنا قسامها
فبنى لنا بيتا رفيعا سمكه   فسما إليه كهلها وغلامها
وهم السعاة إذا العشيرة أفظعت[2]   وهم فوارسها وهم حكامها
وهم ربيع للمجاور فيهم   والمرملات إذا تطاول عامها
وهم العشيرة إن يبطئ حاسد   أو أن يميل مع العدو لئامها

موضع هذا النص من معلقة لبيد :

هذا النص هو للبيد العامرى من شعراء الجاهلية وفرسانهم قال الشعر فى كل غرض ، وأدرك الإسلام وأسلم وهجر الشعر وأقام بالكوفة إلى أن مات عام ٤١ هـ .

---

(١) يطبعون : يبخلون : يبور : يخيب .
(٢) أى وقعت فى أمر فظيع من داهية أو شدة أو سواها .

وهو من أصحاب المعلقات ، ومعلقته التى منها هذا النص مطلعها :

عفت الديار محلهـــا فمقامهـا   بمنى تأبد غولهـــا فرجامها(١)

وهى مشهورة ، وقد بدأها بوصف الديار والاطلال ثم تحدث عن حبيبته نوار :

بل ما تذكر من نوار وقد نأت   وتقطعت أســبابها ورمامها(٢)

ثم يأخذ فى وصف ناقته فى ألفاظ غريبة ، حتى إذا ما انتهى من هــذا الوصف الطويل عاد إلى نوار معاتبا لائما غاضبا :

أو لم تكن تدرى نـــوار بأننى   وصال عقد حبائل جذامها(٣)

ثم يتحدث عن نفسه ولهوه وشجاعته، وكرمه ، ويفخر : بقومه وأحسابهم ومآثرهم فى نهاية القصيدة إلى خاتمتها .

ومعلقة لبيد حافلة بغريب اللغة ، ونادر الألفاظ ، وعجيب الصور . وهذه القصيدة بدأها بقوله بذكر عفاء الديار ورسومها :

عفت الديـــار محلهـــا فمقامها   بمـــنى تأبد غولها فرجامها(٤)

---

(١) عفت : درست ـ المحل والمقام : موضع الحلول والاقامة · منى موضع · تابد : توحش · الغول : ماء معروف · الرجام : مكان ·

(٢) نوار : اسم حبيبته · الرمام : جمع رمة وهى قطعة من الحبل البالى · يريد أن الوصل تقطعت به الأســـباب ·

(٣) أى قطاعها : مبالغة فى القطـع ·

(٤) تابد : توحش ، والغول والرجام جبـــلان ·

فمدافع الريان عرى رسمها   خلقا كما ضمن الوحى سلامها(١)

وجلا السيول عن الطلول كأنها   زبر تجد متونها أقلامها(٢)

فوقفت أسألها وكيف سؤالنا   صما خوالد ما يبين كلامها(٣)

ثم يصف رحيل أحبابه عنها حتى يقول :

بل ما تذكر من (نوار) وقد نأت   وتقطعت أسبابها ورمامها(٤)

مرية حلت بفيد ، وجاورت   أهل الحجاز ، فأين منك مرامها(٥)

ويرى أن يقطع أمله منها ويترك رجاءه فيها ما دامت نوار قد تغير وصلها ،

ثم يصف الناقة : فيشبهها تارة بحمار الوحش ، فيقول :

بطليح أسفار تركن بقية   منها فأحنق صلبها وسنامها(٦)

وإذ تغالى لحمها وتحسرت   وتقطعت بعد الكلال خدامها(٧)

---

(١) مدافع الريان : مساقط المياه ، والريان جبل . الوحى : الكتابة جمع وحى . والسلام بالكسر جمع سلمة بكسر اللام : الحجارة .

(٢) الزبر : الكتب .

(٣) خوالد : بواقى .

(٤) نوار : اسم حبيبته . الرمام جمع رمة وهى القطعة من الحل البالى . يريد ان الوصل تقطعت به الأسباب .

(٥) مرية . تنسب الى مرة بن عوف وفيد موضع فى طريق مكة ، مرامها منالها .

(٦) طليح أسفار : ملازم لها . أحنق ضمر .

(٧) تغالى ارتفع الى رؤس العظام تحسرت عريت عن اللحم ، الخدام جمع خدمة وهى سيور تشد بها النعال الى أرساغ الابل .

فلها هبات فى الزمام كأنها صهباء خف مع الجنوب جهامها(١)

أو ملمح وسقت لأحقب لاحه طود الفحول وضربها وكدامها(٢)

يعلو بها حدب الأكام مسجح قد رابه عصيانها ووحامها(٣)

ثم يصف رحيل أحبابه عنها حتى يقول :

بل ما تذكر من «نوار» وقدنأت وتقطعت أسبابها ورمامها(٤)

مرية حلت بفيد ، وجاورت أهل الحجاز ، فأين منك مرامها(٥)

ويرى أن يقطع أمله منها ويترك رجاءه فيها ما دامت نوار قد تغير وصلها :

فاقطع لبانة من تعرض وصله ولشر واصل خلة صرامها(٦)

ثم يصف الناقة : فيشبهها تارة بحمارة الوحش ، فيقول :

بطليح أسفار تركن بقية منها فأحنق صلبها وسنامها(٧)

---

(١) الهبات ، النشاط ، الصهباء سحابة حمراء خف : أسرع . الجهـام ، السحاب الذى لا ماء فيه .

(٢) الملمـح ، الاتان التى احتفـل طبياهـا باللبن . الاحقب العير فى وركيه بياض . لاحه غيره وأهزله ، أى أنها تشبه الاتان التى يسوقها عير احقب شديد الغيرة عليها من الفحول المطاردة .

(٣) مسجح أى مخدوش . الوحام اشهاء الحبـل .

(٤) نوار : اسم حبيبته . الرمام جمع رمة وهى القطعة من الحبل البالى. يريد أن الوصل تقطعت به الأسباب .

(٥) مرية . تنسب الى مرة بن عوف ، فيد موضع فى طريق مكة ، مرامها منالهـا .

(٦) اللبانة الحاجة ، تعرض ، تغير . الخلة بضم الخاء الصداقة .

(٧) طليح أسفار : ملازم لها . أحنق ضـمر .

وإذ تغالى لحمها وتحسرت ... وتقطعت بعد الكلال خدامها(١)

فلها هبات فى الزمام كأنها ... صهباء خف مع الجنوب جهامها(٢)

أو ملمع وسقت لأحقب لاحه ... طرد الفحول وضربها وكدامها(٣)

يعلو بها حدب الأكام مسجح ... قد رابه عصيانها ووحامها(٤)

وتارة يشبهها بالبقرة الوحشية التى افترس السبع ولدها ، فأسرعت فى السير تطلبه فيقول :

أفتلك أم وحشية مسبوعة ... خذلت وهادية الصوار قوامها(٥)

خنساء ضيعت الفرير فلم يرم ... عرض الشقائق طوفها وبغامها(٦)

صادفن منها غرة فأصبنها ... إن المنايا لا تطيش سهامها

ثم خلص إلى الفخر بنفسه والتحدث إلى (نوار) حيث يقول :

---

(١) تغالى ارتفع الى رءوس العظام ، تحسرت ! عريت عن اللحم ، الخدام جمع خدمة وهى سيور تشد بها النعال الى أرساغ الابل .

(٢) الهبات ، النشاط . الصهباء سحابة حمراء . خف : أسرع . الجهام ، السحاب الذى لا ماء فيه .

(٣) الملمع ، الأتان التى احتفل طبياها باللبن . وسقت : حملت . الأحقب العير فى وركية بياض . لاحه ، غيره وأهزله . أى أنها تشبه الأتيان التى يسوقها عير أحقب شديد الغيرة عليها من الفحول المطاردة .

(٤) مسجح أى مخدوش . الوحام ! اشتهاء الحبل .

(٥) مسبوعة ! أصابعها السبع . الهادية المتقدمة والصوار القطيع من البقر.

(٦) الخنساء من الخنس وهو تاخر فى أرنبة الأنف . الفرير ولدها . الشقائق أماكن صلبة من الأرض .

أو لم تكن تدرى نوار بأننى وصال عقد حبائل جذامها(١)

تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يعتلق بعض النفوس حمامها

بل أنت لاتدرين كم من ليلة طلق لذيذ لهوها وندامها(٢)

أغلى السباء بكل أدكن عاتق أو جونة قدحت وفض ختامها(٣)

ثم يصف نفسه بالشجاعة :

وكثيرة غرباؤها مجهولة ترجى نوافلها ويخشى ذامها

غلب ، تشذر بالذحول ، كأنها جن البدى رواسيا أقدامها

أنكرت باطلها ، وبؤت بحقها عندى ، ولم يفخر على كرامها(٤)

ثم يصف نفسه وخلقه :

---

(١) الجذام ، القطاع ، والحبائل جمع حبالة : مصيدة الصائد وشركه . وهذا البيت وما بعده من الأبيات يتحدث بها عن مفاخر نفسه ومآثر قومه :

(٢) التفت فى كلامه الى نوار وقال ! (بل أنت ... البيت) والليلة الطلق التى لا حرولا برد فيها يؤذيان ، والندلم ! المنادمة .

(٣) السباء ، شراء الخمر وجلبها ، ولا يستعمل لشراء غيرها . والأدكن : يريد به زق الخمر لأنه أغبر ، والعاتق القديم والجونة (بفتح الجيم) السوداء يريد بها الخابية ، وقد حت وفض ختامها ، واحد .

(٤) فى هذه الأبيات الثلاثة يصف نفسه بالشجاعة والانتصاف من الاعداء الأقوياء قال (وكثيرة غرياؤها مجهولة) أى ورب كتيبة كثيرة الغرباء لما يحضرها من ألوان الناس مجهولة العاقبة ، ونوافلها غنائمها والنصر فيها ، وذامها عيبها وعار هزيمتها ، وغلب جمع أغلب وهو الغليظالعنق كناية عن قوة البدين ، بالدخول تتهدد وتتوعد بالاحقاد والثارات . والبدى هنا : واد لبنى عامر يحسب أنه كان موحشا ، وبؤت بحقها انصرفت به .

وجزور أيسار دعوى لحتفها   بمغالق متشابه أجسامها(١)

أدعو بهم لعاقر أو مطفل   بذلت لجيران الجميع لحامها(٢)

فالضيف والجـار الجنيب كأنما   هبطا تبالة مخصبا أهضامها(٣)

تأوى إلى الأطناب كل رذية   مثل البلية قالص أقدامها(٤)

ويـكللون إذا الرياح تناوحت   خلجا ، تمد شوارعا أيتامها(٥)

ثم يفتخر بقومه ومآثرهم وشرفهم ومجدهم فيقول :

من معشر سنت لهم آباؤهم   ولـكل قوم سنة وإمامها

إلى آخر القصيدة :

مغزى هـذا النص :

وللنص الذى اخترناه هنا مو موضع الحديث :

---

(١) يصف فى الأبيات الخمسة الآتية نفسه بأنه متلاف للمال يلعب الميسر بالجزور ويطعم لحومها الجيران والضيفان والارامل والايتام وكان ذلك عندهم من الكرم والفتوة . والمعالق : القـداح .

(٢) (لعاقر أو مطفل) أى للعب بها على جزور عاقر فتكون سمينة أو لجذور ذات طفل فتكون أغلى ثمنا ولحامها جمع لحم .

(٣) تبـالة بـلد بين اليمن والحجاز .

(٤) الاطناب جمع طنب وهى حبال الخيام ، والرذية المرأة الضعيفة جوعا أو الارملة البائسة ، والبلية فى الأصل الناقة يموت صاحبها ، والاهدام جمع هدم وهو الثوب الخلق البالى .

(٥) الخلج هنا الجفان الكبيرة ، وتمد أى يزاد فيها ، وشوارعا نعت للخلج والشوارع النوق ترد الشريعة وهى منهل الماء ويريد بها هنا اليتامى من الناس .

(ا) فمن حيث ذاتية الشاعر نجد أنه يفتخر فيه بقومه وأحسابهم بعد أن افتخر بنفسه . .

ويغلب على الظن أن الفخر هو الغرض الأصيل من المعلقة ، وأن الشاعر نظمها ليفتخر فيها بنفسه وعشيرته ، ومن ثم بدأها بذكر الاطلال ثم بالغزل ، ثم استطرد إلى وصف الناقة التى يسرى بالارتحال عليها عن نفسه الهموم والاحزان ، ثم عاد إلى الحديث عن حبه وشجاعته وكرمه ، ثم افتخر بأحساب قبيلته فى نهاية القصيدة .

(ب) ومن حيث المدلول القبلى للنص فإن الفخر بالقبيلة واحسابها جزء من كيان للشاعر الجاهلى وأخلاقه وطبعه وتقاليده ، لأن ذلك أساس الحياة الاجتماعية لديهم ، وكان لبيد من أرومة عظيمة ماجدة فى المجتمع العربى الجاهلى ، وهو أولى الشعراء بأن يفتخر بهذه الأرومة ، ويتحدث عن شمائل أهله المعطرة بأريج المجد والحمد .

(ج) ومن حيث المغزى البدوى الجاهلى لهذا النص ، فإن جو الأبيات وروحها ولحواها ، كل ذلك يرشد إلى البادية التى ولد ونشأ وعاش فيها لبيد ، وإلى العصر الجاهلى الذى أظله قبل دخوله فى الإسلام ، فإن اتخاذ الحسب مادة للفخر دون الكفاية والذاتية والعمل والخلق عنصر أصيل فى المجتمع البدوى الجاهلى ، والعرب جميعا فى العصر الجاهلى كانت تظلهم روح البداوة سواء من عاش منهم فى البادية ، ومن عاش منهم فى القرى العربية كما يطلق عليها هذا الاسم ابن سلام فى كتابه طبقات الشعراء أو الحواضر العربية كما يسميها كثير من الباحثين . . . وأن كانت لا تصل إلى منزلة مدننا اليوم ، هذه المدن الجامعة لأسباب المدنية والحضارة مما لم يتوافر مثله لأى مجتمع قديم .

(د) ومن حيث المغزى الفنى لهذا النص ، فإن الشاعر يتحدث :

١ — فى البيت الأول عن أنه سليل هؤلاء الأقوام الكرام العظام ، الذين أرست لهم أجدادهم معالم التقاليد والأخلاق والطموح إلى المجد ، فهم الذين أناروا له الطريق ، وسنوا له الطموح إلى المجد والعزة ، ولكل قوم تقاليد طيبة سنها لهم آباؤهم وأجدادهم وهداتهم ومرشدوهم .

٢ — وفى البيت الثانى يذكر الشاعر أن قومه ليسوا بخلاء ولا تخيب مساعيهم الجليلة ، وأعمالهم الكريمة ، ولا تميل عقولهم الراجحة مع الهوى والشهوات والأغراض الصغيرة .

٣ — وفى البيت الثالث يقول لكل إنسان من خصومه ومنافسيه .. اقنع أيها الرجل بقضاء الله فقد خلقك وقومك فى الطبقة التى أنت منها وخلقنى أنا وقومى من الطبقة التى تتحدث عنها إليك ، وقد قسم الله العلام الحظوظ والمنازل والدرجات بين الناس وهذا تفكير إقطاعى بلغتنا اليوم أو قل إنه تفكير جاهلى بعيد عن روح الإسلام وأصول دعوته التى تجعل الناس جميعا سواء فقيرهم وغنيهم وضعيفهم وشريفهم عجميهم وعربيهم .

وليس هذا بنظير الآية الكريمة .. « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات » إذ منشأ ذلك وسببه العمل والكفاية وليس فى تفاوت الأرزاق والحظوظ ووجوب الإيمان بأن ذلك من الله ، شىء يتصل بالبيت الذى نحن بصدده لأن الإسلام حرم الادلال على الفقير بفضل الله ويجعل أساس الفخر كله هو العمل .

٤ — وفى البيت الرابع يذكر الشاعر أن قومه أوفر العرب نصيبا من حفظ الايمان والوفاء بها ، أو من المآثر العربية والهيمنة على غيرهم من الناس ،

على تشبيه ذلك بالأمانة على معنى قريب أو بعيد من معنى الامـــانة فى الآية الـكريمة « إنا عرضنا الإمانة على السموات والأرض والجبال » إذ الأمانة فى معناها : الشريعة أو تحمل مسئولية الحياة أمام الله عز وجل .

٥ — وفى البيت الخامس يذكر الشاعر أن الله عز وجل رفع من شأن قومه ومنحهم وحدهم الشرف والحسب والمجد ، فبيت مجدهم العظيم هو بانيه ورافعه ، هـذا البيت الذى يسمو إليه من القبيلة الشيخ الهرم والطفل والغلام على حد سواء ، والبيت شبيه يقول الفرزدق . .

إن الذى سمك السماء بـنى لنا بيتا دعائمـه أعز وأطـول

وإن كان بيت الفرزدق أعلى منزلة فى البلاغة من بيت لبيد ، إذ قدم الفرزدق ذكر عظمة مجدهم وسر هذه العظمة ، لأن الذى صنع هذه العظمة وخلقها هو الذى خلق السماء ورفعها ، وبالغ الفرزدق فى وصف هذا البيت بأن دعائمه عزيزة طويلة ، فهو أثبت فى مجال الحمد والفخر والشرف ، وأكثر سمودا للحوادث والمحن والأيام ، ولا يوجد ذلك فى بيت لبيد ، وزاد لبيد على الفرزدق بأن هذا البيت يسمو إليه الشيخ والطفل من القبيلة .

٦ — وفى البيت السادس يذكر لبيد أن قومه هم الساعون بأمر القبيلة والعشيرة إذا هى وقعت فى مشكلة أو أصيبت بمحنة وشدة ، وهم كذلك قوادها وحكامها .

٧ — وفى البيت السابع يصفهم بأنهم الربيع للناس الذين يجاورنهم من العامة والفقراء ومن النازلين فى حماهم كذلك ، بكل ما تحمله كلمة الربيع من

خير وخصب وكرم وسخاء ، وهم الربيع كذلك للأرامل واليتامى إذ تطاولت عليها أوقات الجدب والفقر .

٨ — وفى البيت الثامن يذكر أن قومه مجتمعون متحدون ، لا يؤخر خطاهم إلى المجد تبطئ حاسد ، وتثبيط حاقد ، وليس فيهم لئيم يميل عليها مع أعدائها وخصومها .

شاعرية لبيد ومميزات شعره :

ويرشدنا هذا النص إلى شاعرية قوية لشاعرنا لبيد ، نماها وقواها فى نفسه وراثات الشاعر الأدبية ، ومواهبة الفطرية ، وبيئته البدوية الشاعرة ، وكثرة الخصومات والمنافسات والحروب التى اشترك فيها ، والمجتمع الأدبى الحافل بالنشاط فى صميم الجزيرة العربية فى نجد وكذلك يتمه المبكر الذى فقد بسببه عطف الوالد ، وحزنه الشديد لفقد أربد أخيه .

وشعر لبيد من حيث ألفاظه بدوى فى شملته ينزع إلى الإغراب والحوشية وقد ينجح حينا إلى سهولة اللفظ وسماحة المفردات وخاصة فى رثائه ، وهو من حيث الأسلوب يجزل القول ويتأثر روح البداوة . . ومعانيه ساذجة صادقة واقعية وأشهر أغراض شعره : الوصف والفخر .

وقد عده ابن سلام من شعراء الطبقة الثالثة ، وجعله أبو عبيدة من شعراء الطبقة الثانية الجاهليين مع لبيد وطرفة والأعشى ، ووافقه على ذلك أبو زيد القرشى صاحب الجمهرة ، ويشبه الأصمعى شعر لبيد بالطيلسان الطبرى يعنى أنه جيد الصنعة وليست له حلاوة(١) .

---

(١) ٧١ الموشح للمرزبانى .

مصادر لدراسة لبيد

١ — أشعار الشعراء الستة الجاهليين .

٢ — أعلام الأدب العربي .

٣ — الشعراء الجاهليون .

٤ — رجال المعلقات العشر .

٥ — الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى .

٦ — ديوان لبيد العامرى .

٧ — الأدب الجاهلى لطه حسين .

٨ — الأدب وتاريخه فى العصر الجاهلى لمحمد هاشم عطية .

٩ — الشعر والشعراء لابن قتيبة .

١٠ — طبقات الشعراء لابن سلام .

١١ — الأغانى طبع بولاق ١٤ : ٦٠ .

١٢ — جمهرة أشعار العرب ص ١٤ طبعة ١٩١١ القاهرة .

١٣ — المعلقات العشر للزوزنى .

١٤ — المعلقات للدكتور بدوى طبانة .

١٥ — تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ترجمة الدكتور النجار ج ١

الفصل الثامن

شـــاعر الحـــكمة

زهير فى الحكمة

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ... ولكننى عن علم مافى غد عمى(١)

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب ... تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم(٢)

ومن يجعل المعروف من دون عرضه ... يفره ومن لا يتق الشتم يشتم(٣)

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله ... على قومه يستغن عنه ويذمم(٤)

ومن يوف لا يذمم ومن يهد قلبه ... إلى مطمئن البر لا يتجمجم(٥)

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... وإن يرق أسباب السماء بسلم(٦)

---

(١) عمى : أى أعمى ويقصد به فاقد البصيرة أو المعنى : أعلم ما فى يومى لأنى مشاهده ، وما كان بالأمس لأنى شهدته . وأما علم ما فى غد فانى أعرف منه شيئا . واذا وازنا الشطر الثانى بقول الله تعالى (وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا) عرفنا الفرق بين بلاغة العرب وبلاغة القرآن الكريم .

(٢) المنايا : جمع منية وهى الموت . خبط عشواء : أى تخبط خبط العشواء وهى الناقة لاتبصر ما أمامها ليلا والمراد السير على غير هدى .

(٣) وفرت الشىء افره : أى كثرته والضمير للمعروف أو للعرض أى من بذل المعروف صان عرضه .

(٤) أى من يك اذ افضل ومال فيبخل به استغنى عنه وناله الذم .

(٥) يوف : من الوفاء بالعهد . مطمئن البر : خالصه . لا يتجمجم أى لا يتردد .

(٦) أى لمن خاف أسباب المنية نالته لا محالة ولو صعد السماء بمرقاة . وقول الله تعالى : (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة) أبلغ واشمل .

ومن يجعل المعروف فى غير أهله | يكن حمده ذما عليه ويندم(١)
ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه | يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم(٢)
ومهما يكن عند امرئ من خليقة | وإن خالها تخفى على الناس تعلم(٣)

حكمة زهير ومصادرها :

هذه الأبيات قالها زهير فى الحكمة ، وكانت حكمته هذه نبعا من عقله ، وفيضا من تجاربه وصدى مرددا لخبرته بالناس والحوادث والأيام ، وقد اشتهر زهير بالحكمة وعد ممهدا للشعراء الذين نظموا فيها من بعد ، كصالح بن عبد القدوس وأبى العتاهية وأبى تمام والمتنبى والمعرى .

دراسة النص :

(أ) فى هذا النص روح الجاهلية وبداوتها ، فيه من الطابع الجاهلى سذاجة الفهم والتصور لحقائق الأشياء : ويتجلى هذا واضحا فى حديثه زهير عن الموت وأنه يجىء إلى الناس خبط عشواء ، فبلا تدبير وحكمة يجىء إلى فلان فيميته ويخطىء الطريق إلى فلان فيعمر ويهرم . ويتجلى كذلك فى دعوته إلى تخصيص الأهل بالمعروف ، ونحن نعلم أن شعار الاسلام وضع المعروف فى كل موضع والبدء بوضعه فى الأهل ، ثم وضعه بعد ذلك فى غير الأهل بقدر الإمكان كما يتجلى كذلك فى دعوته إلى حمل السلاح دائمًا للدفاع عن الشرف ومفاخر

---

(١) المعنى : أختر لمعروفك من يحفظه ولاحسانك من يؤثر فيه .
(٢) الذود : الدفع وفيه دعوة الى القوة ، والحوض : الحرم .
(٣) الخليقة : الخلق . والمعنى من كتم أخلاقه عن الناس وظن انها تخفى عليهم فلا بد أن تظهر عندهم بما يجربون منه .

القبيلة ، بلا قانون ولا نظام ولا حكومة بل أنه يؤكد أن من يسالم الناس يظلم ، وهذا خلاف دعوة الإسلام وشعاره الجليل ، شعار السلام والوئام والمحبة أليس ذلك كله طابعا معروفا للعصر الجاهلى الذى يبعد عن شعار الاسلام ودعوانه المثلى الكريمة ؟ ويدل كذلك على الطابع الجاهلى قوله : وإن يرق أسباب السماء بسلم ، وكأن الشاعر يفهم أنه قد يتصور أن يرق السماء بسلم .

(ب) والأسلوب أيضاً يرشدنا إلى أننا أمام نص جاهلى ، فالمفردات وطرق تأليفها ، وكذلك المعانى وعدم ترتيبها ، واستمداد هذه المعانى من طريق التجربة لا من طريق الثقافة والفهم لحقائق الحياة ونواميسها الصالحة ، كل ذلك يرشد إلى أن النص جاهلى ، وانظر إلى قول زهير : خبط عشواء ، لا يتجمجم وغيرها من مفرداته .

(ج) وجملة مغزى حكم زهير هذه هى :

١ ـ الإنسان يقف أمام لغز الحياة حائرا فهو يعلم الحاضر والماضى ولكنه يعمى عن معرفة أحداث المستقبل .

٢ ـ والموت هذا اللغز الكبير أنه يخبط فى الناس خبط عشواء ، من يقصله مات ومن أخطأه عمر حتى يهرم .

٣ ـ ولكن الانسان يجب عليه أن يعرف طبيعة الناس أنه إذا بذل المعروف ليحفظ به عرضه منهم صان عرضه ومجده ، وإن أساء معاملتهم وعرض نفسه لشتمهم شتموه والمقابلة هنا بين الشطر الأول والثانى لا تعتمد على منطق إنما هى مقابلة اتفاقية محضة بديلة عن التفكير وحقائق العقل ، مقابلة بدوية غريبة .

٤ — إن الرجل الغنى الذى لا يبذل ماله لأهله بخلا وشحا يستغنى عنه أهله ويذمونه .

٥ — والذى يحافظ على الوفاء بعهوده لا يناله ذم ، ومن يهتد إلى طريق البر والخير لا يتردد فى سلوكه ، وكأن زهيرا مع الذين يقولون : إن المعرفة هى الفضيلة ، فكل من عرف الخير لا بد أن يسلك طريقه .

٦ — والذى يتقى الوقوع فى أسباب الموت لا بد أن يدركه الموت وأن صعد إلى طريق السماء بمارج ، والفرق بعيد جدا بين كلام زهير وحكمة القرآن الكريم الخالدة : أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة . .

٧ — إن الذى يضع المعروف فى غير أهله ينقلب حمده ذما عليه ويصبح نادما . . وكأنه يدعو إلى تخصيص وضع المعروف فى الأهل والعشيرة .

٨ — الذى لا يحمل السلاح دائما ليدافع عن شرفه ومجده يهدمه الناس ، ومن لا يظلم الناس ظلمه الناس ، وهو هنا يدعو إلى القوة التى دعا إليها نيتشه فى العصر الحاضر ، ولكن الاسلام يدعو إلى الحق والعدل والاحسان ، وفرق بين شعار القوة ، وشعار الحق والعدل والاحسان .

٩ — الرجل مهما أخفى طباعه وأخلاقه وظن أن الناس تجهل ذلك كله لا بد أن ينكشف أمره للناس إن قريبا أو بعيدا .

كل هذه الأفكار الصحيحة منها والخاطىء تمثل لنا تفكير الجاهليين ، تمثل عقلية زهير ، وتمثل شخصيته كذلك فى وضوح لا لبس فيه .

شاعرية زهير وبواعثها :

كان زهير شاعرا مجيدا معدودا من فحول الشعراء فى الجاهلية ، وكان النقاد يضعونه مع امرىء القيس والنابغة والأعشى فى طبقة واحدة هى الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية وكان الذى بلغ به إلى هذه المنزلة الكبيرة فى الشعر ، ووثق أسباب شاعريته عدة أسباب منها :

أولا : هذه البيئة العربية البدوية الشاعرة .

ثانيا : تلك النهضة الأدبية فى الشعر التى كانت تموج بها نجد والقرى العربية فى عصر زهير .

ثالثا : وراثته الشعر عن أسرته ، فقد كان خاله بشامة بن الغدير شاعرا ، وكانت أسرة زهير من آبائه وذريته من المجيدين فى الشعر ، قالوا : لم يتصل الشعر فى أهل بيت من العرب كما اتصل فى بيت زهير : فأبوه وأبناؤه وأحفاده وأخته الخنساء كلهم من الشعراء المجيدين .

رابعا : اشتراك زهير فى الملاحم الحربية فى الجزيرة العربية وفى حرب داحس والغبراء . والحروب تثير الشاعرية ، وتهيج الخيال ، وتحرك الشعور وتبعث على الكلام .

خامسا : المنافسات الأدبية بين زهير والشعراء المعاصرين له ، كانت سببا أيضا من أسباب نضوج شعره وشاعريته .

سادسا : قصد زهير بشعره إلى المدح كان يدفعه إلى الإجادة والتهذيب فى شعره مما رفع من مكانته ، وقوى أسباب الرغبة فى نفسه وشاعريته .

أثر حياة زهير فى شعره :

أولا : نشأته فى أسرة شاعرة جعلته يجود من شعره ويهذب من شاعريته .

ثانياً : اتصاله بهرم وتوالى أيادى هرم عليه جعلاه يجود فى المدح .

ثالثاً : مشاهدته حرب داحس والغبراء الطاحنة ، ومآسيها الدامية ، دفعه إلى نظم الشعر فى التنفير من الحرب والدعوة إلى السلام .

رابعاً : تجارب زهير وخبرته بالحياه أنضجت شعر الحكمة عنده .

خامساً : التنافس الأدبى بينه وبين الشعراء ، وتلمذته على أوس بن حجر ، دفعاه إلى تجويد شعره والعناية بتهذيبه .

خصائص شعره :

أولا : من حيث الألفاظ :

كان زهـــير يختار ألفاظه اختيارا ، ويبالغ فى اختيارها بذوقه وفطرته الأدبية . وقد يسرف فى الغرابة حينا ، ولـكن لا يخلو أغلب شعره من سهولة فى اللفظ حينا ، وجزالة وقوة غالبتين عليه أحياناً .

ثانياً : من حيث الأسلوب :

أسلوب زهير من أساليب الشعراء المجودين المصنعين فى شعرهم ، وأنتم تعلمون مذهب زهير فى الروية وتهذيب الشعر وتنقيحه للوصول به إلى منزلة الـكمال الفنى فى النظم وإدراكا المنزلة السامية بين الشعراء . . . ومذهب

الرؤية فى شعر زهير واضح كل الوضوح فى جميع قصائده ويتجلى فى عدة مظاهر فى أسلوب زهير : من إمعان فى تنقيح الأسلوب ونفى كل ما يعاب به ، وإسقاط كل ما يؤخذ عليه ، ومن إدخال الرونق والبهاء والجمال على كل بيت من أبيات قصيدته ، ومن قصد السهولة والوضوح والامتاع واللذة الفنية التى تبعث على الإعجاب والروعة والتأثر .

يغلب على شعر زهير ألوان كثيرة من الصنعة ، ويدخلها فيه : من إستعارة وتشبيه وكناية وطباق ، ولكن هذه الألوان الفنية تجىء فى شعره عفو القريحة ، من غير قصد إليها وتعمل لها وتكلف فيها وغلو فى طلبها : وإنما تنبعث من ذوق الشاعر وموهبته وروحه الصناع الموهوب ، وهذه الخصائص التى امتاز بها أسلوب زهير كانت هى السبب الأهم فى تقديم كثير من النقاد له .

ويجمع أغلبهم على وصف أسلوبه بالخلو من التعقيد والتكلف ، وبالسهولة والوضوح فى قوة وجزالة ، وعلى أى حال فأسلوب زهير ينبع من شاعريته وملكاته ، ويمثل مذهبه فى الصنعة الذى شعر به ، والذى أخذه عنه تلاميذه من أمثال : الحطيئة ، وكعب ابن شاعرنا زهير .

ثالثاً : من حيث المعانى :

معانى زهير — كما قلت — تنبع من نفسه ، وتصدر عن حسه ، وتتصل بمظاهر البيئة فى حياته لا يمعن فيها فى طلب المحال ، ولكنه يعمد إلى الصدق فإذا بالغ فى أداء المعنى اختار طريق المبالغة المقبول فقال مثلا :

فلو كان حمد يخلد الناس أخلدوا ولكن حمد الناس ليس بمخلد

وإذا أراد أن يجود فى المدح اختار ما هو أليق به وأقرب إلى ذوق الناس فى عصره : من وصف ممدوحه بالبطولة والشجاعة والعفة والنائل الكثير ، والتهلل عند ورود العفاة ، ولكنه لا يزعم أبدا أن ممدوحه فعل المعجزات وصنع المستحيلات ونالت قدرته السموات : كما يزعم المحدثون من الشعراء وتشيع فى معانى زهير الحكمة الصادقة ، والتجربة الصحيحة ، والخبرة الواعية بالحياة وأحداثها ومشكلاتها . . ومن ثم عد من شعراء الحكمة فى العصر الجاهلى .

رابعاً : من حيث الخيال :

معانى زهير لا يسوقها سوق الحس والشاهدة فحسب ، ولكنه يتكى فيها على خياله ، ليبرزها فى ألوان مجنحة من صفته الخيال المتصرف فى ملكات النفس والشعور . وهذا الخيال عند زهير من صفته أن يقرب البعيد ، ويسهل الصعب من المعانى ، ويوضح الغامض ، وأجنحة هذا الخيال فى مبالغة مقبولة ، أو صادقة أو كناية قريبة ، أو تشبيه مستطرف فى ثنايا شعره .

خامساً : من حيث الأغراض:

أجاد زهير إجادة عالية فى الحكمة والمدح والغزل ، وقارب من الاجادة فى الوصف والفخر والعتاب كان متوسطا فى الهجاء ، والرثاء والاعتذار . وقد مضت نماذج لهذه الفنون من شعره ، ولكن الذى نريد أن نتحدث عنه هو أسباب تجويده فى المدح . وهذه الأسباب من أهمها :

أولا : حرص زهير على تسجيل بعض مآثر سادات العرب الذين كان لهم مكان مرموق فى الحياة الجاهلية ، وأثر واضح فى فض الحرب بين قبائلها .

ثانياً : الوفاء الذى طبعت عليه نفس زهير وشدة تأثره بأيدى ممدوحيه عليه .

ثالثاً : اعتزازه بمفاخر القبيلة ، ومجدها ومآثرها ، مما كان يدفعه إلى مدح قومه .

رابعاً : اتصاله بهرم وتوالى أيادى هرم عليه . . . كل هذه الأسباب جعلته جيد المدح . ولذلك قالوا : (كان أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب والنابغة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب) ، ويقصدون من ذلك أن أجود شعر امرىء القيس كان فى صف الخيل والصيد وأجود شعر زهير كان فى المدح ، وأجود شعر النابغة كان فى الاعتذار ، وأجود شعر الأعشى كان فى وصف الخمر .

تجويد زهير :

اشتهر زهير بالتجويد لشعره ، والروية فيه والإناة فى نظمه له ، وبخاصة مطولاته ، كالمعلقة المشهورة .

وتظهر أناته وهدوؤه فى رزانة تفكيره وتخيره المعانى التى تناسب الموضوع الذى يأخذ فيه ثم انتخاب الألفاظ التى يستخدمها للتعبير والتى يصور بها الرفق حين يريد أن يكون رفيقا ، أو الشدة حين يريد أن يكون شديدا . . وقد قالوا إنه كان ينظم قصيدته فى شهر ويعرضها بعد ذلك على خواص إخوانه عرضا يستغرق عاما كاملا ، حتى إذا اطمأن إلى أنها خالية من المطاعن أعلن للناس ميلادها ، ولذلك سميت قصائده الحوليات ، وكما كان لزهير الطوال

من القصائد وكانت له المقطوعات الصغيرة ، وشعره وإن كان جيدا على الجملة ، فإن أكثره جودة ، وأحسنه ، وأروعه بيانا هو مدائحه . وما كان منه فى هرم كقوله يمدحه . . . .

قد جعل المبتغون الخير فى هرم والسائلون إلى أبوابه طرقا(١)

من يلق يوما على علاته(٢) هرما يلق السماحة منه والندى خلقا

وعلى الجملة فإن الحديث عن زهير بن أبى سلمى حديث عن الشعر الجاهلى فى طور تهذيبه أو فى مرحلة من مراحل نضوجه ، وفترة من فترات نموه ، وخطوة واسعة من خطوات تقدمه وازدهاره ، لأن الملامح التى بدت فيه ، والصفات التى ظهرت عليه ، والجهود الجبارة التى بذلها هـذا الرجل الضخم سبيل الانتقال به من ذات الصدع إلى ذات الرجع جهود كلها تجعل زهيرا فى الخالدين . ولقد صدق عمر بن الخطاب رضى الله عنه حينما سأل ابن زهير : بليت الحلل التى كساها هرم أباك ؟ فقال له : بليت ، إذ قال له : ولـكن الحلل التى كسى بها أبوك هرما لم تبل . .

زهـير فى الميزان :

نشأ زهير فى بيئة شاعره . هو وأبوه بنوه فى بنى عبد الله بن غطفان ، فى بادية نجد وتتلمذ على خاله بشامة بن الغدير ـ وكان من فحول الشعراء ومن ذوى الشرف والرأى فى قومه ـ ثم على زوج أمه أوس بن حجر ، وروى

---

(١) المبتغون الخير الذين يبغون جوده .
(٢) من غير استعداد وذلك معنى على علاتـه .

لهما ، وتأثر بشعرهما ، يقول ابن الاعرابى : لزهير فى الشعر ما لم يكن لغيره : كان أبوه شاعرا ، وأخته سلمى شاعرة ، وأخته الخنساء شاعرة ، وابناه كعب وبجير شاعرين ، وأبنه المضرب بن كعب شاعرا ومن ثم علت منزلته بين الشعراء .

يقول أبو عبيده : أشعر الناس أهل الوبر (البادية) ، وهم امرؤ القيس وزهير والنابغة ، ويقول النقاد لم أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب والنابغة إذا رهب .

وذكره الأصمعى فقال : كفاك من الشعراء أربعة ، زهير إذا طرب ، والنابغة إذا رهب والأعشى إذا غضب ، وعنترة إذا كلب(١) .

ويقول أبو العباس ثعلب فى زهير : كان أحسن الشعراء ، وأبعدهم عن سخف ، وأجمعهم لكثير من المعنى فى قليل من المنطق وأشدهم مبالغة فى المدح، وأكثرهم أمثالا فى شعره .

وذهب بعض النقاد إلى أن زهيرا أشعر العرب . وعده عمر بن الخطاب أشعر الشعراء لأنه لا يعاظل بين الكلام ولا يتتبع حوشيه ، ولا يمدح أحدا بغير ما فيه ، وقد فضله الكثيرون على غيره من الشعراء كامرىء القيس والنابغة ، وأضرابهما .

منزلة الحكمة من معلقة زهير :

الحكمة غرض كبير من أغراض هذه المعلقة الرائعة ، وهو غرض أصيل

(١) ٣٣ الجمهرة .

كانت تدعو إليه طبيعه دعوة زهير فى معلقته ، هذه الدعوة التى نادى بها زهير ودعا إليها ، من أجل السلام والصلح بين المتحاربين .

كانت حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان تؤرق زهيرا وتضنيه ، وتثير شاعريته ، ولما سعى هرم بن سنان والحارث بن عوف المريان فى الصلح وحقن الدماء وتحملاديات القتلى أنطقت تلك المأثرة زهيرا ، فنظم معلقته هذه هذين السيدين ، وينوه بعملهما الجليل ويدعو إلى السلم وينفر من الحرب ويصف مآسيها وآلامها ، وهى قصيدة رائعة ، تمتاز بحكمها الكثيرة وكان زهير اذا حكمة فى شعره . . وقد بدأ معلقته بذكر الديار وزيارته لها ووقوفه فيها من بعد عشرين عاما طوالا ، يتذكر ذكريات حبه ووفائه ، قال :

أمن أم أوفى دمنــة لم تـكلم بحــومانة الدراج فالمتثلم(١)

وقفت بها من بعد عشرين حجة فلايـا عرفت الدار بعد تـوهم

فلمـا عرفت الدار قلت لربعها ألا انعم صباحا أيها الربـع واسلم

ثم أخذ يصف النساء اللاتى ارتحلن عنها . فيتبعهن ببصره كئيبا حزينا ، ويصف الطريق التى سلكنها ، والهوادج التى كن فيها ، والمياه التى نزلنها ، فى عذوبة وسهولة وجمال ، إلى أن يقول :

فلما وردن المـاء زرقا جمامة وضعن عصى الحـاضر المتخيم

تذكرنى الاحلام ليلى ومن تطف عليه خيالات الاحبــه يحـلم

ثم ينتقل إلى مدح ، هرم والحارث والاشادة بمنقبتهما الكريمة فى إنقاذ

---

(١) الدمنة : مـا بقى من آثـار الـدار . الـدراج فالمتثلم : مـوضعان ، والحومانة : القطعة من الرمــل .

السلام واطفاء الحرب بين عبس وذبيان وتحملهما ديات القتلى من مالهما ، وقد بلغت ثلاثة آلاف بعير قال :

سعى ساعيا ، (غيظ بن مرة) بعدما تبزل ما بين العشيرة بالدم(١)

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله رجال بنـــوه من قريش وجرهم

يمينا لنعم السيدان وجـــدتما على كل حال من سحيل ومبرم(٢)

ثم ندد بالحرب ووصف فظائعها ، ودعا إلى السلم وأكده أوجبه على المتحاربين ، قال :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتـم وما هـــو عنها بالحديث المرجم

ثم ينصح قومه بأن يبقوا على السلم ، ويندم بالحسين بن ضمضم وبآثار عمله فى تهييج الشر وإعادة نار الحرب ، وكان الحسين حين اجتمع للصلح قد حمل على رجل له عنده ثار فى الحرب فقتله . . وبعبد التنويه بالرجلين الذين احتملا ديات القتلى واحدا واحدا على غير جريرة كانت منهما .

ثم ينتقل من هذا المجال الرهيب مجال النصح والتوجيه وتأكيد السلام ، إلى مجال الحكمة الإنسانية العامة ، حكمة المجرب للحياة الذى ذاقها وخبرها ، وعاش فى خضمها ثم امتد به العمر فزهدها وانصرف عنها . . قال :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حـــولا لا أبالك يسأم

وأعـــلم ما فى اليوم والأمس قبله ولـكننى عن ما فى غـــد عم

---

(١) تبزل : تشقق .
(٢) السحيل : الخيط أو الحبل يفتل فتيلا واحدا والمبرم : ما يفتل خطين ثم يفتلان ثانية — ويجعلان خيطا واحدا ، والمراد : حالا الرخاء والشدة .

ويختمها بتأكيد معروف السيدين الممدوحين عليه فيقول :

سألنا فأعطيتم وعــدنا فعدتم ومن يكثر التسآل يوم سيحرم

فجملة أغراض المعلقة هى : الغزل ـ الدعوة إلى السلام ومدح السيدين فيه والتنديد بالحرب وفظائعها ـ الحكمة .

ومن ذلك نرى أن الحكمة أحد أغراض ثلاثة أصلية تدور حولها المعلقة ، ونرى وحــدة القصيدة فى المعلقة ظاهرة لاخفاء فيها ، فهى فى غرض واحد وفكرة متكاملة . . . وشاعرية الشاعر فيها لا يدب إلى جانب من جوانبها اضطراب أو تعقيد أو غموض .

مصـــادر لدراسة زهـــير

١ ـــ الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى للمؤلف .

٢ ـــ أشعار الشعراء الستة الجاهليين ـ جزآن بشرح خفاجى .

٣ ـــ الأدب الجاهلى لطه حسين .

٤ ـــ ديوان زهير .

٥ ـــ الأغانى ٩ : ٤٨ ، ١٤٦ .

٦ ـــ الشعراء لابن قتيبة .

٧ ـــ جمهرة أشعار العرب .

٨ ـــ زهير لحنا نمر ـ من سلسلة الطرائف عدد ٣ .

٩ ـــ تاريخ آداب اللغة العربية لبروكلمان .

١٠ ـــ تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان .

١١ ـــ رجال المعلقات العشر لمصطفى الغلاييني .

١٢ ـــ حديث الاربعاء ١ : ٩١ .

١٣ ـــ دراسة الشعراء لابراهيم الأبيارى .

١٤ ـــ خزانة الأدب ١ : ٣٧٥ .

١٥ ـــ معلقة زهير بشرح النحاس طبعة هوسير برلين ١٩٠٥ .

١٦ ـــ شعراء النصرانية ١ : ٥١ .

١٧ ـــ مصادر الشعر الجاهلى .

١٨ ـــ بحوث فى الأدب الجاهلى للأستاذ إبراهيم أبو الخشب .

الفصل التاسع

لذات الشباب عند الشاعر الشاب

طرفة يصف لذات الشباب

وَلستُ بحلاّل التِّلاع مخافة
وَلَكنِ متى يسترفِد القَومُ أرْفد(١)

وَإنْ تَبغنى فى حلْقة القوم تلقنى
وَإنْ تلتمسنى فى الحوانيتِ تصطد(٢)

مَتى تأتِنى أصبحْك كأساً رَوِيّة
وَإن كنْت عنْهَا ذاغِنى فَاغْن وَازْدَدِ(٣)

وَإن يلْتق الحىُّ الجميعُ تلاقنى
إلى ذروَةِ البَيْت الشريف المُصمد(٤)

---

(١) التلاع : جمعة تلعة وهى مجارى المياه من رؤوس الجبال الى الأودية حيث تشق فيها شقا ، استرفد : طلب الرفد وهو المعونة والعطاء ـ المعنى : لست ممن يستتر فى التلاع وشقوق الجبال مخافة الضيفان والمسترفدين ولكن متى يطلب القوم اعانتى أعينهم ٠

(٢) الحانوت : حانة الخمار ـ يعنى اذا طلبت معونتى تجدنى اما فى حلقة القوم عند المشورة وتبادل الرأى ، واما فى حانات الخمارين ، أى أنى رجل جد اذا جد الأمر ، ورجل لهو اذا فرغت للذاتى ٠

(٣) المعنى: اذا جئتنى أصبحك بشرب كأس ترويك ، وان كنت غنيا عنها بما عندك فاغن به وازدد بما عندنا ٠

(٤) ذروة كل شىء أعلاه ٠ المصمد : الذى يصمد اليه فى الحوائج أى يقصد ـ المعنى ٠ ان يجتمع الحى للمفاخرة بالانساب تجدنى أنتمى الى بيت شريف يقصد فى الحوائج ٠

نداماى بِيض كالنجُوم وَقَينَةٌ
تروح عَلينَا بين بُرد ومجسد(١)

إذَا نحْن قلنا أسمعِينَا انبرت لنَا
علَى رسْلها مَطْرُوقة لم تشْدد(٢)

إذا رَجَّعت فى صوْتهَا خلت صَوتهَا
تجاوبَ أظآر عَلى ربَع رَدِى(٣)

وَمَا زَال تشْرَابى الخمُور وَلذَّاتى
وَبَيعِى وَإنفَاق طَريفى ومتْلدِى

إلى أنْ تحَامَتنِى الْعَشيرة كلُّهَا
وَأفْرَدْت إفْرَادَ الْبَعير المعَبد(٤)

---

(١) الندامى : جمع نديم ، القَيْنة : الأمة المغنية ، وقد تطلق على الأمة أيا كانت . تروح علينا : أى تأتينا عشية . المجسد : الثوب المصبوغ بالجساد وهو الزعفران أو الثوب الذى يلى الجسد وهو الشعار ـ المعنى : نداماى أحرار بيض ـ ليسوا مولدين من اماء سود ـ ، فهم مثل النجوم الوضاء ، ومن نداماى مغنية ـ تجىء الينا عشية ـ عليها برد تحته قميص أحمر اللون أو تحته قميص على جسدها .

(٢) اذا نحن قلنا أى لها لهذه المغنية : أسمعينا غناءك ، اعترضت لنا وظهرت تغنى على رسلها هينة فى رفق وتؤدة مطروقة العين أى ساكنة الطرف لم تبالغ فى صياحها .

(٣) رجعت فى صوتها : كررت النغم . الأظآر : جمع ظئر وهى هنا الناقة المرضع . الربع : الفيصل الذى ولد فى الربيع .

(٤) تحامتنى : تجنبتنى . المعبد : المذلل المطلى بالقطران حتى ذهب وبره ، أو الذى عبده الجرب أى ذلله ـ المعنى تحامتنى العشيرة لما رأتنى لا أكف عن اتلاف المال والاشتغال باللذات وأصبحت بلذتى منفردا كالبعير الأجرب .

رَأَيْتُ بَنِى غَبْرَاءَ لا يُنْكِرُونَنِى
ولاَ أهْلُ هَذاكَ الطرافِ المُمَدَّدِ (١)

ألاَ أيُّهَذا الزَّاجِرى أحْضُرَ الوَغَى
وَأنْ أشْهَدَ اللَّذَّاتِ هَلْ أنْتَ مخْلِدِى (٢)

فإن كُنْتَ لا تَسْتَطِيعُ دَفْعَ مَنِيَّتى
فَدَعْنى أبادِرْهَا بمَا مَلَكَتْ يَدِى (٣)

وَلَوْلا ثَلاثٌ هُنَّ مِنْ عِيشَةِ الْفَتى
وَجَدِّكَ لم أحفِلْ مَتى قَامَ عُوَّدِى (٤)

فَمِنْهُنَّ سَبْقِى الْعَاذِلاتِ بِشَرْبَة
كُمَيْتٍ مَتى مَا تعْلَ بالمَاءِ تُزْبِدِ (٥)

---

(١) الغبراء : اسم للأرض . بنو غبراء : الفقراء أو الأضياف . الطراف : القبة من الجلد يتخذها المياسير والأغنياء . الممدد : الذى مد بالأطناب ـ المعنى : ان اعتزلونى لا أكون مجهولا فان الفقراء يعرفوننى بعطائى لهم وكذلك الأغنياء لجلاء وشرف نسبى .

(٢) أحضر : رواه البصريون بضم الراء ، والكوفيون بفتحها على تقدير ان . الوغى : الحرب وأصله أصوات المحاربين ـ المعنى : يامن يزجرنى من أجل حضورى الحروب وأنهما كى فى الملذات لأن كلا منهما يجر الى الموت ، هل أنت ضامن لى الخلود فى الدنيا ، فان كنت لا تستطيع دفع منيتى فدعنى أستبق اليها بانفاق ما ملكت يدى فى لذاتى .

(٣) اسطاع : لغة فى استطاع .

(٤) وجدك : حظك وبختك ـ وأحفل : أبالى . العود هنا جمع عائدة من العيادة وهى الزيارة .

(٥) سبقى : يروى : سبق .

وَكَرِّى إذَا نادَى المُضَافُ مُحَنَّباً
كَسِيدِ الغَضَا نَبَّهْتَهُ المُتَوَرِّدِ(١)

وَتَقْصِيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ وَالدَّجْنُ مُعْجِبٌ
بِبَهْكَنَةٍ تَحْتَ الْخِبَاءِ المُعَمَّدِ(٢)

أَرَى قَبْرَ نَحَّامٍ بَخِيلٍ بِمَالِهِ
كَقَبْرِ غَوِىٍّ فِى البَطَالَةِ مُفْسِدِ(٣)

أَرَى المَوْتَ يَعْتَامُ الكِرَامَ وَيَصْطَفِى
عَقِيلَةَ مَالِ الفَاحِشِ المُتَشَدِّدِ(٤)

أَرَى العَيْشَ كَنزاً نَاقِصاً كُلَّ لَيْلَةٍ
وَمَا تَنْقُصِ الأَيَّامُ وَالدَّهْرُ يَنْفَدِ(٥)

---

(١) كرى : عطفى . المضاف : الخائف المذعور . المحنب : الذى فى قوائمه أو ضلوعه انحناء قليل ، ويروى بالجيم . سيد الغضا : ذئب خبيث .

(٢) الدجن : الباس الغيم ودوامه . بهكنة . المرأة الحسنة الخلق السمينة الناعمة . المعمد : المرفوع بالعماد .

(٣) النحام : الكثير النحيم وهو التنحنح بخلا . والمراد بالغوى هنـا : المسرف فى ماله المبدد له بانفاقه .

(٤) يعتام : يصطفى ويختار . عقيلة كل شىء . خيرته وأنفسه عند أهله فهم يعقلونه أى يمنعونه الناس لذلك . الفاحش المتشدد : الشديد البخل .

(٥) العبش هنا : العمر والحياة .

لَعَمْرُكَ إِنَّ المَوْتَ مَا أَخْطَأَ الفَتَى
لَكَالطِّوَلِ المُرْخَى وَثِنْيَاهُ بِاليَدِ(١)

مغزى هذا النص :

يمثل هذا النص طرفة صاحب مذهب فى الحياة ، وفلسفة شخصية فى المجتمع ، يمثله مقبلا على الناس والحياة كريما سخيا معهم ، لا يضن بمعونتهم ، فهو رجل رأى إذا استشير ، ورجــل لهو إذا فرغ لنفسه ، وعندما يختبر المختبرون أحساب الناس كان فى ذروة الشرف ، وفى مجمع الفخر ، وفى المكان المرموق بحسبه ومجد قومه .

ويقبل طرفة على وصف مجالس الشراب التى يغشاها ، ومن ينادمونه فيها على الراح ، من أصدقاء ، وقيان يطربن بألحانهن ويسحرن بأنغامهن .

وطرفة يعلن أنه لا يترك الشراب واللهو ، فإن ذلك لذاته فى الحياة ، ومذهبه فى العيش ، مهما كلفه ذلك من مال وديون ، ومن عداوات أهله وخصومات عشيرته ، وتجنب قومه له ، فهو إن تجنبه قومه ، وتحامته عشيرته ، فإن الفقراء جميعاً يحبونه لأنه يخلطهم بنفسه ، ويعيش معهم عيشة السخى الجواد .

وينحى طرفة باللائمة على عاذليه ولائميه ، الذين يطلبون منه الكف عن

(١) ما أخطأ الفتى : أى مدة اخطائه له بابقائه حيا دهرا طويلا ، والطول : الحبل . ثنياه : طرفاه المثنيان منه ـ المعنى : ان الموت اذا أغفل بعض الناس فطال عمرهم لا يخرجون عن قدرته وسلطانه ، فمثلهم كمثل من بيده طرفا حبل مربوط برأس فرس اذا شاء جذبه اليه فانقاد له ، وكذلك الانسان لا محالة ميت وان طال عمره .

خوض الحروب ، وعن شهود مجالس المجون ، وهو يرد عليهم رأيهم فى بساطة وسذاجة ، فيقول مخاطبا إياهم : هل يطيل من عمرى تركى الحرب واللذات . وهل أنتم أيها اللائمون تضمنون لى لو أجبت نصحكم دفع الموت عنى ، والخلود فى الحياة ؟ لا ليس فى وسعكم أيها اللائمون ذلك ، إذن فدعونى أبادر منيتى بانفاق كل ما ملكت يدى ، وبالتمتع باللذات وخوض غمار المعارك ، فإن الحياة لا تستحق الاحتفاء بها ، والحب لها ، لولا لذات ثلاث ، هى الحياة كل الحياة ، هى سعادتها وجمالها وروحها ، الأولى منهن : تناول الكأس وشرب الراح ، والثانية : خوض المعارك لنجدة الخائفين والمظلومين فى الحياة ، والثالثة : التمتع بجمال الحياة مع امرأة جميلة فاتنة .

وهبونى أيها الناس كنت معكم فى مذهبكم ، فأسلك سبيلكم ، وأبخل مثلكم ، فما هى النتيجة لكل ذلك ، ألست سأدفن مع كل الناس فى التراب ، وعندئذ يستوى فى الموت البخيل والمسرف فى بذل ماله فى الغواية والبطالة ، إن قبر هذا سيكون مثل قبر ذاك ، لا يميزه عنه شىء . فعلام تفضلون المقتصد الممسك الحريص على مثلى من المسرفين الباذلين لمالهم فى كل لذة .

أيها اللائمون : إن الموت أمامكم ، وهو مقبل ولو بعد حين عليكم ، وسوف يصيب الكريم ، ويبدد مال البخيل الحريص على حد سواء .

إن الموت لا بد آت ، فأيام الحياة لو حسبت حساب المال ، فإن كل يوم يمضى وكل ليلة تنتهى ، تنقص من حساب العمر ، وكل ما ينقصه مرور الزمن لا بد أنه إلى نفاد .

وهبنا عمرنا فى الحياة ، ألنا قدرة على النجاة من الموت ؟ كلا . . لا يخرج أحد من سلطان الموت وقدرته ، فالإنسان ميت لا محالة وإن طالت به الحياة .

نقـــد للشاعر :

إن طرفة فى جملة الأمر يستهين بكل القيم الإنسانية ويدافع عن الغواية والبطالة والمجون بكل حجة من حجج الشياطين ، ولكن لا يمكن لإنسان مهما قال أن يبرر انحرافه وإسرافه فى اعتناق اللذة واصطناعها مذهبا فى الحياة لا يمكنه ذلك أمام ضميره ولا أمام العقلاء من الناس .

ولو آمنا برأى طرفة لم تكن هناك للأخلاق والمبادئ والقيم والشرائع فائدة ولضـــاعت كل معنويات الحياة ، وما أشبه طرفة فى الماضى البعيد ، بالوجوديين والساديين بيننا فى حياتنا الراهنة ، ممن يعتنقون مبادىء إشباع رغبات النفس والكفر بكل القيم مذهبا وعقيدة لهم فى الحياة .

لا . لا . لا — لا يمكن أن تكون حجج طرفة السوفسطائية الفارغة حجة لأحد ، ولا يمكن أن يقبل مثل هذا الكلام عاقل ؛ ولا أن يعتنقه إنسان من الذين فى قلوبهم خير ، وفى رءوسهم تفكير .

ولو أردنا نقض حجج طرفة ، حجة حجة ، لطال بنا الحديث ، ولما فرغ الكلام ، ولما انتهينا بالرأى إلى نهاية ، فحسبنا ذلك .

منزلة هذه الأبيات من معلقة طرفة :

معلقة طرفة المشهورة :

لخولة أطـــلال ببرقة ثهمد   تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

سارت مسير الشمس ، وعـــد بها طرفة من فحول الشعراء الجاهليين

ومشهوريهم ، واستحق من أجلها أن يضعه أبو عبيدة فى الطبقة الثانية ، وأن يذهب بعض النقاد إلى أنه أشعر الجاهليين .

وهى أطول المعلقات ؛ وعدد أبياتها خمسة ومائة بيت ، وتمتاز بكثرة معانيها وجزالة أسلوبها ؛ نظمها طرفة — على ما ترجح — عتابا لابن عمه أو لأخيه « معبد » ، وبدأها الشاعر بالغزل ، من مطلعها حتى البيت العاشر ، ثم يأخذ فى وصف ناقته التى يسير عليها ليسلى عن نفسه الهموم والأحزان :

وإنى لأمضى الهم عند احتضاره　　بعوجاء مرقال تروح وتغتدى(١)

ويستمر فى وصف الناقة من البيت الحادى عشر إلى البيت الأربعين ، ثم يفتخر الشاعر بنفسه ويصف فتوته وكرمه ولذاته وأمانيه من البيت الأربعين إلى السبعين ثم يأخذ فى عتاب ابن عمه :

فمالى أرانى وابن عمى مالكا　　متى إدن منه ينأ عنى ويبعد

وذلك من البيت الحادى والسبعين حتى البيت الرابع والثمانين ويختم قصيدته بوصف نفسه وبالحكم الروائع من مثل قوله :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ، ويأتيك بالأخبار من لم تزود إلى نهاية القصيدة .

---

(١) المرقال : السريعة السير والعوجاء : الناقة الضامرة .

وقد جمع شعره فى « العقد الثمين فى دواوين الشعر الجاهليين » ، وأهتم المستشرق سلغسون بشعره فنشر ديوانه بشرح الشنتمرى وجمع كل ما نسب له من شعر ، وترجم ذلك إلى الفرنسية مع دراسة قيمة عن طرفة وحياته ، وترجم دى سيلان بعض قصائده إلى الفرنسية وفندنهوف بعضها إلى اللاتينية .. وطبع المستشرق « لا يل » فى كلكتا عام ١٨٩٤ معلقته مع باقى المعلقــات بشرح التبريزى وطبع « ريشر » عام ١٩١١ المعلقة فى القسطنطينية بشرح الأنبارى .

وهـذا الاهتمام الكبير بطرفه وبشعره يرجع إلى ما فى شعره من طرافة وجدة وصدق فى التعبير والتصوير .. إلى مذهبه الذى انفرد به وصوره فى شعره إذ كان داعية من دعاة اللهو ، ويكاد يشبه فى ذلك الخيام الشاعر الفارسى المشهور ، بل يكاد اهتمام المستشرقين به يعادل اهتمامهم بالخيام ورباعياته .. وفى معلقة طرفة المشهورة والتى طارت بها شهرته فى القديم والحديث ، أروع الصور والأوصـــاف للعصر الجاهلى ، ومنها يستدل الباحثون على أنه كان للعرب ملاحة وسفر يجـولون بها فى الخليج العربى وفى دجـلة ، وأنه كانت لهم صناعات من أهمها بناء السفن فى البحرين ، ودباغة الجلد فى اليمن ، وصناعة الورق واستعماله فى الشـــام ويستدلون كذلك بها على معرفة عرب الشام للكتابة ، وحذق الروم بالبنيان ، واستعمال العرب للمرداة ، وهى آلة حجرية يكسر بها غيرها من الحجارة .

وفى المعلقة نجد صوراً من عادات الجاهليين فى مجتمعاتهم ومجالس لهوهم ومآتمهم ومن أساطيرهم التى تتمثل فى معتقداتهم الخرافية فى الصدى وغيره إلى ما فيها من أمور معبرة عن الشاعر وأخلاقه فى الحياة وعن الموت . وتكاد ترى طرفة مرسوما أمامك تلمسه لمساً وأنت تقرأ أبيات المعلقة بيتا فبيتا ، وحكمه التى ذكرها فى المعلقة هى فلسفة حياته ، وثمرة تجاربه فيها ، وليس لهـا طابع

الشعر التعليمى فحسب ، وهى من هذه الجوانب قد آثرها المستشرقون بالعناية والتقدير أكثر من شعر أى شاعر جاهلى آخر . فشعر طرفة صورة واضحة لحياته كل الوضوح بما كان فيها من مطامع وآلام وأحداث .

كان كل شىء فى حياة طرفة يحرك فيه الشاعرية . ويعمل عمله فى صقل مواهبه الفنية ، وملكته أو طبيعته الشعرية . . . الصحراء بروعتها وجلالها ومفاخر القبيلة وأيامها وأحسابها وخصوماتها ، ووراثات الشعر فى أسرته الشاعرة ، التى كان من أعلام الشعراء فيها : المرقش الأكبر ، والمرقش الأصغر والمتلمس والحارث بن حلزة شاعر قومه « بكر » وسواهم ، ويتم الشاعر وهو طفل صغير ، ورحلاته فى الجزيرة العربية والحبشة ، وحدة عواطفه والتهاب مشاعره كل ذلك كان مما فجر شاعريته وأثار إلهامه وعبقريته .

ودعاة التعبير بالصورة الشعرية يذهلون عندما يجدون طرفة كان أسبق منهم إلى التعبير عن تجاربه بالصور الشعرية الرائعة ، التى تصوغها موهبة صناع وذهن ذكى وشاعرية مجودة مجددة .

وانظر إلى هذه الصورة الشعرية المعبرة فى معلقة طرفة :

رأيت بنى غبراء لا ينكروننى ولا أهل هذاك الطراف الممدد
ألا بهذا الزاجرى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات: هل أنت مخلدى
فإن كنت لا تسطيع دفع منيتى فدعنى أبادرها بما ملكت يدى

وهى صورة لا تنقصها الروح ولا الحياة ولا رعشة الفن وتوهجه ، ولولا خوف الإطالة لحللتها تحليلا واسعا .

وطرفة متوهج الشاعرية دائما ، ويقوده ذهنه الملماح إلى الخلق الفنى وهى ما ترادف العبقرية الفنية . فهو ليس شاعرا مكرورا كغيره من الشعراء بل هو شاعر مستقل النزعة والتجربة والأحساس الفنى . وهى مع تنوعها وخصبها تتصل بنفسه وحياته وقبيلته وبالصحراء والبادية التى كان يعيش فيها وبتاريخ قومه وأحسابهم ، وبالحياة العربية عامة ، اتصالا وثيقا .

وطرفة من ربيعة من بكر بن وائل ، وبكر قبيلة عربية عظيمة تنافس أختها « تغلب » فى الشرف والسيادة ، وربيعة من مضر فى الحسب والشرف والعدد والمنعة .

ومن شعرا بكر : الحارث بن حلزه والمرقش الأكبر والمرقش الأصغر وسواهم من مشهورى الشعرا .

أما أسرة الشاعر القريبة فهى سعد بن مالك من بنى قيس . والده هـو العبد بن سفيان بن سعد بن مالك ، ووالدته « وردة » ذكرها فى شعره ، وهى أخت المتلمس ، فهى إذن بنت عبد المسيح من بنى ضبعة من بكر بن ربيعة فصلة القرابة بين أبويه واضحة . . . والمرقش الأصغر عم طرفة . وكان جده سفيان موصوفا بالشرف والرياسة . وأبوه كان شابا قويا ظاهر الشـجاعة والفتوة ، ومات وطرفة صغير . . ولطرفة أخ من أبيه أسمه معبد وأخت من أمه أسمها الخرنق . وكانت شاعرة بليغة ولهـا ديوان شعر مخطوط فى دار الكتب المصرية وقد تزوجها ابن عمها عبد عمرو بن بشر .

وكان طرفة وقومه يعيشون فى البحرين على شاطىء الخليج الفارسى والبحرين قريبة من الحيرة يخضعون لنفوذها السياسى . والقبائل التى تعيش فيها

والشعراء الذين نشأوا فى أرضها . لهم صلات واضحة بملوك الحيرة الذين كانوا يخضعون لنفوذ أكاسرة الفرس . . وهـذه البقعة من أرض الجزيرة العربية قريبة من العراق وإيران ، ويمر بها المسافرون بين هـذه البلاد وهى خاضعة للحيرة والحيرة ملتقى الأفكار والديانات والمذاهب المختلفة وتعيش فى ظلال قسط من الحضارة فلا بدع أن يكون لكل هذه العوامل الظاهرة أثرها فى عقلية أبنائها وتفكير شاعرنا طرفة بوجه خاص .

ونشأ طرفة فى هذه البيئة يعيش بين حسب كريم ، وعدد كثير ، وحمية ظاهرة وفوجىء وهو طفل صغير بوفاة والده فترك يتمه أكبر الآثار والظلال فى نفسه وحياته وفى شاعريته أيضاً وكفله أعمامه وقاموا بواجب تربيته وأخذ طرفة يلهو بالشعر ينظمه فى مختلف الأغراض وأول شعر نظمه على ما روى الراوة هو هذه الأبيات التى أنشدها حين وجد أعمامه يظلمونه ويغتصبون حقا لأمه « وردة » :

ما تنظرون بحق « وردة » فيكمو ... صغر البنون ورهط وردة غيب

قـد يبعث الأمر القديم صغيره ... حتى تظـل له الدماء تصب

والظلم فرق بين حى وائـل ... « بكر » تساقيها المنية « تغلب »

وعن سأم بالحياة وضجر منها وعـدم اكتراث بها أخذ الشاعر يميل إلى اللهو ويسرف فيه ويعتنق البطالة والدعة والعبث ويهجو قومه وسواهم . وأخذ أهله يلومونه وينصحونه حتى ضاق ذرعا بعتابهم فاقتاد راحلته يتنقل بها بين الأحياء والبلاد ، ومر باليمامة واليمن ثم ركب البحر إلى الحبشة ثم غلبه الحنين إلى الوطن فعاد إلى البحرين وهو يقول مخاطبا محبوبته :

تعيرنى سيرى فى البلاد ورحلتى — الارب دار لى سوى حر دارك

وليس امرؤ أفنى الشباب مجاورا — سوى حيه إلا كآخر هالك

وقاسمه أخوه « معبد » ماله .

ثم عاد من جديد يفكر فى الرحلة إلى الحيرة فقصد ملكها عمرو بن المنذر الثالث المعروف بعمرو بن هند الذى تولى ملك الحيرة أربعة عشر عاما (٥٦٢ — ٥٧٦ م) ، فمدحه ، وأجزل المنذر له ولخاله المتلمس العطاء وأحسن وفادتهما ، وجعلهما فى حاشية أخيه وولى عهده قابوس بن المنذر . . ولكن الوشايات سرعان ما اشتعلت نارها ، حقدا من الوشاة على طرفه لمنزلته الرفيعة فى بلاط ابن المنذر ووقعت لطرفة أحداث قتل بعدها فى البحرين بأمر ملك الحيرة ، وذلك عام ٥٦٥ م ، ولم يعش طرفة غير ستة وعشرين ربيعا ، ودع الحياة بعدها وداع الحكيم المؤمن بها ، الناقم عليها ، الساخر من أحداثها . . وما أروع ما قال طرفة فى معلقته وكأنه يتنبأ لنفسه بمصرعها الدامى :

إذا مت فانعينى بمـا أنا أهـله — وشقى على الجيب يا ابنة معبد

ولا تجعلينى كامرىء ليس همه — كهمى ولا يغنى غنائى ومشهدى

ومن عجب أن تكون العبقرية دائما قصيرة العمر ، وأن تكون حياتها كحياة الوردة ، تستكمل جمالها وروعة الحياة وبهجتها ثم تذبل وتذوى ، ولكنها تترك شذى معطرا ، وأريجا طيبا ، وذكرا خالدا لا يموت على مر السنين .

صادر لدراســــة طرفة

١ — الأغانى ١١ : ١٠٤ و ٥٠٥ .
٢ — الشعر والشعراء ٤٩ .
٣ — جمهرة أشعار العرب ٤١ — ٤٥ .
٤ — شرح المعلقات العشر للزوزنى .
٥ — تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان .
٦ — أعلام الشعر الجاهلى للمؤلف .
٧ — الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى لمحمد هاشم .
٨ — الأدب الجاهلى لطه حسين .
٩ — رجال المعلقات .
١٠ — بحوث فى الأدب الجاهلى .
١١ — أعلام الأدب العربى .
١٢ — طبقات الشعراء لابن سلام .
١٣ — سلسلة الروائع .
١٤ — الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى للمؤلف .
١٥ — الشعراء الجاهليون للمؤلف .
١٦ — شرح المعلقات للشنقيطى .

الفصل الحادى عشر

امــــرؤ القيــس

— ١ —

من كان يظن أن امرأ القيس الشاعر الجاهلي الكبير ، عندما قال قصيدته :

قِفَا نَبْكِ من ذكرى حبيب ومنزِل
بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدخول فَحَوْمَلِ

كان قد بَدَأ عصرا جديدا فى تاريخ الشعر العربىّ على مَرِّ العصورِ والأجيال ؛ وأقام أسس نهضة شعرية ضخمة ما كان للعرب عهد بها من قبل ، وأعطى النموذجَ الأكمل للقصيدةِ العموديةِ التى توارثها الشعراءُ على مدى الأيام ؛ وصار اسمه مقرونا بأعلامِ الشعرِ الإنسانىُّ ، الذين خلدتهم عبقرياتهم الموهوبة المجددة .

ومن هنا أخذ الشعر العربى يحمل مواريث العرب الفكرية والإنسانية ؛ بل وصار يعبر كذلك عن شخصيتهم الفنية التى اعتزت بها أجيالهم ، جيلا بعد جيل .

ولكى نعى أثر هذا الدور الكبير ، الذى قام به امرؤ القيس ، علينا أن نتذكر أن العرب بدأوا فنهم الأدبى بالنثر الذى صاغوه فى جمل صغيرة ، كما نرى فى الأمثال العربية ، ثم صاروا يوازنون كل جملة من النثر بالأخرى ،

حتى توصلوا رويداً رويداً إلى نظم البيت والبيتين ؛ وكان الشاعر فى هذه الأبيات القصار يعبر عن أحاسيسه وعواطفه من حب وغضب وحماسة ، وغير ذلك ؛ وأخذ الشعراء ينظمون هذا الشعر من بحر الرجز لسهولته وخفته ؛ ثم نوعوا الأوزان وعددوها .

وبعد أن اكتملت لهم مقومات الشعر ، أخذوا يطيلون فيه ، ويعبرون به عن أحاسيسهم ومشاعرهم النفسية ويصفون الوقائع والخيل والإبل والصحراء وغير ذلك مما يقع تحت أبصارهم .

ورأينا فى القرن الخامس الميلادىّ أشعاراً تصاغ فى أجمل لفظ ، وأرقّ نظم ، وأوسع خيال ، وأبدع صورة ، تدعى قصائد ، وواحدتها قصيدة ؛ وظهرت — أول ما ظهرت — على يدى مهلهل بن ربيعة ، نظمها حين قتل أخوه كليب ، ونهض بالأخذ بثأره .

واكتسب الشعرُ بهذا الجهد الفنىّ الذى وهبه إياه مهلهل صورةً أرفع من الصورة القديمة التى كان عليها .

ثم جاء بعده امرؤ القيس ، فورث هذه القصيدة الشعرية ، بنغمها وشكلها الرتيب ، وأسلوبها التقليدى ؛ ولكنه أخذ يضيف إليها أنغاما أخرى ، ويهذبها تهذيبا أوسع ، وينظمها فى أغراض أكثر ، ويجعل لها مطلعاً غزليّاً جميلا خالصاً فى الغزل ، أو يخلط غزله بوصف الأطلال ، وذكر الديار ، والحديث عن مسارح الحب ، ومواطن الشباب ، ومنتجع الأحباب . وصار للقصيدة بهذا التهذيب شكلها الفنىّ الرفيع ، وصورتها الشعرية الرائعة ،

وصارت هي بذلك موضع إقبال الشعراء وعناية الناس، والتفات الأمة، وإعجاب السامعين.

ومن كان يظن أن هذه القصيدة المهذبة المختارة، التي قالها امرؤ القيس في شبابه، ووصف فيها لذاته وحياته، والبيئة والطبيعة من حوله، وبكى الديار والأطلال في مقدمتها؛ من كان يظن أن هذه القصيدة سوف تصبح النموذج الفني الكامل للشعر العربي، بل العالمي لأجيال وقرون طوال، وأن النقاد سوف يطلقون عليها وعلى ما ماثلها وحاكاها من قصائد جاهلية اسم «معلقات»؟ بل من كان يظن أن أوربا في مطلع نهضتها الأدبية الحديثة سوف تتخذ من قصيدة امرىء القيس «قفانبك» وأخواتها نموذجاً جديداً تحتذ به في شعرها، حتى ليجيء السير وليم جونز مؤسس علم الاستشراق الغربي في آخر القرن الثامن عشر فيقول: يُخَيَّـل إلى أن الشعر الأوربي قد عاش طويلا على تكرار نفس الصور والتشبيهات، وترديد نفس القصص والأساطير التي كان يرددها. وقد حاولت منذ سنوات أن ألفت النظار إلى هذه الحقيقة المهمة؛ ولو أننا عنينا بطبع عيون الأشعار الشرقية، مما تحفل مكتباتنا منه بمخطوطات كثيرة، وزودناها بما يلزم لتفسيرها من هوامش وشروح؛ ولو درست لغات المشرق في معاهد العلم عندنا، لنتج عن كل هذا تجديد شامل في صور الشعر وتشبيهاته، ولفتحنا الباب لمعرفة آداب عظيمة يجد فيها شعراؤنا نماذج وأمثلة للمحاكاة.

وأقبل جونز نفسه على ترجمة المعلقات من العربية إلى الانكليزية، ونشر هذه الترجمة عام ١٧٨٣ ميلادية لأول مرة، إذ كانت هذه هي أول ترجمة للمعلقات، وفي صدرها قصيدة امرىء القيس «قفَانَبْكِ»، إلى لغة

أوربية حديثة . وقد حرص جونز على إن يدرك القارىء الانكليزي جلال اللفظ العربي وفخامته ، فنقل هذه القصائد بألفاظها العربية إلى الحروف اللاتينية ، ونشرها في الصفحة المقابلة للنص المترجم ، لينقل للقارىء صورة مقربة من موسيقى الشعر الجاهلي وألفاظه .

وقرأ الشاعر الانكليزي تينسون هذه القصائد ، ووقف مذهولا أمام قصيدة امرىء القيس « قفانبك » ؛ فنظم على منوالها قصيدته « لوكسلى هول » ، ووجه الخطاب فيها إلى صديق له ، وهما يمران بأطلال قصر الحبيبة الغادرة ، كما صنع « امرؤ القيس » مع رفيق سفره ، فقال « قفا نبك » ، وبكى تنسون على أطلال أحبابه وحبه كما بكى امرؤ القيس أطلال حبيبته .

وذهل النقاد والشعراء لهذه الصور الجديدة التي أضفت على الشعر الانجليزي خيالا واسعاً ، وفناً جديدا رفيعاً .

وحسبنا ، لكي ندرك أثر امرىء القيس في شعرنا العربي ، ونحن نردد قصيدته « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » أن نعلم أن هذه القصيدة قد حاكاها شعراء جاهليون آخرون ، فنظموا على منوالها قصائدهم ، وسميت جياد هذه القصائد « معلقات » ، ثم صارت هذه القصيدة كذلك هي الصورة الفنية التي يجب أن تكون عليها القصيدة العربية على طول العصور ؛ وبذلك منحت شعرنا طابعاً عموديا أصيلا ، صارت تقاليده الفنية كلها تسمى عمود الشعر العربي ، وصار الرجوع إلى هذا العمود الشعري أرفع نظرية من نظريات نقدنا العربي منذ أوائل العصر العباسي ، حتى ليجيء ناقد مشهور مثل ابن قتيبة في كتابه المشهور « الشعر والشعراء » فيحلل

هذا النموذج الفنى الكامل ، الذى حاكاه الشعراء ، وتمثله النقاد فى قصيدة امرىء القيس ، ورجعه إلى :

١ — بكاء الأطلال ، والحديث عن مسارح الحب والأحباب وما يستلزم ذلك من النسيب وقص الذكريات ووصف جمال المرأة .

٢ — وصف الصحراء والفرس والجمل ، وحياة الشاعر وهو يتنقل فى المهامه والقفار .

٣ — الإلمام بالغرض الرئيسى للشاعر فى قصيدته ، من مدح وفخر ، ورثاء وهجاء . .

فيجعل ابن قتيبة ذلك كله منهجاً فنيا ملزماً للشاعر وللقصيدة الشعرية ، مهما عاش الشاعر فى مواطن الحضارة ، وتنقل بين مظاهرها ومشاهدها الجديدة ، ولا يجهل ابن قتيبة أن حياة الناس فى عصره تختلف عن الحياة التى صورها امرؤ القيس فى قصيدته « قفا نبك » . ولكنه يصر على أن الشعر تراث ومواريث ، وأنه جملة التزامات فنية كاملة ، وأن حديث الشاعر فى قصيدته من خلال هذه الالتزامات الكثيرة . هو أوضح صورة لعمودية الشعر العربى ، وهو الوجه الحقيقى لعبقرية الشاعر ، ويصر كذلك على أن من واجب الشعراء أن يتجهوا فى قصائدهم إلى منهج أجدادهم العرب فى قصائدهم وشعرهم ، وأن ينظموا القصيدة كما كان الجاهليون ينظمونها .

وليس ذلك بعجيب ، ألم يقل هوراس الشاعر الرومانى : إن النماذج الإغريقية القديمة فى الشعر هى التى يجب أن تحفظ ليلا ونهارا ، وأن ينسج على منوالها ، وأن تعارض أبدا من الشعراء ، لكى ينتجوا شعرا حقيقيا . .

والشعر العربي نشأته في نجد، وحياته الأولى فيها، وهو بدوي في مرحلة طويلة من مراحل تطوره فليس عجيبا أن يلزمَ ابن قتيبة الشعراءَ بتمثل ومحاكاة هذا النموذج البدوي الرفيع، الذي أورثنا إياه امرؤ القيس، بما صنعه من صور فنية معقدة في قصيدته «قفا نَبْكِ».

وكم لامرىء القيس من يد على الشعراء والشعراءُ وإذا جازَ أن يطلقَ الإغريقُ على نماذجهم الشعرية الرفيعة اسم أبولو، فإن امرؤ القيس جديرٌ بنا أن نطلق اسمه على نماذجنا الشعريةِ البديعةِ العالية.

— ٢ —

وهنا نعودُ إلى امرىءِ القيس، هذا الأميرِ المترفِ، الذي عاش في مجد آبائه من بني كندة ملوك بني أسد، والذي قضى صدر شبابه لاهياً عابثا، كما يصوِّر ذلك في قصيدته:

قفا نَبْكِ من ذكرى حبيب ومنزل
بِسِقْطِ اللِّوى بين الدَخولِ فحَوْمل

وهو مطلعٌ جميلٌ ساحرٌ. ثم يستمرُ في وصف الأطلال حتى يقول:

وقوفا بها صحبي على مَطِيهم
يقولون لا تَهلك أسىً وتجمل
وإن شفائي عَبْرَةٌ مُهَرَاقَةٌ
فهل عند رسمٍ دارسٍ من معَوْلِ؟

ثم يصف ذكريات لهوه وشبابه، ماضياً في غزله الجميل، فيقول:

أفاطمُ مهــلا بعضَ هــذا التدلُّلِ
وإن كنت قد أزمعت صَرْمى فأجملى
أغرّكِ منى أنّ حبّــك قــاتلى
وأنــكِ مهمــا تأمرى القلبَ يفعــل
وما ذرفَــتْ عينــاكِ إلا لتقدحى
بسهميْك فى أعشــار قلبٍ مقتّلِ

إلى أن يقول :

تضـــىءُ الظــلامَ بالعشىِّ كأنها
منَــارةُ ممسَى راهبٍ متبتّــل
تسلّتْ عمايات الرجالِ عن الصبا
وليس فــؤادى عن هواكِ بمنسلى

وينتقل من ذلك إلى وصف طول الليل ، هذا الوصف الجميل ، الذى ليس له نظيرٌ فى الشعر العربى ، فيقول فى عذوبة ورقة وجمال :

وليلٍ كموجِ البحرِ أرخى سُدولَه
علىّ بأنــواعِ الهمــوم ليَبتلى
فقلت لــه لمــا تمطّى بصلبه
وأردف أعجــازا ونــاءَ بكلكلِ
ألا أيها الليلُ الطويل ألا انجلى
بصبحٍ ، وما الإصباح منكَ بأمثلِ

فيالكَ من ليـلٍ كأنَّ نجومَهُ
بكلِّ مغَار الفتـلِ شُدَّتْ بيذبلِ

وهى صورة لا يرسمها إلا عبقرية شاعرة موهوبة ، وقد جعل امرؤ القيس الليل والنهارَ سواءً فى الهمّ والحزن والآلام ؛ أما النابغة الذبيانىُّ فى وصفه المشهور للّيلِ ، والذى يقول منه :

كِليني لهمٍّ يا أُمَيْمَةَ ناصبٍ
وليلٍ أقاسيه بطىءِ الكواكبِ

فقد جعل صدره مألفا للهموم ، وجعل الهموم ترد إليه ، وجعلها كالنَّعَم العازبة بالنهار عنه ، الرائحة مع الليل إليه .

وشعر امرئ القيس فى هذه المعلقة مفرَغٌ فى ذَوْبٍ من ماء العربية ، بين الجزالة والعذوبة ، مما جعل هذه المعلقة أجل أثر لتلك الفصاحة ، ومما جعل فيها المثل الذى احتذاه الشعراء بعد امرئ القيس ، واحتفوا به ، وجعلوه من أمتع نماذجهم فى الشعر ؛ ومن أجل عبقرية امرىء القيس الشاعرة قال فيه جريرٌ : « اتخذ هذا الخبيث الشعرَ نعلين » ؛ وقال بعض النقاد : أحسن الناس ابتداءً فى الجاهلية : امرؤ القيس حيث يقول : « قفا نبكِ » ، وفى الإسلام القطامىُّ حيث يقول : « إنا محيُّوكَ فاسلمْ أيها الطلَلُ » ، ومن المحدثين بشارٌ حيث يقول :

أبى طللٌ بالجزْعِ أن يتكلما
وماذا عليه لو أجاب متيما

ويجمع النقاد على أن امرأ القيس رأس الشعراء الجاهليين، وإمام الطبقة الأولى منهم ؛ ويقول الآمدى : إنه فضل الشعراء لأن الذى فى شعره من دقيق المعانى ، وبديع الوصف ، ولطيف التشبيه ، وروائع الحكمة ، فوق ما استعار سائر الشعراء منه فى الجاهلية والإسلام .

— ٣ —

وقصيدته اللامية الأخرى مشهورة ، وهى التى يقول فيها :

يُضىءُ الفِراشَ وجهها لضجيعها
كمصباح زيت فى قناديل ذُبّالِ

تنوّرتها من أذرعاتَ وأهلها
بيثرب ، أدنى دارها نظرٌ عالِ

وهى مثل المعلقة فى بلاغتها وجزالتها .

— ٤ —

وفجأة تعصف الخطوبُ بالشاعرِ الأمير ، امرىء القيس ، فيحارب ملك الحيرة المنذر (٥٠٥ — ٥٥٤ ميلادية) ملوك كندة ، ويقتل الكثير منهم ، ويبدد جمعهم ، ويثير بنى أسد عليهم ، ويقتل والد امرىء القيس ، فينهض للأخذ بثأر أبيه وقومه من بنى أسد ومن المنذر كذلك ، ويتجه أخيرا إلى قيصر يستنجد به ، ليعينه فى الأخذ بالثأر ، ويصحب معه فى رحلته هذه

صديق شبابه ، عمرو بن قميئة ، ويقول له ، وهو سائر في بلاد الروم :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه
وأيقنَ أنا لا حقان بقيصرا

فقلت له : لا تَبْكِ عينك إنما
نحاول مُلكا أو نموتَ فنُعذَرَا

ويسير خطوة ثم يردد في يأس مرير :

وقد طَوَّفتُ في الآفاق حتى
رضيت من الغنيمة بالإياب

وفي الطريق إلى أحلامه يموت الشاعرُ ، ويأفل نجمُ هذه العبقرية ، بعد أن ترك وراءه للشعر تراثاً خالداً ظلت الإنسانية تحتفظ به على مر الأجيال .

— ٥ —

وتمضي الأيام ، والشعراء في الجاهلية والإسلام ، يلوذون بمنهج امرىء القيس الفني في كتابة القصيدة العربية ، وتصبح قصيدة « قفا نَبْكِ » مَضرب المثل ، ويقال لكل كلام بليغ رائع : أشهر من « قفا نَبْكِ » ؛ ويصبح امرؤ القيس شيخ الشعراء الجاهليين في نظر النقاد ، بل يقول عنه بعضهم : إنه أمير الشعر العربي على الإطلاق .

وهو على أية حال قد تتلمذ في الشعر على خاله المهلهل وعلى أبي دؤاد الإيَادِيُّ . ثم هو كما يقول النقاد أيضاً : أول من وقف واستوقف ، وبكى

واستبسكى ، ووصف النساء بالظباء والمها ، وشبه الخيل بالعقبان والعصى ، وقرب مآخذ الكلام ، وقيد أوابده ، وأجاد الاستعارة والتشبيه والكناية ، ورتق الأسلوب ؛ ووشاه بالعذوبة والجمال ، وبالجزالة ؛ كما أنه أول من شرع للناس مذهب هذا الغزل القصصى الحلو ، وله فوق ذلك كله الطرد الجميل القوى ؛ ولا تزال كناياته : « قيد الأوابد » ، « نؤوم الضحى » ، وغيرها ، مما يبهر النقاد والشعراء والبلغاء ؛ بل إن لأمرىء القيس من دقيق المعانى وبديع الوصف والحكمة والتشبيه فوق ما استعار سائر الشعراء فى الجاهلية والاسلام كما يقول الآمدى الناقد المتوفى عام ٣٧١ هـ .

— ٦ —

ولامرىء القيس — المتوفى نحو عام ٥٦٠ ميلادية — رفقاء من الشعراء ، عاصرهم وعاصروه ، من مثل : المرقش الأكبر ، والمرقش الأصغر ، وعبيد ابن الأبرص ، وعلقمة الفحل ، وطرفة ، والأفوه الأودى ، وغيرهم .

ومع ذلك فهو إمام مدرسته ، بل رائد جميع الشعراء الجاهليين على الاطلاق ؛ وقد ترك دوياً وشهرة وتراثا خالداً على مرور الأيام .

الفصل الثانى عشر

النـــابغة الذبيـــانى

— ١ —

شاعر رفيع من شعراء العصر الجاهلى وأعلامهم ، بلغ منزلة عالية فى قومه ، واحتل مكان الصدارة بين الشعراء الجاهليين .

وكان الحكم بين الشعراء فى سوق عكاظ ، يعرضون عليه قصائدهم ، ومأثور قريضهم ؛ ويحتكمون إليه عندما يزعم شاعر أنه فى قصيدته أشعر من غيره ، ممن حضروا السوق ، وكانت تضرب له قبة فيه ، فتأتيه الشعراء ، تعرض عليه أشعارها ، فيفاضل بينهم .

لقب بالنابغة لنبوغــه فى الشعر كبيرا ، بعد أن أحكمته التجارب ، وسارت به الأيام . وقد اتخذ الشعر أداة للتكسب ، ومدح به الملوك والأمراء ، ونال جوائزهم ورفدهم وعطاءهم .

وكان النابغة مع تكسبه بالشعر يعتز بنفسه ، ويقدرها حق قدرها ، وكان من أشراف قومه ، ومن ذوى المنزلة العالية فى كل مكان فى الجزيرة العربية إبان ذلك العهد البعيد .

وصار من طبقة عبيد الشعر ، الذين يقصدون به الملوك يمدحونهم ، لينالوا به جزيل العطاء ، والذين يعكفون على تهذيب قصائدهم ، وتجويد مدائحهم ، حتى توفى على الغاية ، وتبلغ درجة عالية فى البلاغة ، فهو من هؤلاء المجودين ، من طبقة زهير وأضرابه ، ومن ثم كان شعره كله جيداً مختاراً مصنوعاً ،

الحرف والكلمة والجملة والمعنى والغرض والقسام ، كل تلك بينها اتساق كبير .

اتصل النابغة بملوك المناذرة فى الحيرة ، وبملوك الغساسنة فى الشام ، وصار له عند هؤلاء وهؤلاء منزلة عالية يحسده عليها الشعراء .

كان النعمان بن المنذر أبو قابوس يتولى ملك الحيرة ، منذ عام ثمانين وخمسمائة ميلادية ، وظل ملكا عليها اثنين وعشرين عاما ، فمدحه النابغة بقصائد كثيرة ، كان يقصد إليه فى الحيرة ، ويجلس فى مجالسه ، ويتعرف إلى أعلام إمارته . ويقربه النعمان إليه ، حتى صار أثيراً عنده ، ومن ندمائه وأصفيائه ، وغمره بعطائه الجزل ، ورفده الكثير ، حتى صار النابغة يأكل فى صحائف الذهب والفضة ، وما أكثر ما كان يهب له النوق العصافير .

وكان لذلك أثر فى كثرة الحاسدين والواشين بالنابغة لدى النعمان ، وقالوا فيما قالوه للملك إن النابغة يتصل بأعدائه من ملوك الشام ، ويمدحهم ؛ فغضب عليه النعمان ، وحذر النابغة صديق له فى قصر الملك ، فهرب من الحيرة ، قبل أن يقع فى قبضة حاسديه والنعمان الملك ؛ وأتى قومه الذبيانيين ، فأقام فيهم حينا ، ثم شخص إلى ملوك غسان بالشام ، وكانوا أعداء للمناذرة ملوك الحيرة ، ومدح النابغة عمرو بن الحارث الأصغر ملك الغسانيين ، ثم ابنه من بعده ، النعمان بن الحارث ؛ واصطفاه النعمان ، وأقام النابغة عنده ، أثيراً لديه ، عزيزاً عليه .

ولكن النابغة كان يحن إلى ملك الحيرة النعمان بن المنذر ، وإلى أيامه الماضيات فى الحيرة ، وذكريات حياته الخالدات هناك ؛ فأخذ يرسل إلى الملك

القصائد الطوال من اعتذرایاته الرفيعة ، يتبرأ فيها مما رمى به ، ويعتذر إليه مما كان ، إن كان ما كان صدقا .

يقول النابغة فى إحدى اعتذارياته :

أتانى — أبيتَ اللعنَ — أنكَ لمتَنى
وتلك التى أهتم منها وأنصَبُ

فبتُّ كأنّ العائداتِ فرشنَ لى
هراسا به يعلى فراشى ويُقشَبُ

حلفتُ فلم أترك لنفسِكَ ريبةً
وليس وراءَ الله للمرء مذهبُ

لئن كنت قد بُلِّغتَ عنى خيانةً
لمبلغك الواشى أغشُّ وأكذبُ

ولكننى كنتُ امرأً لىَ جانبٌ
من الأرض فيه مُستَرادٌ ومَهرَبُ

ملوكٌ وإخوانٌ إذا ما أتيتُهم
أحكَّمُ فى أموالهم وأقرَّبُ

كفعلكَ فى قومٍ أراكَ اصطنعتَهم
فلم ترَهُم فى شكرِ ذلكَ أذنبوا

فإنكَ شمسٌ والملوكَ كواكبٌ
إذا طلعت لم يَبْدُ للناسِ كوكبُ

فلا تتركني بالوعيدِ كأنني
إلى الناسِ مطليٌ به القارُ أجربُ

ألم ترَ أنَّ اللهَ أعطاكَ سورةً
ترى كلَّ ملكٍ دونها يتذبذبُ

ولستَ بمستبقٍ أخًا لا تلمه
على شعثٍ ، أيُّ الرجالِ المهذَّبُ ؟

فإن أكُ مظلوماً فعبداً ظلمتَهُ
وإن تكُ ذا عتبى فمثلكَ يعتبُ

وليس هنالك مذهب في الاعتذار ، ولا حجة من حججه ، أقوى ولا أروع مما ألم به النابغة ، فى بيانه الساحر ، وقريضه الباهر ، واعتذاريته الجليلة .

وتوالت اعتذاريات النابغة ، حتى عفا عنه النعمان ، وأذن له بأن يعود إلى ماضيه ، ومسرح ذكرياته فيه ، حيث الحيرة والملك النعمان ، وأصدقاء نابغة بنى ذبيان . فعاد الشاعر إلى الحيرة من جديد .

ويقول بعض الباحثين : إن النابغة وسط فى الأمر بعض المقربين إلى النعمان ، فكلموه فى شأنه وقالوا له : شاعرك ، ومادحك ، والمعتذر إليك ، والذى قال فيك ما قال ، فاعف عنه ، ومل بقلبك إليه .

ووقف النابغة يمدح مليكه ، والملك النعمان يكاد يطير مما يسمع من مدح واعتذار ونبل كلام وروعة قصيد ، فأمر له بمائة ناقة من نوقه العصافير ، وعادت إلى الشاعر منزلته الأولى فى عاصمة الملك .. ولكن الأيام لم تطاوله ، ولم يلبث الملك أن وقع فى أسر الملك الساسانى الفارسى خسرو الثانى ، فعاد النابغة إلى ديار بنى ذبيان .

وظل عظيما شريفا ، مكرماً عند الملوك والأمراء ، حتى توفى فى أوائل القرن السابع الميلادى ، قبل البعثة النبوية .

— ٢ —

ويمضى شعر النابغة إلى غايته من التجويد فى المدح ، وكمال البلاغة فى الاعتذار ، وروعة التصوير فى الوصف ، وشدة التأثير واللذع فى الهجاء ؛ إلى إجادته فى الحكمة والفخر والرثاء .

وشعره رقيق لطيف ، إذا تملكته عاطفة قوية من إشفاق أو حماسة أو رهبة أو روعة حتى لقد قيل : أشعر الناس النابغة إذا رهب .

وقد رأيناه فى اعتذاريته الماضية ، كيف كان حزينا عميق الحزن ، قلقا شديد الاضطراب والحيرة ، يداخله التشاؤم واليأس الشديد ، ويبالغ بخياله الشاعرى الرقيق فى الحجة ، والسعة فى المذهب ، حتى ليسمو إلى درجة كبيرة إكمال الصورة ، وإيضاح الشبه ، واستخدام التجسيم والتلوين والتصوير أداة لخياله الذى يفسح له المجال فى روعة الخيال .

وليس هناك شاعر يبلغ ما بلغه شعر النابغة ، فى حسنه ، وتهذيبه ، وجودته ،

ونقائه من العيوب ، وبلاغة أساليبه ، وبخاصة فى مطالع قصائده ونهاياتها .

وقد عبر النابغة فيما نظمه من شعر عن حاجات المجتمع البدوى فى العصر الجاهلى فى نجد ، ومع ذلك فقد شاع ذكره ، وذاع فى كل مكان ، وكانت بوادى الحجاز تفاخر به لحسن ديباجته ، وجمال رونقه ، وجزالة كلماته ، وعذوبة أساليبه وموسيقاه ، وليس للنابغة نظير فى وصف الأحاسيس النفسية ، كالخوف وما شابه ذلك .

وعندما نتأمل معانى الشاعر نجد فيها هذا الانسجام والتآلف والصدق ، وقوة الحجة ، والبعد عن الغموض وعن التعقيد ، مع البصر بمواقع الكلام ، ومراعاة الحال والمقام . ويجعله بعض النقاد من شعراء المعلقات ، ويجعلون معلقته هى هذه القصيدة من اعتذارياته ، وتبلغ الواحد والخمسين بيتاً :

يادار مَيّةَ بالعلياء فالسَّنَدِ
أقوت وطالَ عليها سالفُ الأمَدِ

ويبدؤها الشاعر ببكاء الأطلال ، على ما هو مألوف فى قصائد المعلقات . . ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف رفيقته فى السفر والحل والارتحال ، وهى ناقته التى أتعبها وكدها وأضناها ، ثم يخلص إلى الاعتذار بأسلوب مؤثر كعادته ، يقول منه فى مخاطبة النعمان :

مهلا فداءٌ لك الأقوامُ كلُّهمو
وما أُوَمِّلُ من مالٍ ومن وَلَدِ
أُنْبِئْتُ أن أبا قابوسَ أوعدنى
ولا قرارَ على زأرٍ من الأسد

وهذه صورة أخرى من شعر النابغة ، وهى إحدى بكائياته لأطلال محبوبته نعمى ، تلمس فيها روعة الفن وتوهجه ورعشته ، ودقة الوصف وجماله ووضوحه ، يقول :

عوجوا فحيُّوا لنعمٍ دِمْنَةَ الدار
ماذا تحيّونَ من نؤيٍ وأحجارِ ؟
واستعجمتْ دار نعْم ما تكلمنا
والدار لو كلمتْنا ذاتُ أخبارِ
فما وجدتُ بها شيئا ألوذ به
إلا الثمامَ وإلاّ موقدَ النار
وقد أرانى ونعْماً لاهيَيْن بها
والدهرُ والعيشُ لم يَهْمُمْ بإمرارِ
أيامَ تخبرنى نُعْمىَ وأخبرها
ما أكتم الناس من حاجى وأسرارى

ولا ينسى الشاعر أن يصور لنا موقف الوداع ، وآخر نظرة منه إليها ، والجمال مشدودة الرحال والأكوار ، والهوادج مرفوعات للرحيل تهتز ألماً للشاعر ودموعه الحائرة ، فيقول فيما قال :

رأيت نُعْمىَ وأصحابى على عجَل
والعيسُ للبَيْن قد شدتْ بأكوارِ

فَرِيعَ قلبي وكانتْ نظرةَ عرَضَتْ

حيناً ، وتوفيقَ أقدارٍ لأقدارِ

ثم يخاطب صديقه الحارث ، الذى زار معه أطلال نعمى ، فيقول :

أقول والنجمُ قد مالتْ أواخرُه

إلى المغيبِ تَثَبَّتْ نظرةَ (حارِ)

ألمحةٌ من سنا برقٍ رأى بصرى

أم وجهُ نُعمٍ بدا لى أم سَنَا نارِ

بل وجه نُعمٍ بدا والليل معتكِرٌ

فلاحَ بين أثوابٍ وأستارِ

وكان ذلك الفصل الأخير من موقف الوداع الحزين .

— ٣ —

وكان النابغة ناقدا بصيرا بمواقع الكلام ، يعرف بذَوقِهِ جيدَه من رديئه ، وكان يقصد سوق عكاظ ، كلما انعقد السوق بالقرب من الطائف ، فى قرية بين نخلة والطائف ؛ وكانت الأسواق التجارية مبثوثة فى جزيرة العرب ، يقصدها الناس للتجارة والبيع والشراء ، وللحجاج والمفاخرة .

وقامت عكاظ قبل ميلاد رسول الله بنحو ثلث قرن ، وكانت تعقد عشرين يوماً فى السنة من أول ذى القعدة إلى العشرين منه ، فيفد عليها كل

الناس ؛ ولشهرتها وكثرة الوافدين إليها ، كان الشعراء يقصدونها ، ويقال : إن المعلقات أنشدت فيها ، وكان النابغة يذهب إليها ، وكذلك الأعشى والخنساء وحسان وغيرهم من الشعراء ، وكان النابغة تضرب له خيمة كبيرة فيها ، فيجتمع إليه الشعراء ، ينشدونه ، ويستمعون إلى رأيه فيما ينشدون .

وكانت القبائل تنزل بها ، لكل قبيلة موضعها الخاص بها ، ويتوافى أشراف القبائل مع التجار ، يمشون ملثمين فى السوق ؛ وتتلاقى أفراد القبائل عند البيع والشراء ؛ وكثيرا ما كانوا يجتمعون حول خطيب ، يخطب على منبر أو فى خيمة من الخيام تنصب هنا وهناك ، ولا تلبث أن تجد حشدا مجموعاً حول شاعر يلقى قصيدة ، وكم كان للنابغة من مواقف مع الشعراء فى الحكم على شعرهم ، وفى المفاضلة بينهم ، وفى نقد قصائدهم .

— ٤ —

ولسلاسة شعر النابغة وجودته ، كان يغنى به المجتمع الجاهلى . وقد تهيأت له فى مجتمعه كل أسباب الشاعرية ، من نشأة بدوية فى الصحراء ، التى من شأنها أن تلهب العاطفة ، وتوسع الخيال ، وتذكى الشعور ؛ بين قوم مفطورين على حب البلاغة ، وتذوق الشعر ، والافتتان بالقصائد ؛ ومن خوضه المعارك والحروب ، وشهوده لكثير من الخصومات القبلية ؛ ومن تصدره فى ميدان الأدب والنقد والشعر ، ومن رحلاته ومعيشته فى قصور الملوك والأمراء ، ومن منافسات أعلام الشعراء فى عصره له ، والمنافسة تذكى الشاعرية والإحساس والعاطفة .

وكل ذلك كان مما غذى من شاعريته ، وقوى ملكته ، وفتق أكمام موهبته في الشعر ، فجعل منه شاعرا كبيرا بين قومه ، وزاد من منزلته في الشعر ما كان يصطنعه من مذهب فني فيه ، هو مذهب التجويد والصنعة ، وكان من جملة الشعراء الذين أطلق عليهم لقب عبيد الشعر ، والذين جروا على تهذيب أشعارهم وتفخيم ألفاظهم ، وتنقيح مدائحهم ، طمعاً في النوق العصافير ، التي كان النعمان يهبها للنابغة .

وبذلك سار شعره في كل مكان ، وذاع على كل لسان ، وصار تراثا شعريا رفيعاً يعلم الأجيال البلاغة والشعر ، ويغذيهم بمواهب الفصاحة وروائع النماذج التي كانت مثالا للفن الشعري عند مجتمع الجاهليين قبل الاسلام .

الفصل الثالث عشر

زهـــير بن أبى ســـلمى

— ١ —

زهير من أعلام الشعراء الجاهليين ، وزعيم مدرسة من مدارسهم ، ورائد طبقة من طبقاتهم . .

وبحسبه أنه شاعر الحكمة ، والداعى إلى السلام ، والذى صور مآسى الحروب الطويلة ، التى كانت تدور بين القبائل العربية ، وويلاتها فى العصر الجاهلى .

وزهير إمام الطبقة الثالثة من طبقات شعراء الجاهلية ، أما الطبقة الثانية فهى طبقة امرىء القيس وأضرابه ، والأولى هى طبقة مهلهل ورفقائه .

ومن طبقة زهير كثير من الشعراء ، من مثل :

عمرو بن كلثوم (المتوفى عام ٦٠٠ ميلادية)

والنابغة الذبيانى (٦٠٤ م)

وحاتم الطائى (٦٠٥ م)

وعنترة العبسى (٦١٥ م)

والأعشى (٦٢٩ م)

وأمية بن أبى الصلت (٦٣٠ م)

ولبيد بن ربيعة العامرى وسواهم ، وتوفى زهير نحو عام (٦٣٠ م)

وهذه الطبقة ، طبقة زهير ، قد أحدثت ألواناً كثيرة من التجديد فى القصيدة الشعرية ، سواء فى مضمونها وأغراضها ومعانيها وأخيلتها ، أم فى أسلوبها وشكلها الفنى .

وإذا كان الشعر الجاهلى أثراً للفطرة ، واستجابة لمشاعر الشاعر وشعوره بالحياة ، وكان أكثره بديهة وارتجالا وعفو الخاطر ، ينظمه الشاعر فى سهولة ، وتدفق وفطرة ودون تنقيح ، أو قصد إلى التجويد .

فإن شاعرنا زهيراً ، قد أحدث مذهباً جديداً فى القصيدة ، وخالف سنة الأولين من والشعراء ، وانتقل من الطبع إلى الصنعة ، ومن الارتجال إلى التهذيب والمعاودة والمعاناة لشعره ، حتى لقد سميت قصائده الحوليات .

وكان زهير يصنعها على وجه التثقيف يكتب القصيدة ، ثم يعاود النظر فيها مرة بعد مرة ويوماً بعد يوم ، ويمعن فكره فيها بعد أن يكون قد فرغ من نظمها فى ساعة أو ليلة ، وربما كتبها فى أوقات نشاطه ، فيطول وقت صنعها بعض الطول . .

يقول بعض النقاد ، ومنهم أبو هلال صاحب كتاب « الصناعتين » : كان زهير يصنع القصيدة فى ستة أشهر ، ويهذبها فى ستة أشهر ، ثم يظهرها ويذيعها ، فتسمى الحوليات .

ويقول ناقد آخر ، مكملا لحديث أبى هلال ، وهو ابن سنان الخفاجى فى كتابه « سر الفصاحة » : عمل زهير سبع قصائد فى سبع سنين ؛ وكان يسميها الحوليات .

ويقول آخرون : إنه كان ينظم القصيدة فى ثلاثة شهور ، ولا يزال يهذبها حتى يمضى عليها الحول . وقيل : بل كان ينظمها فى شهر ، ثم لا يزال يهذبها حتى يمر عليها الحول فتسمى حولية .

ويقول الجاحظ فى كتابه المشهور « البيان والتبيين » : « من شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كاملا ، وزمنا طويلا يردد فيها نظره ، ويقلب فيها رأيه ، اتهاماً لعقله ، وتتبعاً على نفسه ، وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات ؛ ويقول : وكان زهير ، وهو أحد الشعراء الثلاثة المتقدمين يسمى كبار قصائده الحوليات .

على أن هـذه التسمية قـد يمكن أن نحملها على المجاز لا على الحقيقة ، فكل قصيدة جيدة قـد يجوز أن نسميها « حولية » إذا جمعت من التهذيب الفنى ما يجعلها شبيهة بالحولى أى الذى مر عليه حول من نتاج الإبل والغنم ، فاستوفى قوته وجماله ونضارته .

وقد يمكن أن أعلل سبب هـذه التسميه بأن زهيراً ، ومثله غيره من الشعراء الكبار ، كان يعد لسوق عكاظ كل عام قصيدة رفيعة ينشدها فيه كلما عقدت السوق ، فسميت هذه القصيدة حولية ، وقيل لمجموعة قصائده المختارة « حوليات » ؛ وخص زهير وقصائده بهذا الاسم ، لأنه كان أكثر الشعراء تهذيبا لشعره ، وأشدهم عناية بتجويده والتأنق فيه .

وهذا المذهب الفنى الذى سار عليه زهير فى نظم القصيدة ، صار كذلك مذهبا لتلاميذه فى الشعر ، ومنهم الحطيئة الشاعر ؛ وهذه الطبقة جودت فى المدح ، وأخرجته إخراجاً محكما ، وهذبت أساليبه ، ونوعت معانيه وأخيلته ،

وسميت » عبيد الشعر » ؛ وقد انتظم مذهب « عبيد الشعر » زهيرا والنابغة والأعشى والحطيئة ، وأمية بن أبى الصلت ، وسواهم .

وكان هـذا المذهب الفنى الجديد ، فى الشعر ، الذى تزعمه زهير ، أثراً للتنافس بين الشعراء ، وخوفهم من تتبع النقاد . كما كان أثراً لقيام الأسواق الأدبية ، ومن بينها « سوق عـكاظ » ولإنشاد القصائد فيها ، وحكومة الحـكام بين الشعراء على ملأ من جمهور المترددين عليها . ونحن نعلم أن النابغة الذبيانى كان حـكماً بين الشعراء فى عـكاظ ، وكان تقام له قبة فيها ، ويجىء الشعراء ، فيتحاكمون إليه فيما شجر بينهم .

كما كان هذا المذهب كذلك أثراً للتـكسب بالشعر فى العصر الجاهلى ، ولاتخاذه وسيلة للثراء ، وعـكوف الشعراء المصنعين من أجل ذلك على تجويد مدائحهم ، لينالوا بها سنى الهدايا والألطاف ؛ وكان كذلك ارتباط الشعر بالغناء ورغبة بعض الشعراء فى ذيوع شعرهم من أسباب نشأة هذا المذهب الفنى أيضاً .

— ٢ —

فإذا عدنا إلى خصائص مذهب زهير فى حولياته :

وجدناه من حيث اللفظ يتخيره تخيراً شديداً ويبالغ فى هـذا التخير مبالغة كثيرة .

ومن حيث الأسلوب يقبل على تهذيبه إقبالا كبيرا ، فينفى كل ما يعاب

به ، ويسقط كل ما يؤخذ عليه ، ويوشيه بكل ما يدخل عليه الرونق والبهاء ، فى قصد إلى الجزالة والوضوح والإمتاع واللذة الفنية ، والصنعة الشعرية التى يسندها طبع أصيل ، وموهبة قوية .

أما من حيث المعانى فإنها تنبع من نفسه ، وتصدر عن حسه ، وتتصل بمشاهد البيئة من حوله اتصالا وثيقا ، فى قصد إلى الصدق ، وترك للمبالغة فى أغلب الأمر ، فإذا اضطر إلى المبالغة فهى المقبولة المستساغة فى الأذواق ، من مثل قوله :

فلو أنَّ حَمْداً يخلد الناس أخْلِدُوا

ولكن حمدَ الناسِ ليس بمخلِدِ

وفى المدح يختار ما هو أليق به ، وأقرب إلى ذوق الناس فيه ، من وصف بالبطولة والشجاعة والكرم والعفة ، والتهلل عند ورود العفاة . وتشيع فى معانيه الحكمة والتجربة والخبرة الواعية بالحياة وأحداثها ، حتى لقد عد زهير من الشعراء الحكماء .

ويبرز زهير معانيه فى ألوان مجنحة من التخيل ، لتقريب البعيد ، وتوضيح الخفى .

وأكثر الأغراض الشعرية التى أجاد فيها كانت الحكمة والمدح والغزل والوصف ، وكانت هبات من وحيه وهداياهم إليه ، تدفعه إلى إجادة المدح ، يساعده فى ذلك طبيعة الشاعر فى الرغبة فى المال ، ونهجه فى التكسب بالشعر ، ولأجل ذلك قال النقاد : أشعر الناس زهير إذا رغب ، يريدون أن أجود شعره ذهب فى المديح ، وهو الذى يقول فى هرم بن سنان :

قد جعلَ المبتغونَ الخيرَ فى هَرِمٍ
والسالـكون إلى أبوابِهِ طرقا
من يلقَ يوماً على عِلاَّته هرماً
يَلْـقَ السماحة منه والندى خُـلُقا

وهـكذا يرتبط الحديث عن زهير بالحديث عن الشعر الجاهلى فى مرحلة حاسمة من مراحل تهذيبه وازدهاره ؛ ويقترن اسمه بهذه النهضة الشعرية التى بلغها الشعر العربى فى نجد منذ أوائل القرن السادس الميلادى ؛ ويعد بعض النقاد زهيراً بأنه أشعر الشعراء فى الجاهلية ؛ ويتوسط نقاد آخرون كالأصمعى ، فيعدون زهيراً أحد أعلام الشعر الجاهلى وأبطاله .

ويلخص آراء النقاد فى زهير قول قائل منهم ، وهو أبو العباس ثعلب : كان زهير أحسن الشعراء شعرا ، وأبعدهم عن سخف ، وأجمعهم لـكثير من المعنى فى قليل من اللفظ ، وأكثرهم إجادة فى المدح ، كما كان أكثرهم أمثالا فى شعره .

ونحن نستطيع أن نقول : إن زهيراً كان معدوداً من فحول الشعراء فى الجاهلية ، وإن أكثر النقاد يضعونه مع أعلام الشعر الجاهلى فى طبقة واحدة .

وكان الذى بلغ به هذه المنزلة العالية فى الشعر عدة أسباب :

وفى مقدمتها هـذه البيئة الشاعرة ، ثم تلك النهضة الشعرية ، التى كانت تموج بها الجزيرة إبان ذلك العهد .

وكذلك وراثته الشعر عن آبائه وأسرته ، فقد كان خاله بشامة بن

الغدير شاعراً ، وكذلك كان آباؤه من الموهوبين فى الشعر ، وكذلك أستاذه وأحفاده من بعده ، حتى قال العلماء : لم يتصل الشعر فى أهل بيت من العرب كما اتصل فى بيت زهير ، وأبوه وأخته وابناه : كعب وبجير ، وبعض أحفاده ومن بينهم المضرِّبُ بن كعب ، كانوا كلهم من الشعراء المجيدين .

هذا فضلا عما أخذه فى الشعر من أوس بن حجر زوج أمّه ؛ وكان كذلك اشتراك زهير فى الملاحم الحربية ، وفى حرب داحس والغبراء من بينها ، مما أثار من شاعريته ، والحروب تثير الشاعرية ، وتهيج الخيال ، وتحرك الشعور . . .

وهناك أيضاً المنافسات بين الشعراء وزهير ، وهى كثيرة فى حياته . .

ثم حرص زهير على المال ، ورغبته فى أن ينال الجوائز والمكافآت . . إلى خبرته الطويلة بالحياة .

كل ذلك مما فجر فيه الملكة الشعرية ، وأنطقه بروائع القصيدة والحكم والأمثال والتجارب .

وفى مدح هرم بن سنان والحارث بن عوف ، حين سعيا فى السلام ، وتحملا ديات القتلى ثلاثة آلاف بعير ، وانتهت بذلك صفحة حرب داحس والغبراء ؛ نظم زهير معلقته الجميلة الرائعة .

— ٣ —

وماذا من جديد فى معلقة زهير ؟

بدأها زهير على عادة الشعراء الجاهليين بالوقوف على الأطلال ، وبكاء الديار ، ديار محبوبته ليلى أم أوفى ، بعد ما فارقها عشرين حجة ، ولم يعرف الشاعر الدار إلا بعد لأى شديد .

أمِنْ أُمِّ أوْفَى دِمْنةٌ لم تَكلَّمِ
بحَوْمانَةِ الدُّرَّاجِ فالمُتَثَلَّمِ

وقفتُ بها من بعد عشرين حجةً
فلأياً عرفتُ الدارَ بعد توهمِ

ثم أخذ يصف يوم الفراق ، وموقفه الحزين فيه ، يتبع بصره موكب الراحلين وهو دامع العينين ، مقرح الأجفان ، مؤرق الذكريات ، مسهد الأحلام . . إلى أن يقول :

تذكَّرُنى الأحلامُ ليلى ومن تَطِفْ
عليه خيالات الأحبةِ يَحْلُمِ

وينتقل إلى مدح هرم والحارث ، والإشادة بمنقبتها الجليلة فى إنقاذ السلام ، وإطفاء الحرب بين عبس وذبيان ، وتحملهما ديات القتلى من مالهما ، ثلاثة آلاف بعير . . ويندد بالحرب فيقول :

وما الحربُ إلا ما علمتم وذقتمو
وما هو عنها بالحديثِ المرجَّم

ويبلغ زهير الغاية فى الحكم التى صاغها بلباقة ، وقال منها :

وأعلمُ عِلْمَ اليومِ والأمسِ قبله
ولكننى عن علم ما فى غدٍ عَمِ

ومن يجعلِ المعروف من دون عرضه
يَفِرْهُ ومن لا يَتَّقِ الشتمَ يُشْتَمِ

ومن يَكُ ذا فضلٍ فيبخلْ بفضله
على قومه يُستغن عنه ويُذمَمَ

ثم يقول : إن الموت لا يهرب منه أحد ، وإن على الإنسان أن يضع المعروف فى موضعه :

ومن هابَ أسبابَ المنايا يَنَلْنَهُ
وإن يَرْقَ أسبابَ السماءِ بِسُلَّمِ

ومن يجعل المعروف فى غير أهله
يكن حمدُه ذمّاً عليه ويندم

ثم يذكر طبيعة العلاقات الاجتماعية فى مجتمع الجاهليين ، وأنها ترتكز على القوة والظلم ، فيقول :

ومن لا يَذُدْ عن حوضه بسلاحِهِ
يُهَدَّمْ ، ومن لا يظلمِ الناسَ يُظلَمِ

ومن المعلقة نعرف أن زهيراً نظمها وهو فى سن التجربة والحكمة ، إذ كان قد بلغ الثمانين :

سئمت تكاليفَ الحياةِ ومن يَعِشْ
ثمانين حولا لا أبا لك يسأم

— ٤ —

وهذه صورة شعرية أخرى رسمها زهير لممدوحيه هرم والحارث ، فقال :

وفيهم مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وجوهُهم
وأنديةٌ يَنْتَابها القول والفعلُ

على مكثريهم رزق من يعتريهمو
وعند المُقِلِّينَ السماحةُ والبذل

وإن جئتهم ألفيتَ حولَ بيوتهم
مجالسَ قد يَشْفَى بأحلامِها الجهلُ

ومايَكُ من خير أتَـوهُ فإنمـا
تـوارثَهُ آباءُ آبائِهمو قَبْــلُ

وهى صورة فيها شاعرية زهير وصنعتيه ، وموهبته ، وفيها مدحه وتجويده وتجديده وتجربته ، وفيها كل خصائص فنه الشعرى الرفيع .

وليس كل ذلك من زهير الشاعر بعجيب .

الفصل الرابع عشر

عنترة العبسـى

- ١ -

كانت كل العوامل والأسباب تعمل عملها ، لتجعل من عنترة أحد الشعراء الكبار فى المجتمع الجاهلى ؛ قبل الإسلام .

فالبيئة العربية الشاعرة ، والخصومات القبلية الكثيرة ؛ والحروب المستمرة فى كل ركن من أركان الجزيرة العربية إبان ذلك العهد البعيد ؛ ثم المنافسة بين عنترة وأقرانه من الشعراء ، وطموحه الكبير ، ورغبته فى الارتفاع بطبقته ومكانته فى مجتمعه ، ثم حبه لابنة عمه عبلة .

كل ذلك وغيره كان من بواعث شاعريته ، وملهمات موهبته . وهاج كل ذلك ملكات عنترة ، وفجر ينابيع الشعر فى نفسه . . ولم يلبث أن قال معلقته ، التى اشتهر بها ، وذاع نبؤها فى كل مكان من أنحاء الجزيرة العربية ، وارتفعت منزلة عنترة فى ميدان الشعر إلى مصاف كبار الشعراء الملهمين .

ولقد عد عنترة من فحول الشعراء الجاهليين ، ومن أعلامهم ، واعتبره بعض النقاد من شعراء الطبقة الأولى فى العصر الجاهلى .

— ٢ —

وكان عنترة عبداً أسود ، لا يقول الشعر ، ولا عمل له إلا رعى الإبل ، وكانت أمه جارية حبشية ، اتخذها أبوه أمة له ، واتخذ عنترة ابنه منها عبداً

له ؛ وكذلك كانت تصنع الجاهلية ، يستعبدون بنى الإماء ، ولا يعترفون بهم إلا إذا أظهروا نجابتهم ؛ وأبى أبو عنترة وإخوته من أبيه أن يرتفع إلى مصاف الأحرار ، فلما شب عنترة قالوا له : اذهب فارع الإبل والغنم . فانطلق يرعى .

وواجه بذلك عنترة المشكلة الأولى فى حياته ، وهى مشكلة الحرية .

وأخذ — وهو الصغير — يواجهها مواجهة حاسمة ، ويدبر الأمر لكى يظفر بحريته ، ويخطط فى حذق وذكاء لبلوغ هذه الغاية .

وسارع ، فباع شيئا من إبل أبيه التى يرعاها ، واشترى بذلك سيفا ورمحا ودرعا ، ودفنها فى الرمل ، استعداداً ليوم فصل ؛ ثم اتخذ له مهراً ، وكان يسقيه لبن الإبل .

وفى يوم من الأيام ذهب إلى الماء ، فى حى قومه ، فلم يجد فى الحى أحدا ، فبهت وتحير ، وعلم أن أعداء قومه لا بد أن يكونوا قد أغاروا عليهم ، وأخذوهم أسرى ، وانطلقوا بهم ، فعمد إلى سلاحه فأخرجه ، وإلى مهره فأسرجه ، وانطلق يعدو فى الطريق . وفجأة رأى قومه مكبلين بالأغلال ، وأعداءهم يسيرون بهم إلى حيث يريدون ، ورأى أموال قومه التى نهبوها منهم ، وهى فى حوزتهم . . وصمم عنترة على الانتقام ، وعلى استرداد آله ومال قومه مهما كان هو وحده فى الميدان .

معركة ويالها من معركة . عنترة منها فى صف ، وكل خصوم قومه ومن معهم من الأسرى ، وما معهم من الأموال فى صف آخر ؛ وماذا يبلغ عنترة بنفسه منفردا من كل هؤلاء .

وحارب عنترة ، واستبسل فى حرب هؤلاء الأعداء ، وقتل منهم بعض فرسانهم .

وصاحوا به : ماذا تريد أيها العبد ؟ قال : أريد : العجوز السوداء ، والشيخ الذى معها ؛ يعنى أباه وأمه .

ففكوا أغلالهما ، وأطلقوا سراحهما ، وأعطوهما له . .

وهنا دمعت عينا عمه وهو فى الأسر ، فصاح بعنترة : يا بنى كر . . يريد أن يحررهم من الأسر .

وأجابه عنترة : العبد لا يكر ، ولكن يحلب ويصر .

فأعاد عليه القول ثلاثا ، ويجىء إليه الجواب الذى رد عليه به عنترة أولا .

فقال له عمه : إنك ابن أخى ، وقد زوجتك ابنتى عبلة . . وبذلك اعترف بحريته ، وارتفع بمكانته . .

وعندئذ حارب عنترة ، واستبسل فى الحرب ، وكر على أعدائه ، فقتل منهم عشرة فرسان .

فصاحوا به ، ونادوا عليه : ماذا تريد ؟

قال : أريد الشيخ والجارية ، يعنى عمه وابنته عبلة فردوهما عليه .

وقال له أبوه وعمه : احذر ، إن القوم يريدون بك شراً ، فانج بنفسك وبنا ، ولات حين نجاة . .

وهنا يرتفع عنترة بالبطولة العربية وبالخلق العربى إلى ذروة الإنسانية ، ويرد على أبيه وعمه : إنه لقبيح بى أن أرجع عنهم ؛ وجيرانى فى أيديهم . .

وكر على خصومه ، وصرع منهم نحو أربعين فارسا ، ما بين قتيل وجريح .

فصاحوا به — بعد أن أعجزهم — ماذا تريد منا ؟

قال : جيرانى .

فردوهم عليه ، وعاد بهم جميعا إلى حى قومه .

ويومئذ احتفلت عبس ببطلها وفارسها المعلم ، ومنحه أبوه حريته ، واعترف به ، وألحقه بنسبه ؛ ثم زوجه عمه ابنته عبلة ؛ ودوى اسم عنترة ؛ وذاعت أنباء بطولته فى كل مكان ؛ وصار يطلق عليه لقب « عنترة الفوارس » ؛ ولم يعد بطل عبس وحدها ؛ بل أصبح أحد فرسان العرب المعدودين . .

— ٣ —

وكان عنترة يقول الشعر قليلا ، البيت والبيتين منه ، فخاصمه رجل ، وعيره بسواده وسواد أمه ، وأنه لا يقول الشعر . . وكان عنترة شديد السواد ، ورثه عن أمه ، ولذلك عدوه من أغربة العرب وسودانهم .

ولم يسكت عنترة ، بل رد على ذلك الرجل فأفحمه ، قال له فى بلاغة وطلاقة :

والله إن الناس ليترافدون الطعام ، فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك مرفد الناس قط .

وإن الناس ليدعون فى الغارات فيعرفون بتسويمهم ، فما رأيتك فى خيل مغيرة فى أوائل الناس قط .

وإن اللبس ليكون بيننا ، أى النزاع والخصومة فمـا حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك خطة فصل .

وإنى لأحضر البأس ، وأوفى المغنم ، وأعف عن المسألة ، وأجود بما ملكت يدى وأفصل الخطة الصماء ، أى التى لا يبين وجه الرأى فيها .

وإن أكن أسود اللون ، فإنى أبيض الفعال ، وأما الشعر فستعلم . .

وغاب عنترة حينا ، ثم عاد إلى الرجل وأنشده معلقته المشهورة :

هل غادَرَ الشعراءُ من مُتَرَدَّم
أم هل عَرفْتَ الدارَ بعدَ توَهُّم

وكانت العرب تسميها المذهبة ، اعتزازا ببلاغة هذه القصيدة ، وكانت أجود شعر عنترة . ويومئذ لم يعد عنترة بطلا فحسب ، بل وصار شاعراً كبيراً أيضاً . .

وانتصر عنترة فى معركة الشعر والفصاحة ، كما انتصر من قبل فى معركة الحرية والنسب .

— ٤ —

وطارت شهرة عنترة فى الحرب ، وفى الشعر معاً ، فى كل مكان .

ورددت العرب أنباء بطولته فى حرب « داحس والغبراء » . . تسكريما واعتزازاً واحتفاءاً بالبطل والشاعر فى شخص عنترة .

ولم تلبث الأسواق العربية أن رددت شعره ، والمحافل العامة أن شغلت بترداد معلقته ، وروايتها وإنشادها ، واعتبرها الناس قطعة من تراثهم ومفاخر بطولاتهم .

وكان من أمر داحس والغبراء أن داحساً كانت فرساً لقيس بن زهير العبسى ، والغبراء كانت فرساً لحمل بن بدر الفزارى ؛ وتراهن هذان الزعيمان على فرسيهما : أيهما يكون له السبق .

وفى السباق جاء فرس قيس سابقا ، فدبر حمل بن بدر مكيدة رد بها الفرس عن الغاية .

وبسبب ذلك ثارت الحرب بن عبس وذبيان ابنى بغيض أربعين سنة .

وأكلت الحرب كل شىء : المال والرجال والسلاح .

فسعى هرم بن سنان والحارث بن عوف المريان فى الصلح ، وتحملا ديات القتلى ، ثلاثة آلاف بعير ، من مالهما الخالص ، وقال زهير فى ذلك معلقته المشهورة :

أمنْ أمّ أوفى دمنة لم تكلّم

بحومانة الدراج فالمتثلم

التى يقول فيها منوها بهذين السيدين :

تداركتما عبساً وذبيان بعدما

تفانوا ودقّوا بينهم عِطرَ منشم

— ٥ —

ويصور لنا عنترة نفسه فى أوضح صورة ، فى قصيدة له ، فيها ما فى معلقته من عذوبة كلامه وحرارة عاطفته ، واتقاد شاعريته ؛ ومن حبه للحرب وإقدامه فيها ، ويصور فيها غايته من البطولة ، وهى أن ترضى عنه عبلة وترضى عن سواده ، الذى كان عقدة فى نفسه ، ويقول فيها :

يا عبل قومى انظرى فعلى ولا تسلى

عنى الحسود الذى ينبيك بالكذب

خلقت للحرب أحميها إذا نشبت

وأصطلى نارها فى شدة اللهب

وقد طلبت من العلياء منزلة

بصارمى ، لا بأمى ؛ لا ، ولا بأبى

وهكذا رأينا شعره ، فى عذوبة أسلوبه ، وسهولة لفظه ، ورقة معناه ، وحلو نغمه ، وجمال غزله ، ودقة وصفه ، ومتانة فخره وقوة حماسته وشخصيته فى شعره .

مما خلد ذكره ، دون سواه من شعراء عبس وأبطالهم ، من مثل عروة بن الورد العبسى ، مثلا .

وسيرة عنترة التى كتبت بأسلوب الأدب الشعبى فى القرن الخامس الهجرى فى عصر الفاطميين . . فيها ما فيها من تصوير بطولة عنترة ، وشخصيته بوضوح شديد ، وإن كان لها جانبها الملحمى الأسطورى ، مما باعد بينها وبين كثير من الحقائق التاريخية المعروفة عن عنترة . .

ولقد عاش عنترة نحوا من تسعين عاما (٥٢٥ ـ ٦١٥ ميلادية) ، ولا ريب أنه كان بطلا شعبياً للجزيرة العربية فى العصر الجاهلى ، وأنه كان شاعراً من أشهر وأشعر الشعراء قبل الإسلام .

- ٦ -

ولنعد إلى معلقة عنترة ، لنسائل أنفسنا ماذا فى هذه المعلقة من جديد ؟

ونقول فى الجواب عن ذلك ما قاله الناقد العربى القديم ابن سلام عنها : إنها نادرة .

وحقا هى نادرة ، وكأنها طائفة من الأنغام الموسيقية العذبة الجميلة ، التى تتصل بأعماق النفس الإنسانية اتصالا وثيقا . .

وأكثر هذه القصيدة الشعرية يجرى مجرى المثل ، ويترنم به على اختلاف العصور والأحوال والبيئات . . وكأنما كان عنترة فى وصفه لنفسه ، وحديثه عنها ، يصف كل نفس ، ويتحدث عن كل إنسان ووجدان .

والمعلقة يتردد فى كل مقطع منها اسم عبلة ، ويدور الحديث فيها من بدئها لختامها حولها واسم عبلة له فى نفس عنترة كل إجلال وإعزاز وتكريم .

يبدأ عنترة معلقته بذكر الأطلال وتحيتها ، متتبعاً النهج الذى سار عليه غيره من شعراء المعلقات .

ومن ثم كان لبكاء الأطلال ، ولحديث عنترة عن عبلة مكان كبير من القصيدة .

ولكن المعركة حول الشاعر تدور فى كل مكان ، والحرب المشتعلة تطوف بخاطر كل إنسان ؛ وعنترة يذكر الحرب والمعركة فى معلقته ، من خلال ذكره لعبلة .

وكل ذلك فى نغم لذيذ ، ونسق حلو ، حتى تعد هذه القصيدة من أكثر المعلقات انسجاما ، وأبدعها وصفا ، وأشدها حماسة .

ففى بكاء الأطلال يقول عنترة منوها بعبلة ، وأطلال دارها التى كانت مسرحا للهوى والشباب والجمال والذكريات ، ومرتعاً للحب والأحباب والأيام الماضيات . .

هل غادر الشعراءُ من متردَّمِ
أمْ هل عرفتَ الدارَ بعد توهُّمِ

يا دارَ عَبْلَةَ بالجِواءِ تكلمى
وعمى صباحاً دارَ عَبْلَةَ واسلمى

ويستطرد الشاعر إلى وصف روضة قريبة من هناك ، وإلى وصف ناقته .

ثم يعود إلى الفخر بشجاعته وبطولته واقتحامه المعارك ، فيقول موجها الخطاب إلى عبلة :

أثنى علىَّ بما علمتِ فإننى
سَهْلٌ مخالقتى إذا لم أُظْلَمِ

فإذا ظُلمتُ فإن ظلمىَ باسلٌ
مرٌ مذاقتُهُ كطعمِ العَلْقَمِ

وإذا صحوتُ فما أقصِّرُ عن نَدَى
وكما علمتِ شمائلى وتكرُّمى

ويستمر فى التنويه بشجاعته ، إلى أن يقول ، مخاطبا عبلة التى لم ينسها فى أية لحظة ، وهو فى هول المعركة ، يصنع البطولات والانتصارات . .

ولقد ذكرتكِ والرماحُ نواهلٌ
منى ، وبيضُ الهندِ تقطرُ من دمى

فوَددْتُ تقبيلَ السيوفِ لأنها
لَمَعَتْ كبارقِ ثغركِ المتبسِّم

ثم يقول :

لما رأيتُ القومَ أقبل جمعهم
يتذامرون كَرَرْتُ غيرَ مُذَمَّمِ

يَدْعُون عنترَ والرماح كأنها
أشطان بئرٍ فى لبانِ الأدهم

مازلتُ أرميهم بثغرةِ نحره
ولبانه حتى تسربلَ بالدم

واستمعوا إلى هذه العذوبة فى الحديث عن فرسه ، يشكو إليه التعب ، لأن صاحبه البطل كلفه جهدا شديدا ، واقتحم به نيران الحرب ، معركة بعد معركة :

فازورَّ من وَقْعِ القنا بلبانه
وشكا إلىَّ بعَبْرَةٍ وتحمحُم

لو كان يَدْرِى ما المحاورةُ اشتكى
ولكان لو عَلِمَ الكلامُ مُكلمى

وهكذا نجد وصفا للمعركة ، والتحام الجيوش فيها ، وموقفه بفرسه منها، وإقدامه فى وسط المعمعة شجاعاً مقداما جريئا ، لا يهاب ولا يخاف . وهذا الفن الشعرى ، وهو الشعر الحماسى ، هو الفن الذى أجاده عنترة ، وبلغ فيه الذروة وارتفع فيه وبه إلى قمة البلاغة .

وفى آخر معلقته تهديد « قوى » لابنى ضمضم ، وكان عنترة قتل أباهما فى الحرب فتوعداه بالأخذ بالثأر ، ونذرا دمه ، وتربصا له .

ولن نجد صورة دقيقة لعنترة وملامحه الشخصية والخلقية والنفسية أكثر مما نجد فى معلقته التى تمثل حماسته وشجاعته وإقدامه وحبه للحرب واقتحامه لأهوالها ، ومخاطرته بنفسه فيها ، تمام التمثيل . . وفى المعلقة يرسم عنترة صورة القتال عند العرب فى العصر الجاهلى ، حيث ينزل الجنود والقواد وسط أرض المعركة ، أو يدورون بخيولهم فى وسطها ؛ ويقول لنا عنترة إنه ود تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغر عبلة المبتسم ، وأنه دخل الميدان لأنه رأى اعداءه قد دخلوه ونادوا عليه لينزل إليهم ؛ وإنه وقف فى وسط الميدان حيث المحاربون يهتفون باسمه ، ويدعونه حيث احتدام الحرب ، وما أجمل ما ذكره من بكاء الفرس ، وأنه لو استطاع الحديث لتحدث عن فرط ما كلفه عنترة من أهوال الحرب . والشىء الذى بعث الفزع فى قلب الشاعر البطل هو هتاف الفرسان باسمه ، وإلحاحهم عليه أن يستمر فى إقدامه وبطولته .

الفصل الخامس عشر

طــرفة بن العبـــــد

- ١ -

طرفة من أعلام الشعراء الجاهليين ، وصاحب شخصية واضحة فى شعره ، ومذهب مستقل فى حياته ؛ وشاب جمع إلى فتوة الشباب وطيشه حكمة الشيوخ وتجربتهم .

ويعجب النقاد والمستشرقون به وبشخصيته وشعره إعجاباً شديداً .

رفعه النقاد العرب القدماء إلى منزلة عالية فى الشعر الجاهلى ، وجعله أبو عمرو بن العلاء الناقد المشهور القديم مع امرىء القيس والنابغة والمهلهل فى طبقة واحدة ؛ وفضله ناقد آخر هو أبو زيد الأنصارى عليهم ، وجعله أشعرهم ، مع حداثة سنه ، وطول أعمارهم .

وكان لبيد بن ربيعة الشاعر الجاهلى المشهور يقدم امرأ القيس ، ثم طرفة على نفسه .

ونوه به وبشاعريته جرير والأخطل وعنى الرواة والنقاد وعلماء الشعر بشعره عناية شديدة .

ودرس شعره كوسان دى برسفال ، ونشر عنه بيرون أبحاثا قيمة فى المجلة الآسيوية الفرنساوية عام ١٨٤١ م ؛ وطبع ديوانه المستشرق وليم آلورد

مع دواوين النابغة وزهير وعنترة وعلقمة وامرىء القيس عام ١٨٧٠ م فى لندن ، فى مجموعة سماها العقد الثمين فى دواوين الشعراء الجاهليين . ونشر مستشرق آخر ديوانه كاملا مشروحا ، وترجم ذلك إلى الفرنسية مع دراسة قيمة عن حياته . وترجم دى سيلان بعض قصائده إلى الفرنسية ؛ ونشر « لايل » معلقته مع سائر المعلقات بشرح التبريزى عام ١٨٩٤ م فى كلكتا . ونشر « ريشر » المعلقة بشرح الأنبارى فى القسطنطينية .

- ٢ -

كل هـذا الاهتمام بطرفة وبشعره ، يرجع إلى ما فى قصائده من طرافة وجدة وصدق فى التعبير والتصوير ؛ وإلى مذهبه الذى انفرد به وصوره فى شعره .

وطرفة متوهج الشاعرية دائماً ، يقوده ذهنه اللماح إلى الصيغ الفنية الجديدة ، والصور الشعرية الرفيعة ؛ فهو ليس شاعراً مكروراً مثل كثير من الشعراء بل كان مستقل النزعة والتجربة والإحساس الفنى .

ودعاة التعبير بالصورة الشعرية يذهلون عندما يجدون طرفة كان أسبق منهم إلى التعبير عن تجاربه بالصورة الشعرية ، التى كان يساعده فى اكتمالها ونضوجها موهبته الصناع ، وذهنه الذكى ، وشاعريته الأصيلة .

وانظر إلى هـذه الصورة الشعرية ، التى رسمها فى معلقته ، يقول : إن الفقراء لا ينكرونه ، والأغنياء كذلك يعرفونه ، ثم ينوه بشجاعته فيقول :

رأيتُ بنى غبراءَ لا ينكروننى
ولا أهلُ هذاكَ الطرافِ الممدَّدِ

ألا أيهذا الزاجرى أحضرَ الوغى
وأن أشهدَ اللذات هل أنت مُخلدى

فإن كنتَ لا تستطيعُ دفعَ منيَّتى
فدعْنى أبادرْها بما ملكتْ يدى

وهى صورة لا تنقصها الروح والحياة ، ولا رعشة الفن وتوهجه .

ومع تنوع معانى طرفة ، فإن شعره يتصل بنفسه وحياته وقبيلته ، وبتاريخ قومه وأحسابهم ومفاخرهم ، وبالحياة العربية عامة ، اتصالا وثيقًا .

ومعلقة طرفة تصور بعض الجوانب العامة فى حياته ، وهى التى عد بها من فحول الشعراء الجاهليين ومشهوريهم ، واستحق من أجلها أن يعده بعض النقاد أشعر طبقته .

وهى أطول المعلقات ، وأبياتها خمسة ومائة بيت . وتمتاز بكثرة معانيها ، وجزالة أسلوبها . وفيها نجد صوراً من عادات الجاهليين فى مجتمعاتهم ؛ وفى مجالس لهوهم ، ومآتمهم ، وصورا أخرى من أساطيرهم وأفكارهم . ومنها يستدل الباحثون على أنه كان للعرب معرفة بالملاحة ، وركوب السفن ، وأنه كانت لهم صناعات من أهمها بناء السفن فى البحرين ، ودباغة الجلد فى اليمن ، وصناعة الورق فى الشام ؛ ويستدلون بها كذلك على معرفة العرب للكتابة ،

وعلى حذق الروم فى البنيان ، وعلى استعمال العرب المرداة ، وهى آلة حجرية يكسر بها غيرها من الحجارة .

وهذا كله إلى ما فيها من صور عن الشاعر وأخلاقه ، حتى لتكاد ترى طرفة مرسوما أمامك تلمسه لمساً وأنت تقرأ أبيات المعلقة بيتاً فبيتا .

وحكمه التى ذكرها فى معلقته هى خلاصة تجاربه فى الحياة ، وثمرة فهمه لها ، وليست لها طوابع الشعر التعليمى فحسب . . والشاعر من هذه الجوانب كلها يوليه الباحثون عناية لا يولونها شاعراً آخر .

وقد نظمها على ما نرجح عتاباً لابن عمه ، أو أخيه ، معبد .

وقد تحدث الشاعر فى مطلع المعلقة عن الأطلال ، ووقوفه بها ؛ وذكر حبيبته خولة ، وموضع نزولها هى وقومها ببرقة ثهمد ، فقال :

لِخَوْلَةَ أطلالٌ ببُرْقَةِ ثَهْمَدِ

تَلوحُ كباقِى الوشْمِ فى ظاهر اليَدِ

ثم عرض لحبه وأحبابه ، ووصفهم ، وبكى لفراقهم .

وتقوده الهموم إلى الرحلة فى الصحراء ، ورفيقه ناقته التى ركبها ليسلى عن نفسه الأحزان .

وإنى لأمضِى الهَمَّ عند احتضاره

بعَوْجاءَ مرقالٍ تروحُ وتغتدى

ويأخذ فى وصف هذه الناقة وصفاً دقيقا ، فى نحو ثلاثين بيتا .

وينتقل الشاعر إلى الفخر بنفسه ، ووصف كرمه وفنونه ولذاته وأمانيه ، فى ثلاثين بيتا أخرى .

ويعاتب ابن عمه عبد عمرو ، أو أخاه من أبيه معبداً فى أربعة عشر بيتاً .

ويختم قصيدته بوصف أمانيه وبالحكمة التى أرسلها ، من مثل قوله :

ستبدى لكَ الأيامُ ما كنتَ جاهلاً
ويأتيكَ بالأخبارِ من لم تُزَوِّدِ

وما أجمل ما يرد طرفة على لائميه بالتهور فى الشجاعة ، وبالإسراف فى اللذات ، فى قوله :

ألا أيُّهذا الزاجرى أحضرَ الوغى
وأن أشهدَ اللذاتِ ، هل أنت مُخلِدِى
فإن كنتَ لا تستطيعُ دفعَ منيّتى
فدعنى أبادرْها بما ملكتْ يدِى

ويقول : إن البخيل الغنى ، والمسرف الغوى ، مآلهما واحد ، ونهايتهما واحدة ، ولا يمتاز قبر أحدهما عن قبر الآخر :

أرى قبرَ نحّام بخيلٍ بمالِه
كقبرِ غوىٍّ فى البطالةِ مُفسِدِ

ويذكر أن الموت يختار الجياد من كل شيء ، فيقول :

أرَى الموتَ يَعْتامُ الكرامَ ويَصْطفى

عَقِيلَةَ مالِ الفاحِشِ المُتَشَدِّدِ

ويرى أن الإنسان معلق من الفناء والموت بحبل متين ، إن بعد الأجل أرخى الموت الحبل ، وإن دنا شده ؛ وهب الإنسان عمر فى الحياة ، أله قدرة على النجاة من الموت ؟ كلا لا يخرج أحد من سلطانه ، مهما طالت به الحياة ؛ يقول طرفة :

لَعَمْرُكَ إنَّ الموتَ ما أخطأ الفَتَى

لَكالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْيَاهُ باليد

— ٣ —

ولطرفة قصيدة مفردة فى الغزل ، بكى فيها دار حبيبته سلمى أو سليمى ، ووصف جمالها ، وتحدث عن حبها ، فقال فيما قال :

دِيَارُ سُلَيْمَى إذ تَصِيدُكَ بالمُنَى

وإذ حَبْلُ سلْمَى منكَ دانٍ تواصله

غَنِينا وما نَخْشَى التفرقَ حِقبةً

كِلانا غَرِيرٌ ناعِمُ العيشِ باجِلُهْ

لَيَالِيَ أنقادُ الصِّبَا ويقُودُني
يَجولُ بنا رَيْعَانُه ويُحَاوِلُهْ

ثم يقول :

فوجدي بسلمى مثلُ وَجْدِ مُرَقَّش
بأسماءَ إذ لا تستفيقُ عواذِلُهْ

قضى نَحْبَهُ وجْداً عليها مُرَقِّشٌ
وعُلِّقْتُ من سلمى خيالاً أماطلُهْ

— ٤ —

وليس عجيباً أن نرى طرفة مجيداً ، معلم الشاعرية ؛ في معلقته وفي بعض شعره ، فلقد كان كل شيء في حياته يثير فيه الشعر ، ويعمل عمله في صقل مواهبه الفنية ، وطبيعته الشاعرة . .

الصحراء بروعتها وجلالها
ومفاخرُ القبيلة وأيامها وأحسابها
وخصوماتها وملاحمها
ووراثات للشاعر في أسرته الشاعرة

وكان من أعلام الشعراء من بني قومه : المرقش الأكبر ، والمرقش الأصغر ، والمتلمس ، والحارث بن حلزة شاعر قومه بكر ، وسواهم .

ثم يتم الشاعر وهو طفل صغير ورحلاته فى الجزيرة العربية وحدة عواطفه ، والتهاب مشاعره كل ذلك مما فجر شاعريته ، وآثار إلهامه وعبقريته .

— ٥ —

وطرفة من ربيعة ، من بكر بن وائل ، وبكر قبيلة عربية كبيرة ، كانت تنافس أختها تغلب فى الشرف والسيادة ؛ وربيعة أخت مضر فى الحسب والقوة والعدد والمنعة .

أما أسرته القريبة فهى سعد بن مالك بن قيس ووالده هو العبد بن سفيان ابن سعد مالك .

ووالدته « وردة » التى ذكرها فى شعره ، وهى أخت المتلمس الشاعر ، فهى من بكر من ربيعة ؛ وصلة القرابة بين أبويه واضحة . والمرقش الأصغر عم طرفة .

وكان جده سفيان موصوفا بالشرف والرياسة ، وأبوه كان شابا قويا ظاهر الشجاعة والفتوة ، ومات وطرفة صغير .

ولطرفة أخ من أبيه اسمه معبد ، وأخت من أمه اسمها الخرنق ، وهى شاعرة أيضاً ، ولها ديوان شعر مخطوط فى دار الكتب المصرية ، وقد تزوجها ابن عمها عبد عمرو بن بشر .

وكان طرفة وقومه يعيشون فى البحرين ، التى كانت آنذاك خاضعة لنفوذ الحيرة السياسى ؛ وكان للقبائل التى تعيش فيها ، والشعراء الذين عاشوا

على أرضها ، صلات « كبيرة » بملوك الحيرة ، الذين كانوا يخضعون لنفوذ الأكاسرة ؛ وكانت هذه البلاد قريبة من العراق ، ويمر بها المسافرون بين فارس والعراق ، وتتأثر بما كانت تتأثر به الحيرة آنذاك من تلاقى الأفكار والمذاهب المختلفة ؛ وكانت تعيش فى ظلال ألوان من الحياة ، لها أثرها فى عقلية أبنائها ، وفى تفكير شاعرنا طرفة بوجه خاص .

ونشأ طرفة فى هـــذه البيئة ، بين حسب كريم ، وعدد كثير ، وحمية ظاهرة . .

وفوجىء وهـــو طفل بوفاة والده ، فترك يتمه أكبر الظلال فى نفسه وحياته . وكفله أعمامه ، وقاموا بواجب تنشئته ؛ وأخذ الشاب الصغير يلهو بالشعر ، ويقوله فى مختلف أغراضه . . وأول شعر نظمه على ماروى الرواة هو هذه الأبيات التى أنشدها حين وجد أعمامه يظلمونه ، ويغصبون حقوقا لأمه وردة :

ما تنظرونَ بحقِّ وَرْدَةَ فيكمو
صَغُرَ البنونَ ورهطُ وردةَ غُيَّبُ

قــدْ يبعثُ الأمرَ العظيمَ صغيرُهُ
حتى تظــلَّ له الدماءُ تَصَبَّبُ

والظـــلمُ فرَّقَ بين حَيَّيْ وائل
بكرٌ تســـاقيها المنيَّةَ تغلب

وعن سأم بالحياة ، وضجر منها ، وعدم اكتراث بها ، أخذ الشاعر يميل إلى اللهو ويسرف فيه ، ويعتنق البطالة ، ويهجو قومه وغيرهم . وأخذ أهله ينصحونه ويلومونه ، حتى ضاق بهم ذرعاً ، فاقتاد راحلته ، يتنقل بها بين الأحياء والبلاد ، ومر باليمامة واليمن ، وركب البحر إلى الحبشة ، ثم غلبه الحنين إلى الدار والسكن ، والأهل والوطن ، فعاد إلى البحرين ، وهو يقول مخاطباً محبوبته :

تعيّرنى سَيْرى فى البلادِ ورحلتى
ألا رُبَّ دارٍ لى سوى حُرِّ دارِكِ

وليسَ امرؤٌ أفنى الشبابَ مجاوراً
سوى حَيِّه إلا كَآخَرَ هالكِ

وقاسمه أخوه معبد ماله ، وعاش قليلا هناك ؛ ثم عاد من جديد يفكر فى الرحلة إلى الحيرة ، فقصد ملكها عمرو بن المنذر ، المعروف بعمرو بن هند ، الذى تولى ملك الحيرة خمسة عشر عاما (٥٥٤ — ٥٦٩ ميلادية) . ومدحه طرفة ، وأجزل له المنذر ولخاله المتلمس العطاء ، وأحسن وفادتهما ، وجعل طرفة فى حاشية أخيه وولى عهده قابوس بن المنذر . ولكن الوشايات سرعان ما اشتعلت نارها ، واشتد أوارها ، حقداً على طرفة ، لمنزلته فى بلاط الملك ، ووقعت لطرفة أحداث تقتل بعدها فى البحرين بأمر ملك الحيرة ، وذلك عام ٥٦٥ ميلادية .

ولم يعش طرفة غير ستة وعشرين ربيعا ، ودع الحياة بعدها ، وداع الخبير

بها ، الناقم عليها ، الساخر منها . وما أجمل ما قال طرفة ، يتحدث عن نهاية حياته :

إذا متُّ فانعيني بما أنا أهله
وشقي على الجيبَ يا ابنةَ معبَدِ

ولا تجعليني كامرئ ليس همُّه
كهمّي ، ولا يغني غنائي ومشهدي

ومن عجب أن تكون العبقرية قصيرة العمر ، وأن تكون حياتها كحياة الورود ؛ ولكنها تترك شذى معطرا ، وأريجاً طيباً ، وذكراً لا يموت على مر السنين .

وهكذا مات طرفة ابن الستة والعشرين ربيعا ، بعد أن نقل إلى الأجيال من بعده كل ما رآه من فكر ومذهب في الحياة .

الفصل الخامس عشر

الحطيئـــة الشـــاعر

— ١ —

أبو مليكة الحطيئة جرول بن أوس العبسى شاعر كبير ، يعد من أعلام الشعراء المخضرمين ، ممن عاشوا فى الجاهلية والإسلام ، شأنه فى ذلك شأن حسان

ولقد عاش الحطيئة حياته كلها للشعر وفى الشعر وبالشعر ؛ عاشها شاعرا ، ومشى فيها شاعرا ، وودعها وليس له تراث إلا الشعر .

ولد الحطيئة فى الجاهلية ، ومن أسرة خاملة فانتسب إلى عبس ، ونشأ وعاش بين الجاهلية فى فيافى الصحراء ، ينتقل من مكان إلى مكان ، ويشهد حروب العرب وأيامهم وأسواقهم ، ويشترك فى المفاخرات والمناقضات الشعرية الكثيرة ، التى كانت تشب كثيرا بين الشعراء فى العصر الجاهلى .

وكان الحطيئة من مدرسة زهير ، وأحد رواة شعره ، وتخرج على يديه فى صناعة القريض ، فعكف على الصنعة والتهذيب والتجويد لشعره ، كما كان يفعل أستاذه زهير ؛ وصار ينظم الشعر الجيد ، فى فحولة نظم ، ورصانة أداء ، وقوة تعبير ، وضخامة معنى ، وشدة تأثير يأخذ عن زهير صياغة الشعرية الجليلة ، العالية الديباجة ، وينسج على منواله فى إحكام النسج وتلاحم الصور واختيار الكلمات .

وصار ينظم القصائد فى الجاهلية فى المدح والهجاء ، كما ظل فى الإسلام

ينظم كذلك فى هذين الغرضين البارزين من أغراض شعره ، إذ كانا أوسع أغراضه وأجود شعره ، بل هما سبب شهرته ، وذيوع اسمه فى كل مكان .

ولما ظهر الاسلام ، وأضاء نوره فى كل أفق ودخل فيه العرب جميعا بعد فتح مكة ، أسلم الحطيئة ، واستظل بلواء الدين ، وعاش متنقلا فى القبائل ، يمدح ويهجو ، ولا سبب للمدح والهجاء إلا الحرمان والعطاء ؛ وأخذ ينتسب إلى عبس تارة ، وإلى ذهل أخرى ، ويهجو اليوم من مدحه بالأمس .

وظل شعره فى الإسلام على ما كان عليه فى الجاهلية ، فيه أثر زهير وصنعته ومذهبه ، وفيه فنه المتميز الواضح . وكان الحطيئة كما علمنا راوية لزهير ولآله من بعده ، وعلى نمط حوليات زهير خرجت قصائد الحطيئة جزلة الألفاظ ، قوية التركيب ، محكمة النسج ، متجاوبة الخيال ، متساوقة العاطفة .

وبسبب تأثر الشاعر بزهير وصناعته فى الشعر ، وأنه كان ينخل شعره ويصنعه ويصفيه ، ويصطفى الجيد وحده ، وأنه كان يعيش فى البادية بعيداً عن مكة والمدينة ؛ فقد ظل الحطيئة لا يخضع فى شعره إلا لهذه العوامل وحدها .

وكان الحطيئة فى الإسلام رقيق الدين ، إذ دخل فيه على كبر وطمع ، فظل كما كان يرخى لنفسه عنان الشهوة ويسرج فى الباطل أفراس الجهالة ، ويصول فى كل ميدان ، ويترنم بالشعر من فوق كل غصن .

ولم يتغير شعره فى الإسلام عما كان عليه فى الجاهلية ، فى خصائصه الأصيلة ، سواء فى المضمون ، أم فى الصورة ، أم فى الشكل الفنى للقصيدة ، فاحتفظت قصائده بروعتها ورصانتها وجزالتها ، وبقيت لها كل خصائصها .

ولذلك كان شعره في الجاهلية وفي الإسلام ينبع من معين واحد ، وينزع عن قوس واحدة .

ويصفه ابن سلام الناقد المشهور في كتابه « طبقات الشعراء » بأنه متين الشعر ، شرود القافية ؛ ويقول فيه أبو الفرج الأصفهاني صاحب كتاب « الأغاني » : كان الحطيئة من فحـــول الشعراء ومتقدميهم وفصحائهم ، وكان متصرفا في جميع فنون الشعر ، من المدح والهجاء والفخر والنسيب ، مجيداً في ذلك كله » .

ويقول فيه أبو عبيدة : ما تشاء أن تطعن في شعر شاعر إلا وجدت فيه مطعنا ، إلا الحطيئة .

— ٢ —

وفي حركة الردة ارتد الحطيئة ، ثم عاد فأسلم ، وظل على الإسلام إلى آخر حياته طيلة عصر الخلفاء الراشدين ، وعصر معاوية .

وكان مرهوب الجناب ، يخشى الناس شره ، ويرهبون إن يقع فيهم الحطيئة بلسانه .

وقصته مع الزبرقان بن بدر تعطينا صورة عن الحطيئة ومكانته في المجتمع العربي آنذاك .

روى أن الزبرقان قدم على عمر بن الخطاب ، ومعه صدقات قومه ، فلقيه

الحطيئة بقرقرى من أرض اليمامة ، ومع الحطيئة ابناه : أوس وسودة ، و بناته وامرأته ؛ فقال له الزبرقان وقد عرفه ولم يعرفه الحطيئة : أين تريد ؟ قال : العراق فقد حطمتنا هذه السنة ، قال : وما تصنع بها ؟ قال : وددت أن أصادف رجلا يكفيني مئونة عيالى وأصفيه مدحى أبدا ، فقال الزبرقان : قد أصبته ، فهل لك فيه يوسعك لبنا وتمراً ، ويجاورك أحسن جوار وأكرمه ؟ فقال الحطيئة : هذا وأبيك العيش ، قال : قد أصبته عندى ، قال : ومن أنت ؟ قال : الزبرقان بن بدر قال : وأين محلك ؟ فدله عليه وكتب معه كتابا إلى أهله ليحسنوا إليه ؛ فلحق الحطيئة بمنزل الزبرقان ، ولقى الإكرام والإحسان وكان للزبرقان أبناء عمومة ينازعونه الشرف وهم بنو بغيض ، وكانوا من آل شماس ، ويلقبون بنى أنف الناقة ، فأجهدوا أنفسهم فى تحويل الحطيئة إليهم ، ووعدوه ، ومنوه الأمانى ، فلما احتاج آل الزبرقان للنجعة ، قالوا للحطيئة : هيا ، فقال لهم : تقدموا وأنا لاحق بكم ، ثم لحق ببغيض وقومه ، فبالغوا فى إكرامه ، وأعطوه إبلا كثيرة وكسوة .

فلما قدم الزبرقان سأل عنه ، فأخبروه بقصته ؛ فذهب إلى نادى القوم وقال : ردوا على جارى ، فقالوا : ما هو لك بجار ، وقد تركته بمضيعة ، وكثر الجدل والحوار ، وانتهى الأمر بأن خيروا الحطيئة ، فاختار بغيضاً وقومه ؛ فقال الزبرقان له : يا أبا مليكة ، أفارقت جوارى عن ذم وسخط ؟ فقال : لا ، فتركه وانصرف ؛ ولكن لم يلبث الحطيئة أن نظم قصيدة يهجو فيها الزبرقان ، ويمدح بغيضا وقومه ، ويقول فيها : يخاطب الزبرقان :

دَع المكارمَ لا ترحلْ لبغيتها
واقعدْ فإنك أنت الطاعمُ الكاسى

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه
لا يذهب العرف بين الله والناس

وفى هذه القصيدة استخدم الشاعر كل ملكاته الشعرية وموهبته التصويرية وموسيقاه وصنعته وفنه فى التجويد ، لإعطاء هذا الهجاء صورة ضخمة جليلة مؤثرة ، وقابل نقائض الزبرقان بفضائل بغيض وقومه ، وقابل الهجاء بالمدح ، وجعل القصيدة ذات أمثال كثيرة سائرة ، وأعطى الظنون ثوب الحقائق . . مما جعل للقصيدة تأثيرها الضخم ، وذيوعها فى كل مكان . وكان وقعها على الزبرقان شديداً ؛ ففيها حط لكرامته ، وسلب لمروءته ؛ ألم يقل له الشاعر : اقعد فإنك أنت الطاعم الطاسى ؟ ألم يرمه بأنه ضعيف الهمة قليل المروءة ، لامطمع له فى الحياة إلا أن يكون آكلا كاسيا ، فليس بأهل لرياسة أو شرف .

وذهب الزبرقان إلى الخليفة عمر ، فشكا إليه الحطيئة ، وقال عمر للزبرقان: ماذا قال لك ؟ قال الزبرقان : قال الحطيئة :

دَع المكارمَ لا ترحلْ لبغيتها
واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

فقال عمر : ما أسمع هجاء ولكنها معاتبة ، وذلك على مذهب عمر فى درء الحدود بالشبهات . فرد عليه الزبرقان : أو ما تبلغ مروءتى إلا أن آكل وألبس ؟ فقال عمر : على بحسان ولبيد ؛ وجاء حسان ولبيد ، فعرض عمر

عليهما القضية ؛ فقال حسان : لم يهجه ولكن سلح عليه ، وقال لبيد : ما يسرنى أن لى حمر النعم وأنه قد قيل فى هذا البيت .

فأمر عمر بالحطيئة فحبس ، فأخذ يرسل الشعر ، ويقول القصائد ، يستعطف بها قلب عمر ، فاستدعاه الخليفة ، ولما مثل الشاعر بين يديه ، وأنشده :

أنت الإمام الذى من بعد صاحبه
ألقى إليك مقاليدَ النُّهى البشَرُ

لم يؤثروكَ بها إذ قدَّموك لها
لكن لأنفسهم كانت بك الأثر

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخ
زغب الحواصل لاماء ولا شجر

ألقيتَ كاسِبهم فى قَعْرِ مُظلمةٍ
فاغفر عليك سلام الله ياعمر

فدمعت عينا عمر ، واستتاب الحطيئة ، واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم ، وأطلق سراحه .

وعاد الحطيئة ، فنزل ببنى بغيض ، فجمعوا له مائة بعير ، ودفعوها إليه مع راعيها ، فقال فيهم ، وكانوا يلقبون ببنى « أنف الناقة » يعيرون بذلك ، فقلب هذا اللقب إلى مدح ، فقال :

قوم همو الأنف والأذنابُ غيرهمو

ومن يسوِّى بأنف الناقة الذنبا ؟

وقال فى مدحهم وهو يرحل عنهم :

لا يبْعِدِ اللهُ من يعطىَ الجزيلَ ومن

يَحْبُو الجليلَ وما أكْدىَ ولا نَكدا

ومن تُلاقيه بالمعروفِ مبتهجا

إن يعْطِكَ اليوم لا يمنعْكَ ذاك غدا

— ٣ —

وظلت هدايا آل شماس قوم بغيض تتولى عليه وظل شعره يسير فيهم ، ومن قصائده المشهورة فى مدحهم قصيدته التى يقول فيها :

أولئكَ قومٌ إن بنَوْا أحسنوا البِنَا

وإن عاهدوا أوْفَوْا وإن عَقَدوا شدُّوا

وإن كانت النعماء فيهم جزَوا بهـا

وإنْ أنعموها لا كدُّروا ولا كَدُّوا

وإن قال مولاهم على جُلِّ حادث

من الدهر رُدُّوا فضلَ أحلامهم رَدُّوا

مطاعينُ فى الهيجا مكاشيفُ للدجى

بَنَى لهم آباؤهم وبنى الجدْ

يسوسون أحـلاما بعيداً أناتها

وإن غضِبُوا جاءَ الحفيظة والجِد

أقِلُّوا عليهم لا أبـا لأ بيكمو

من اللوم أو سُدُّوا المكان الذى سدُّوا

فبعثوا إليه على هذا المدح بجزيل الأموال .

ويعترف النقاد بأن هذه القصيدة التى قالها الحطيئة فى بنى بغيض من عيون العربى ، ومن روائع القصيد . ويقولون كذلك : فإنه ما زال الناس يفضلون قول الأعشى فى وصف نيران القرى :

تُشَبُّ لمقرورينْ يَصْطَلِيَانِها

وباتَ على النار الندى والمحلّقُ

حتى قال الحطيئة فى مدح بغيض :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره

تجدْ خيرَ نار عندها خَيْرُ موقِدِ

فأخمل بيت الأعشى : وهذا البيت من قصيدة يقول فيها :

تزورُ فتى يُعطى على الحمـد ماله
ومن يُعْطِ أثمانَ المكارمِ يُحْمَدِ

مفيدٌ ومتلافٌ إذا ما سألته
تهلل واهتزَّ اهتزازَ المهنّدِ

— ٤ —

وإذا كان الحطيئة من أصفى الشعراء ديباجة ، وأروعهم أسلوبا ، وأجملهم صياغة ، وأكثرهم تصرفا في الشعر ، من المدح والهجاء ، إلى الفخر والوصف.. فإن النقاد يعترفون له بهذه الموهبة الجليلة ، وبهذه الشاعرية الأصيلة ، حتى قال أبو عمرو بن العلاء فيه : إن أصدق بيت قالته العرب قول الحطيئة :

من يفعل الخير لا يَعْدم جوازيَه
لا يذهبُ العُرْفُ بين الله والناس

فقيل له : فأين يذهب بك قول طرفة :

ستبدي لك الأيامُ ما كنت جاهلا
ويأتيك بالأخبار من لم تُزَوِّدِ

فقال : من يأتيك بها ممن زودت أكثر ، وليس بيت قالته الشعراء إلا فيه مطعن إلا قول الحطيئة هذا .

وقال حماد الراوية : ليس أحد بعد زهير أشعر من الحطيئة .

وإذا كان الحطيئة قد عاش حياته ، تتقاذفه الفلوات ، وتطويه المهامه ، وتنشره الفيافى ، يظعن من مكان إلى مكان ، حاملا متاعه ، وأولاده بين يديه ، يتنقل من حى إلى حى ، يعاشر قوما ثم يرحل عنهم إلى آخرين ، يمدح ثم يهجو ؛ انتجاعاً للرزق ، وطلباً للمال . . فلا بد أن يكون المدح والهجاء نصيب كبير من شعره ، وأن يكون لهما من التأثير ما ليس لأكثر كلام الشعراء ، حتى كانت القبائل تخشى سطوة لسانه ، ومعرة بيانه ، فتحاموه حينا ، وتنافسوا فى إكرامه وإرضائه حينا آخر . ويروى أنه مر بعتيبة العجلى من عظماء بكر ، فرده وهو لا يعرفه ، فانصرف الحطيئة ، وفزع إلى عتيبة بعض قومه ، وقالوا له : عرضنا أنفسنا للشر ، هـذا الحطيئة وهو هاجينا أخبث هجاء ، فقال : فردوه ، فردوه ، فقال له : لم كتمت نفسك كأنك كنت تطلب العلل علينا ، اجلس فلك عندنا ما يسرك ، فجلس ، فقال له : من أشعر الناس ؟ قال الذى يقول :

ومن يجعل المعروف من دون عِرْضه
يَفِرهُ ، ومن لا يَتَّقِ الشتمَ يُشْتَمَ

فقال له عتيبة : هـذا من مقدمات أفاعيك ، وأكرمه غاية الإكرام ، وقال له وهو فى نادى قومه : هذا مقام العائذ بك من خيرك وشرك ، فأنشد الحطيئة :

سُئلتَ فلم تبخل ولم تعط طائلا
فسيَّانِ لاذمٌّ عليكَ ولا حَمْـد

ثم ركب فرسه وانطلق به فى الصحراء .

ووصف الحطيئة بارع دقيق التصوير ، واسع الخيال « يصف بخيلا نصب له شراكه ، واحتال عليه بشتى الحيل ، فلم يغن ذلك شيئاً ، فيقول :

كدحتُ بأظفارى وأعملتُ معْوَلى
فصادفت جُلْمُودا من الصخر أملسا

تشاغلَ لما جئتُ فى وجه حاجتى
وأطرق حتى قلتَ قدمات أوعسى

وأجمعـــت أن أنساه حين رأيته
يَفوق فوَاق الموت حتى تنفسا

وقلت له لا بأسَ لستَ بعائدٍ
فأفرخَ تعـلوه السمادير مبلسا

وهى صورة طريفة تصرف فيها بخياله أحذق تصرف وأبدعه :

ومن روائع وصف الحطيئة ، وسائر قصائده ، التى تجمع إشراق الديباجة وتأنق التصوير وسعة الخيال ودقة الوصف ، وفيها روح القصة وحوارها ومضامينها ، قصيدته . « وطاوى ثلاث » التى يقول فيها :

وطاوى ثلاث عاصب البطن مرمل
ببيداءَ لم يعرف بهـا ساكن رسما

رأى شبحا وسط الظلام فراعه

فلما رأى ضيفا تشمّر واهتما

وقال: هيّا ربّاه ضيفٌ ولا قِرى

بحقك لا تحرمه تا الليلة اللحما

فقال ابنه لما رآه بحيرة

أيا أبتِ اذبحنى ويسّر له طعما

ولا تعتذر بالعدم على الذى طرا

يظن لنا مالا فيوسعنا ذما

وهى غنية بعناصر الجمال والإبداع والتجديد .

وللحطيئة فى الحكمة مجال كبير ، وأبياته :

ولست أرى السعادة جمعَ مال

ولكنّ التقىّ هو السعيدُ

وتقوى الله خيرُ الزادِ ذخرا

وعند اللهِ للأتقى مزيد

وما لابدّ أن يأتى قريب

ولكن الذى يمضى بعيدُ

ولها شهرتها عند الناس والنقاد .

— ٥ —

وبعد : فإن الشعر كانت له فى نفس الحطيئة منزلة رفيعة ، كانت حياته كلها خالصة للشعر ، وذوقه ووجدانه كانا وقفا وعلى الشعر ، وتفكيره دائما كان فيه ، حتى وهو فى الرمق الأخير ، حتى ليروى أنه لما حضرته الوفاة اجتمع إليه قومه ، وقالوا له : اوص ، فقال : ويل للشعر من راوية السوء ، قالوا أوص رحمك الله .

قال : أبلغوا الشماخ شاعر غطفان أنه أشعر العرب فى وصفه للسهم ، قالوا : ويحك ، أوص بما ينفعك .

قال : أبلغوا أهل ضابىء الشاعر أنه شاعر حيث يقول :

لكل جديد لذة غيرَ أننى
وجدتُ جديدَ الموتِ غير لذيذ

قالوا : أوص ، ويحك بما ينفعك ، قال بلغوا أهل امرىء القيس أنه أشعر العرب فى وصف الليل .

قالوا : اتق الله ودع عنك هذا ، قال : أبلغوا الأنصار أن صاحبهم حسانا أشعر العرب حيث يقول :

يُغْشَوْن حتى ما تَهِرُّ كلابهم
لا يسألون عن السواد المقبل

قالوا : قل غير ما أنت فيه .

قال : الشعرُ صعبٌ وطويلٌ سلمهْ

إذا ارتقَى فيه الذى لا يعلمُهْ

زلت به إلى الحضيض قدمُه

يريدُ أن يُعرِبَهُ فَيعجمُه

ومات الحطيئة ، وكان ذلك آخر حياته ، رحمه ؟

خاتمة هذا البحث

١ — لا تزال دراسة الشعر الجاهلى قديمة تقليدية لا أثر للبحث والتجديد فيها ؛ ولا يزال فهمنا للشعر الجاهلى فهما سطحيا عقيقا ، ومناهج البحث الأدبى عندنا مناهج بدائية بالية .

وكانت أول ثورة فى تاريخ البحث الأدبى فى الشعر الجاهلى ظهور كتاب « الأدب الجاهلى » للدكتور طه حسين الذى جعله وقفا على دراسة نظرية انتحال الشعر الجاهلى وبواعثها ومظاهرها عند الشعراء الجاهليين .

وقد ألفت كتب كثيرة فى الدفاع عن الشعر الجاهلى ؛ من أهمها : الشهاب الراصد للأستاذ :محمد لطفى جمعه المحامى وقد طبعه عام ١٩٢٦ م ، وكتاب « النقد التحليلى لكتاب الأدب الجاهلى » تأليف الأستاذ محمد أحمد الغمراوى ، ونقض كتاب الأدب الجاهلى للأستاذ الكبير الشيخ الخضر حسين ، ونقض مطاعن فى القرآن الكريم للأستاذ الكبير الشيخ محمد عرفة ، ونقد الأدب الجاهلى للخضرى ... وبحث نظرية الدكتور طه ودراستها مفصل فى كتابى « الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى » .

٢ — وهذه البحوث التى تضمنها كتابى هذا : « موقف النقاد من الشعر الجاهلى » خطوة ثانية فى البحث الأدبى عن هذا العصر البعيد ، وضوء ينير السبيل فى دراسة الشعر الجاهلى والكشف عما أحاط به من عوامل

ومؤثرات ؛ وتلك الموازنات الأدبية التي سبق عرضها هي الأولى من نوعها فى دراسة كبريات القصائد الجاهلية ومدى ما فيها من تجديد أو تقليد .

ومن الله أستمد العون والتوفيق والسداد ؛ هو ولي نعم المولى ونعم النصير .

د. محمد عبد المنعم خفاجي

فهرســـت الكتـــاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة الكتاب	٣
الكلمة الأولى	٥
الفصل الأول	٦ — ٤٢
آراء علماء الأدب فى الشعر الجاهلى	٧
الشعر الجاهلى بين التجديد والتقليد	٢٣
الطبع والصنعة فى الشعر الجاهلى	٢٩
دفاع عن الشعر الجاهلى	٣٣
الفصل الثانى	٤٣ — ٩١
موازنة بين قصيدتين من عيون الشعر الجاهلى	٤٣
الحكومة الأدبية بين قصيدتى علقمة وامرىء القيس	٥٢
رواية الشعر ورواته	٧٦
المعلقات عمل فنى عظيم فى العصر الجاهلى	٨٧
الفصل الثالث	٩٢ — ١١٥
نظرية الانتحال فى الشعر الجاهلى	
الفصل الرابع	١١٦ — ١٤٥
صور من الأدب الجاهلى ونقدها	١١٧
الصورة الأولى : امرؤ القيس يصف الليل	١١٧
الصورة الثانية : ألوان من النثر الجاهلى	١٢٧

الموضوع	الصفحة
الفصل الخامس	١٤٦ — ١٥٢
الشاعر المصور	١٤٦
الفصل السادس	١٥٣ — ١٦٨
شاعر الحرب والنزال	١٥٥
الفصل السابع	١٦٩ — ١٨٠
شاعر المجد العربى	١٦٩
الفصل الثامن	١٨١ — ٢٠٠
شاعر الحكمة	١٨١
الفصل التاسع	٢٠١ — ٢١٤
لذات الشباب	٢٠١
الفصل العاشر	٢١٥ — ٢٢٨
امرؤ القيس	٢١٥
الفصل الحادى عشر	٢٢٩ — ٢٤٠
النابغة	٢٢٩
الفصل الثانى عشر	٢٤١
زهير	

الموضوع	الصفحة
الفصل الثالث عشر	٢٥٥ — ٢٨٢
طرفة : الشاعر الشاب	
الفصل الرابع عشر	٢٨٣ — ٢٩٨
الحطيئة الشاعر	٢٨٥
خاتمة البحث	٢٩٩

انتهى الكتاب بحمد اللـه وعونه

رقم الايداع بدار الكتب ٤٦٥٣ لسنة ١٩٨٨
ترقيم دولى ١ – ٠٦٩٣ – ٠٥ – ٩٧٧

مطبعـة حســان
٢٤١ (أ) ش الجيش
☎ : ٩٢٥٥٤٠